

سير و تراجم

حياة طبيب



د. نجيب محفوظ



حياة طبيب

د. نجيب محفوظ





تنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

محفوظ، نجيب ، ١٨٨٢ـ ١٩٧٤

حياة طبيب / نجيب محفوظ . ـ ط٢. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٣

٤٤٠ص : ٢٤سم .

تدمك ٢ـ ١٨٠ـ ٤٤٨ ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨

١ـ محفوظ، نجيب، ١٨٨٢ـ ١٩٧٤ـ المذكرات.

٢ـ الأطباء العرب.

أـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٧/٢٠١٣

I.S.B.N 978- 977- 448-180-2

ديوى ٩٢٠

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥ يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

رئيس اللجنة

إبراهيم أصلان

فهرس

إذا لم تكن قد أَعطيت الناس «نفسك» ،
فأنت لم تُعطِهم شَيئا !

حكمة مأثورة

تقديم

بقلم عميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين

هذا كتاب ممتع إلى أقصى غايات الإمتاع . فيه ألوان من الفائدة لا تكاد تحصى ، فيه العبرة وفيه الموعظة وفيه أسوة للشباب وفيه المتعة التي تجدها في كتاب عرف صاحبه كيف يكتبه ، لا تجد فيه تكلفاً ، ولا تجد فيه إهمالا ، ولا مبالغة من هذه المبالغات التي يتورط فيها كثير من الذين يتحدثون عن أنفسهم ، وإنما هو سائغ ميسر منذ تبدأ قراءته إلى أن تفرغ منه ، وهو بعد ذلك مغر بإعادة قراءته ، وقد قرأته مرتين ، وأكبر الظن أني سأقرؤه مرة ثالثة .

وقد تفضل الدكتور نجيب محفوظ فأهداه إليّ منذ وقت طويل ، وكنت حين وصل إليّ مريضاً مثقلاً بالمرض ، فأعانتني قراءته الأولى على ما كنت أجد من آلام ، ولم يسمح لي المرض بالحديث عن الكتاب ، ثم أعدت قراءته بأخرة فكأني لم أقرأه من قبل . ذلك أن مؤلفه عذب الروح حلو الحديث ، وأن حياته مليئة بما يستحق أن يسجل في الكتب . فقد كان في أول شبابه بل منذ صباه من أذكى أقرانه في المدرسة الابتدائية والثانوية وفي مدرسة الطب . لم يتعثر في دراسته . وأرادت الظروف أن تملأ حياته بما يدعو إلى التأمل والتدبر والاعتبار . فالحياة تقسو عليه في آخر صباه وأول شبابه ، فيفقد أباه ، ثم تتتابع عليه الخطوب كثيرة مختلفة ، منها ما يحزن ، ومنها ما يسر ، ولكنه إن حزن فلا يخرجه

الحزن عن طوره ، وإذا سر فلا يخرجه السرور عن طوره أيضًا ؛ لأنه معتدل دائماً . يقبل الحياة كما هى بخيرها وشرها ، ويعلم منذ بدأ يفكر أن ليس له بد من قبول الحياة كما تكون .

وإذا وصل من دراسته إلى التعليم العالى وأصبح من طلاب مدرسة الطب تتابعت عليه ألوان النجاح فى الدراسة ، فلا يغرّه ذلك ولا يبطره وإنما يغريه بالجد والمزيد من العناية والدرس والتحصيل . ولا يعرف تعثراً فى مدرسة الطب وإنما هو النُجح المتصل ، ورضا الأساتذة عنه فى كل وقت . فإذا بلغ آخر الدراسة وقارب الامتحان النهائى امتُحنت مصر بوباء الكوليرا واشتد هذا الوباء فى قرية من قرى الصعيد فيرسل إليها ليُعين الطبيب الإنجليزى فى هذه القرية على مقاومة هذا الوباء . وحسن الحظ مقدر له ، فلا يكاد يبلغ القرية الموبوءة حتى يخطر له أن يبحث عن مصدر الوباء فيها وهو يجدّ فى ذلك مصمماً عليه لا يلفته عنه لافت من رضا أو سخط أو إنكار . وما يزال كذلك حتى يعرف مصدر الوباء فإذا قهر الوباء فى مصدره خفت محنة القرية ثم ارتفع عنها البلاء . ولكن الوباء ينتشر فى قرى أخرى فيرسل إلى بعضها بعد أن تم له النجح فى القرية الأولى ولا يكاد يبلغ القريةَ التى أرسل إليها حتى يتاح له النجح فيها ، كأنما هذا النجح موكل به فهو يسبقه إلى كل مكان يرسل إليه ، فى الصعيد أولا وفى الإسكندرية آخراً ، حتى إذا هدأت العاصفة وعاد إلى مدرسة الطب ليؤدى الامتحان كان النجح قد سبقه إليها فإذا هو أول الناجحين . وإذا بدأ يحيا حياة الطبيب العظيم فقد قضى الله أن يكون النجح عن يمينه والتوفيق بين يديه ، فهو لا يحاول شيئاً إلا أدركه ، ولا تعرض له صعوبة إلا نفذ منها كما ينفذ السهم من الرمية .

والحياة مع ذلك تمتحنه بمشكلاتها ومصاعبها التى لا تنقضى ولكنه يحتمل الحياة حلوة ومرة ، فالتوفيق والنجح ميسران له فى فنه وفى حياته الطبية ، وهو ينشر الخير من حوله نشراً ، كأنما يلقيه عن يمين وعن شمال ، فما أكثر من أنقذ من

المرضى !وما أكثر ما وفق فى الجراحات حيث لم يُتَح التوفيق لأساتذته! ثم يغرى بانقاذ المتعثرات فى الولادة فيتقن هذا الفن بالتجربة والقراءة والجمع بين العلم والعمل، وينتهى من ذلك إلى أن يكون أستاذ المتخصصين فى هذا الفن وإلى أن يحصى اللاتى أنقذهن من عسر الولادة بالألوف المؤلفة . وقد أتيح له أكبر النجح فى ذلك وأصبح لا يقاس إليه متخصص فى فن الولادة فى الشرق العربى كله .

ثم لا يكتفى بالعمل ونشر الخير الكثير من حوله ولكنه يضيف إلى ذلك التأليف، فيؤلف عن تعليم الطب فى مصر بالإنجليزية - ثم يؤلف فى فن الولادة نفسه، وما هى إلا أن تعبر شهرته البحر والمحيط ، فإذا هو فى إنجلترا فى بيئتها العلمية ، وفى فرنسا وسويسرا، وإذا هو يدعى لإلقاء المحاضرات فى بلاد الإنجليز ويتاح له فى ذلك نجح أى نجح، ثم يدعى إلى المحاضرة فى جنيف، ثم يصبح فى بلاد الإنجليز ممتازاً معروفاً بالامتياز كأكبر الأطباء فى تلك البلاد .

وقد كلف بمهنته كلفاً نادراً فهو لا ينصرف عنها مهما تكن الظروف . علّم فى كلية الطب حتى أهدى إلى وطنه طائفة ضخمة من الأطباء، فلما ترك التعليم فى كلية الطب فرغ لمهنته مقبلاً عليها مشغوفاً بها لا لشىء إلا لأنه يحب أن ينفع الناس وينشر الخير عليهم نشراً .

وقد اختلفت عليه المصائب، ففقد الأهل وفقد بعض الأبناء . ولكنه كان على ذلك كله صبوراً جلداً لم يستطع الحزن مهما يبلغ أن يمنعه عن العمل وعن نشر الخير من حوله . وهو عندى مثال ممتاز لمحبى الخير وناشريه .

وهو يتحدث عن كل هذا فى كتابه الممتع من غير تكلف ولا تزيد، وإنما هو الحديث اليسير كل اليسر الذى تقرأه فيملأ نفسك غبطة ورضا وموعظة واعتباراً .

وهو نفسه يعرف كيف يستخرج العبرة من حياته وكيف يجد مواضع العظة والتأمل، بحيث نقرأ كتابه فنكاد نعتقد أنه لم يكتب لنا إلا حديثه الخاص

إلى نفسه ، كأنه يستعرض فى أوقات التأمل والتفكير حياته منذ الصبا إلى أن تقدمت به السن ، وكأن أداة سحرية كانت تلحظه وهو يتأمل فى حياته ويستعرضها فتسجل أحاديثه إلى نفسه وتنشرها بعد ذلك على الناس فى هذا الكتاب ، وهو لا يخفى شيئاً مما سره ولا مما أسخطه فى حياته ، بل هو ينبئنا بأنه لم يكن صاحب عناية بالطب وحده ، وإنما كان مشاركاً فى الأدب أيضاً .

كان يقول الشعر ، فقد روى لنا قليلا من شعره ،

وكان يقول الزجل ، وقد روى لنا نموذجاً من زجله .

وسواء مضى فى قول الشعر أم لا فالشيء الذى ليس فيه شك هو أن له ذوقاً أدبياً ملحوظاً ، وهو كثير القراءة لا فى العلم وحده ولكن فى الأدب أيضاً .

وإنى أعتذر إلى الدكتور من أنى لم أتحدث عن كتابه هذا الرائع وقت ظهوره ، وإنما أتحدث عنه الآن ، وعسى أن تكون طبعته الأولى قد نفدت ، وليس بد فيما أعتقد من أن يعاد طبعه مرة ومرة لكثرة ما فيه من المتعة والعبر والعظات .

وأنا أهدى إلى الصديق العزيز الدكتور نجيب محفوظ أصدق تحياتى خالصة متصلة .

طه حسين

إهـــداء

إلى بناتى وأزواجهن وحفـدتى :

طالما قصصت عليكم أحداث حياتى ، وذكريات أيامى ، وأنتم ملتفُّون حولى ، تصغون إلى قولى ، وتستزيدون منه . وكثيراً ما أشرتم علىّ بأن أدوّن هذا الحديث ، لتعاودوا مطالعته ، كلما هفت نفوسكم إليه . وكانت الشواغل والشئون تصرفنى عن أن أستجيب لتلك الرغبة ، فالجهد متصل ، والوقت لا يسعف ، وتدوين مثل هذا الحديث لا بد فيه من توافر الراحة ، وهدوء البال ، ورهافة الذاكرة ، حتى أستشف ما كان فى الأيام الماضيات .

والآن ، وأنا أقضى جانباً من رحلتى الصيفية فى مدينة « اوسرن » طافت بمخيلتى ذكرى الأوقات الهانئة التى أمضيناها معا على الشاطئ الجميل لبحيرة تلك المدينة ، نصغى إلى تغريد الأطيار ، ونستنشق النسيم الذى يهب محملا بأريج الأزهار ، ونشاهد البجع منساباً فى جلال على صفحة الماء الزرقاء ، كأنما يتيه عُجباً بما يسطع عليه من لؤلؤ أجنحته البيضاء .

هنالك اختلج فى وجدانى حنين إلى أن أدوّن ذكريات حياتى ، تلبية لرغبتكم التى كاشفتمونى بها من قبل . ولم أملك إلا أن أخلو إلى نفسى أعرض ما سلف لى من أحداث وشجون والقلم فى يدى يجرى بما تمليه الذاكرة . تارة وأنا جالس على مقعد من تلك المقاعد المريحة المتناثرة على ضفاف البحيرة بين صفوف الأشجار الظليلة ، يجتلى نظرى ما يشع من لازورد السماء ، وما ينعكس من زمرد الغابات . وطوراً وأنا أطل من غابة الجوتش Gutch على سلاسل من الجبال

الشوامخ ، تتوج هاماتها ثلوج ناصعة كأنها أكاليل الماس ، وأخرى دونها ارتفاعا تغطى قممها غابات باسقة الشجر ، وتنحدر أوديتها المكسوة ببساط سندسى نحو البحيرة تداعب موج الشاطئ .

ولست أنسى ما كان يملأ قلبي من روعة وخشوع وأنا فى نشوة بهذه المناظر البهيجة الخلابة ، مستغرق فى تأملاتى ، حين كانت تحمل الريح إلى سمعى رنات الأجراس فى كنائس القرى المنتشرة على ضفاف البحيرة ، وهى تتجاوب بأنغام موسيقية متوافقة على نحوٍ مدبّر ، مما يبعث النفس على التحدث بمجد مبدع الكون ، والشعور بما أفاضه من نعم .

وهاكم مذكراتى ، أو ذكرياتى ، أهديها إليكم ، فإن كان فيها تذكرة أو عبرة ، فالفضل فى ذلك لكم أنتم الذين حملتمونى على أن أكتب هذه الأوراق .

والدكم المحب

نجيب

إلى القــارئ

كتبت هذه المذكرات التى أوجزت فيها قصة حياتى ، وفى نيتى أن تكون موقوفة على أسرتى ، بناتى وأزواجهن وخلفتى ، يرجعون إليها متى شاءوا ، ولكنهم أبوْا أن يستأثروا بها ، وألحّوا علىّ فى أن يحتويها كتاب ينشر على الناس .

ولم يكن يطيب لى أن يقرأ الناس لى ما أتحدث به عن نفسى ، فالحديث عن النفس لا يخلو من غضاضة ، ولا يسلم من الارتياب . وقد تعودت منذ نشأت ألا أكون مادح نفسه ، فلا مباهاة بما أعمل ، ولا ثرثرة فى شأن يعنينى وحدى .

ولكننى بعد أن تروّيت فى الأمر مليّا ، بان لى أن من حق الشباب علىّ التحدث إليهم بما صادفنى من عقبات ومصاعب ، وما أفدت من خبرة وتجريب ، وكيف كان مبلغ اعتصامى بالصبر والمثابرة ، وماذا كان لى من وقفات إزاء المشكلات . وبتعبير جامع : كيف كانت ممارستى للحياة بما أحاط بى من أحوال وملابسات . فربما كان فيما أبسطه نفع لمن يصادفهم مثل ما صادفت ، إذ يأخذون أنفسهم بمواصلة السعى فى أداء الواجب نحو الله والوطن والإنسانية ، لا يعوقهم إغفال أو سوء تقدير ، ولا تبطرهم حظوة أو تشجيع ، ولكن يشقون طريقهم فى رضاً واطمئنان .

ومما أغرانى بالموافقة على نشر تلك المذكرات أنى بدأت حياتى العملية فى حقبة لها أوثق الارتباط بتطور مدرسة الطب المصرية ، بل بتطور الطب نفسه . وفيما جرى بين يدىّ من الأحداث بعض ما يلقى ضوءاً على هذا التطور ،

ويكشف معالمه ، ويبين وسائله . وذلك يجعل من المذكرات عوناً لمن يبحثون ويؤرخون لتلك الحقبة الدقيقة فى تاريخنا المعاصر .

وقبل أن أبدأ عرض مذكراتى ، أود أن أهمس فى آذان أبنائى من شباب الجيل ببعض ما آمنت بأنه أساس النجاح فى العمل والسعادة فى الحياة .

نصيحتى الأولى لهم أن يلتزموا الصدق مع أنفسهم قبل الصدق مع الناس ، فلا يحاولوا تبرير عمل خاطئ بإقناع أنفسهم بأنهم على صواب . وأقوى ضروب الشجاعة هى شجاعة المرء فى مواجهة خطئه ، والاعتراف به ، ومحاولة إصلاحه .

وعليهم أن يعملوا جاهدين ، ولا يهنوا فى سلوك الطريق المستقيم مهما يلقوا من مشقة وعنت ، وليقاوموا كل ما يصادفهم من المغريات ومزالق الأخلاق ، وليعفوا عن التعرض لكل ما يخدش الشرف ويذهب بالكرامة .

ولكى يكونوا نماذج رفيعة للخدمة والتضحية والمحبة ، لا بد أن يعملوا فى هدوء وتواضع ، ويحاذروا أن يكون هدفهم فيما يؤدون من مهمات إحراز شهرة أو تصيد مواقف رنانة . فإن النجاح القائم على الشهرة الزائفة والتهريج المصنوع نجاح كاذب لا ترضى به النفوس الكريمة .

ولى كلمة أقولها للذين وصلوا بجهادهم إلى ما صبوا إليه من منزلة عالية ، تلك هى أن يحذروا الغرور الذى يفسد عليهم ما أصابوه من فوز ، فما من صفة يتعرض صاحبها للمقت أدهى من صفة الغرور .

أما الذين جاهدوا وصابروا ، وقاوموا عقبات الطريق بعزم وحزم ، وأدوا للعلم ولبلادهم خدمات صادقة ، ولكن فاتهم التقدير الذى يجدر بما لهم من عمل ، فليحذروا أن يجدوا لهذا الإغفال مرارة فى أنفسهم ، أو أن ينكصوا عن طريقهم الذى سلكوه ؛ فليكافحوا ويناضلوا ، حتى ينتزعوا السبق والمجد ، مسلحين بما توافر لهم من ملكات الجد والمثابرة والكفاح المرير الخليق بأن يورثهم

كل مقومات النجاح ، ورعاية الله وعونه لا تخطئان من جدّ وثابر ، وليثقوا بأن التقدير الحق آت لا ريب فيه ، وإن طال المدى ، من حيث لا يتوقعون . وحسبهم على أية حال أن عملهم قد أثمر ثمرته الطيبة ، وذلك يفيء على المرء رضا النفس . وإن رضا النفس لهو أنبل غاية يتوخاها العاملون .

وأذكر أنه على أثر النصر الذى أحرزه الإنجليز بفضل القائد « مونتجمرى » أقاموا حفل شكر فى كاتدرائية سنت بول فى « لوندرة » دعوا إليها كل الشخصيات البارزة فى إنجلترا ، ولكنهم أغفلوا واحداً هو « مونتجمرى » نفسه . وقد جاء فى مذكرات الرجل أن هذا الإغفال لم يكن سهوا ، وإنما كان على عمد . ويقينى أن ذلك لا يغض من قدره ، بل يزيده علواً إن كان فى حاجة إلى المزيد .

أما كلمتى الأخيرة فأقولها لإخوانى الأساتذة فى المدارس والجامعات . فإنى أمضيت زهرة حياتى بينهم ، وأشعر أن علىّ واجباً نحوهم ، إن أهملته كان ذلك تقصيراً منى .

اذكروا يا إخوانى أنكم أصحاب أقدس رسالة فى الوجود ، لأنكم حملتم أمانة العلم ، فصار لزاماً عليكم أن تبذلوا من أنفسكم لأبنائكم الطلبة أقصى ما تستطيعون من تضحية . اذكروا أن مستقبل الطلبة ومستقبل الأمة جميعا أمانة فى أيديكم ، ستؤدون عنها حساباً أمام الأمة وأمام الله . لتذكروا عندما يقف الطالب أمامكم للاختبار أنكم إن هضمتموه حقه فستقتلون فيه روح الجهاد ، وتولدون فيه خيبة الرجاء .

علّموا الطالب أن يلتزم أداء واجبه كاملا ، بأن تشعروه بأنه أخذ حقه كاملا ، وثقوا أنكم تؤدون أكبر خدمة للفن الذى تخصصتم فيه إذا أنتم أخلصتم فى تعليم مرءوسيكم ، وعريتهم بالقدر الذى كنتم ترجونه لأنفسكم عندما كنتم مرءوسين . وإذا واتتكم الظروف فكنتم أعضاء فى مجالس الكليات فعليكم أن

تتحصنوا بشجاعة الرأى تدافعون بها عن كل ما تؤمنون به . وإذا تبين لكم بعد ذلك أنكم كنتم مخطئين فتذرعوا بشجاعة من الخلُق تساعدكم على التراجع وإحقاق الحق . إنكم إن فعلتم ذلك فستتمتعون براحة النفس ورضا الله والناس ، وهما نعمة لا ينالها إلا من انطوى قلبه على العدل بين الخلق أجمعين دون حيف أو جور .

أما من استبدّ برأيه ظالماً فحسبه ما يعانى من تأنيب الضمير .

مسقط الرّأس

على الضفة الشرقية من فرع النيل المسمى (فرع دمياط) ، وعلى بعد ستين كيلومتراً من مصبه ، تقوم مدينة المنصورة ، عروس الدلتا ، وعاصمة الدقهلية . ومن مميزاتها على غيرها من العواصم أن وجهتها تمتد على شاطئ النيل بضعة كيلومترات ، وتتراص عليها مصابيح وهاجة ، متى أضيئت جعلت المنظر فتنة للعيون . ويظهر هذا الجمال على أتمه للقادمين ليلا بالقطار السريع ، حين يعبر الجسر الذى يصل بين المدينة وقرية طلخا المقابلة لها على الضفة الغربية للنيل .

وفى المنصورة كان مسقط رأسى . والدار التى ولدت فيها كانت مشرفة على النيل ، لا يفصلها عنه إلا رحبة من الأرض ، خالية من المبانى ، كانت تتيح لأهل الدار أن يستمتعوا بمنظر النيل الجميل .

وكانت دارنا مكونة من أربع طبقات . وفى الطبقة العليا كانت غرفة نوم والدى . وكنت أنام فى غرفة ملاصقة لها ، بها نافذة تنظر النيل ، وتحتها أريكة . فكنت أجلس عليها حين أصحو من النوم فى ساعة مبكرة ، أصغى إلى تغريد الطيور ، وأرقب القوارب الشراعية الصغار ، وهى تنساب على النيل . وما أزال كذلك حتى يحين موعد الفطور ، والغدوّ إلى المدرسة .

وقد ظلت هذه عادتى التى جريت عليها إلى أن فارقت المنصورة بعد أن بلغت الثانية عشرة . ولعل ذلك ما أورثنى حب المناظر الطبيعية . وما برح هذا الحب يخامرنى حتى الساعة .

وفى عهد طفولتى كانت « المنصورة » مدينة تجارية ذات شأن . ومما زاد فى شأنها أن كانت بها « المحكمة المختلطة » ، وهى المحكمة التى وكل إليها الفصل فى القضايا إذا كان أحد الطرفين فيها أجنبيًّا ، أو محميًّا بدولة أجنبية من الدول ذوات الامتياز . وكانت القنصليات الأجنبية كلها ممثلة فى المدينة . والجاليات الأجنبية فيها قوية ، سواء فى العدد وفى القيمة المالية والاجتماعية . وأكثرها عدداً اليونانيون والإيطاليون ، وأقلها الإنجليز والأمريكيون والألمان ، وبينها جمع كبير من اللبنانيين والسوريين تعطى معظمهم حماية دولة أجنبية حق اللجوء إلى المحكمة المختلطة للفصل فى قضاياهم . وكان أبى يمارس تجارة القطن والغلال ، فاتصل أوثق الاتصال برجال الأعمال والمال فى المدينة ، وأسند إليه كثير من الجاليات الأجنبية رعاية شئونها الحسابية والمالية ، لشهرته بالمهارة والدقة والنزاهة ، واستعانت به المصارف المالية وبيوت التجارة فى ضبط حساباتها ومراجعتها ؛ فانهال عليه الكسب انهيالا ؛ ولكن موته الفجائى ، وهو فى سن الثالثة والخمسين ، وصغر سنى وسن إخوتى عند وفاته ، لم يتح لنا استغلال ما تركه حتى نحتفظ بمثل الرخاء الذى كنا نستمتع به فى حياته . ومما استبان لنا بعد رحيله عن الدنيا أنه كان يعول جملة من الأسر التى أخنى عليها الزمن ، وما كان فى مقدورنا أن نواصل صنيعه معها ، فاقتصرنا على إمدادها بالنزر اليسير .

وإنى لأجاهر بأن حياتى كلها كانت ، بعد وفاة أبى ، سلسلة نضال مع مكاره الدهر ، لا أكاد أتخلص من مكروه حتى أجدنى قد حاق بى ما هو أشد وأقسى . ولم يكن ذلك شرًّا محضاً ، بل لقد كان له أجمل الأثر فى تكوين خُلقى ، وترويضى على مجابهة الأرزاء ، واحتمال الأعباء . وقد كافأنى المولى على الرضا بالخطوب والصبر على المكاره ، فأسبغ علىّ من جلائل النعم ما يستوجب الحمد الجزيل ، والثناء الجميل .

ذكريات الطفولة

بعد تسعة شهور كاملة قضيتها فى بطن أمى ، فى عالم الظلام ، خرجت إلى عالم النور فى اليوم الخامس من شهر يناير سنة ١٨٨٢ ، وكان اليوم يوم الخميس . ولم أستقبل عالم النور بالبكاء والصياح ، ولم تكن يداى مقبوضتين ، كشأن الطفل ساعة يولد ، بل كنت مسترخيا كل الاسترخاء ، لا نبض ولا تنفس ، وذلك ما يسمونه فى الطب « أسفكسيا بيضاء » — وهى أسوأ درجات الاختناق الشديد — فقد لبثتْ والدتى فى مخاضها ثلاثة أيام بلياليها ، وكنت وليدها الثامن ، وهى يومئذ فى الخامسة والأربعين . وقد قررت الحكيمة « بهانة » وزوجها الدكتور « منصور » — وهما اللذان لازما والدتى فى مخاضها الطويل — أن المولود فقد الحياة ، فوُضعتُ فى صينية بجانب نافذة مفتوحة ، ولم يُقطعْ حبلى السرى ، إلى أن جاءت خالتى السيدة « هنا » وأسرّت إلى الحكيمة أن الوليد يتنفس على ضعف . فعملت الحكيمة على إنعاشى بما تعلم من الوسائل . ولكن تعرّضى للهواء البارد ، أمام شباك مفتوح ، والشتاء فى إبّانه ، كان له فى صحتى أثر سيىء عانيت منه شهرين بل أكثر . وهكذا استقبلت الحياة برضاً واستسلام . وبودى عندما يسترد الله وديعته أن أتلقى ذلك بابتسامة وثقة ورجاء .

والحق أن ذاكرتى لا تحتفظ بشيء يتعلق بعهد طفولتى ، قبل السنة الرابعة ، إلا زجاجات زيت السمك الذى كنت أتجرع منه على كره ثلاث مرات فى اليوم ، ولكنى استسغته من بعد .

وأول شيء أذكره فى وضوح ، حتى فى التفاصيل الدقيقة ، هو الحفلات التى أقيمت لزواج شقيقتى الرابعة « ليزة » . أذكر السرادق الذى نصب فى

الحديقة الصغيرة أمام الدار ، ولبث عشرة أيام قبل يوم زفافها . وفيه كانت تصدح جوقة موسيقية أحضرت من القاهرة خاصة ، وتلعب « البهلوانات » شطراً من الليل . فكنت أواصل السهر فى سرادق الفرح حتى يراودنى النعاس ، فأحمل إلى مخدعى فى الطبقة العليا من الدار ، وأنا بين النوم واليقظة . وأذكر كذلك أنى — أنا و « فهمى » ابن أختى الكبرى « فريدة » وهو رفيق نشأتى ، وكان يكبرنى بأربعة أشهر — صَحِبْنا سيدات الأسرة إلى حمام « المنصورة » ، وقد استؤجر لهن يوم الزفاف ، وظللنا فى الحمام منذ الصباح إلى ما بعد الظهيرة ، ثم خرج جمع المستحمات للسير فى زفة العروس ، والموسيقى تتقدمها ، حتى الدار. وكذلك أذكر « أمينة الصيرفية » التى استدعيت من « القاهرة » خاصة للرقص والغناء ، وبقيت أسبوعاً تحيي ليالى الفرح الملاح . وفى « ليلة الحناء » جلست تغنى وفى حجرها منديل تتلقى فيه « النقطة » — وهى ما يبذل لها من المنح — فدخل أبى ، وألقى فى المنديل بدرة من الجنيهات الذهبية ، فنهضت ترقص رقصاً عددته بديعا جدا فى ذلك الحين . ولما أزمعت شقيقتى « ليزة » السفر مع زوجها إلى « القاهرة » بعد أسبوع من ليلة الزفاف ، أصررت — ومعى « فهمى » — على مرافقتها إلى المحطة ، على الرغم من معارضة والدتى ، وبكيت بكاء شديدا ، وأنا أودعها ، لما كان لها عندى من منزلة عزيزة .

وفيما أذكره — وأنا فى الخامسة من العمر — التحاقى مع « فهمى » بمدرسة الأمريكان . وكانت بالمدرسة ألواح مقامة للعمارة يصعد عليها البناءون إلى الدور الثانى الذى كانوا يقومون ببنائه ، وكنت قد سمعت فى الدرس الأول أن الإنسان خُلق من تراب ، فلما غادرت الفصل ، أبيت أن أمشى على الأرض ، وتسلقت الألواح أتنقل عليها . فأدركنى المعلم مؤدباً وقال لى : « انزل يا ولد ، إيه الشقاوة دى ؟ » : فقلت « دى مش شقاوة ، أنا مش عايز أمشى على التراب اللى اتخلقت منه » . فكان رده : « بلاش كلام فارغ ، انزل امشى على

الأرض زى الناس كلها . انت حاتفضل مشعلق على السقالة طول عمرك ؟ »

وفى عهد طفولتى شخصيات ثلاث تركت فى ذاكرتى أثراً لا يمحى . أولها « الشيخة زهرة » . وهى سيدة بدينة قصيرة القامة ، كانت تُستدعى بين فترة وفترة فى موعد يحضر فيه جملة من سيدات الأسرة ومعارفها بقصد التسلية ، فإذا حضرت « الشيخة زهرة » جلست وسط البهو ، وطفقت تنشد بعض القصائد والتواشيح الدينية بصوت مقبول . وبعد أن تمضى فى إنشادها نصف ساعة أو نحوها ، يُطلق بخور زكى ، ثم تأخذ الشيخة فى غمغمة غير مفهومة بصوت خافت يرتفع رويداً ، وينتهى برقصة عصبية تؤديها الشيخة هى وخادمة لها تدعى « خضرة » . وبعد أن تنتهى من الرقص تقول : « حضرت الأسياد ، حضرَ ملوكُ الجان ، واللى عندها مشكلة تتفضل تعرضها » . ويظهر أن خادمة هذه السيدة كانت لها خاصة « الصوت الباطنى Ventriloquism » ، فإنها كانت تجيب عما يلقى عليها من الأسئلة بصوت غريب يتردد فى أركان البهو ، تارة يمنة وتارة يسرة؛ ولم تكن أمى وأخواتى ممن يعتقدن هذه الأوهام ، وأغلب الظن أنهن كن يتخذنها لضيوفهن للتسلية والإيناس .

والشخصية الثانية هى شخصية « الدادة صباح » ، وهى من معتوقات الجوارى . وكنا نجتمع حولها كل ليلة لنسمع ما تقصه علينا من حكايات خلابة . فكانت تقص علينا كيف اختطفها الجلابون ، وهم الذين يجلبون الجوارى من السودان للبيع ، وكم أذاقوها من عذاب أليم ، وكيف باعوها فى سوق الدلالة ، أو سوق النخاسة ، وكانت تصف لنا سوء معاملة هؤلاء النخاسين ، وكيف كانوا يكوون ظهرها بالمسامير المحماة إذا بدت منها محاولة للهرب . وكثيراً ما بكيت بكاء مريراً وأنا أتصور هذه المعاملة السيئة . وكان « لدادة صباح » مقدرة على سرد قصص الغيلان والعفاريت ، ومحاكاة أصواتها . وعلى الرغم من أن أجسادنا كانت تقشعر لهذه الأصوات فقد كنا نبادر إلى سماع تلك

الحكايات ونستزيد منها فى اشتياق ، ونطلب إعادتها مرة بعد مرة . فإن نسيت منها شيئاً ذكّرناها به ، وطلبنا إليها أن تقص القصة من أولها .

وشخصية « عنتر » خمير المزرعة ، هى الشخصية الثالثة ، وكان ممن علت بهم السن ، يزعم أنه من الجند الذين ساقهم « محمد على » فى حملاته خارج مصر . ومهما يكن من أمره ، فإنه كان بارعاً فى وصف الحروب وأهوالها ، يحسن تمثيل مواقف البطولة التى خاضها . وكنا نحرص — أنا و « فهمى » — على الجلوس إلى الشيخ « عنتر » حين نذهب إلى المزرعة فى الإجازات المدرسية . وكانت هذه المزرعة تبعد خمسة كيلومترات من المنصورة ، ولم نكن نملّ الإصغاء إلى حديثه فى وصف مشاهداته الحربية ، ونستشعر حماسة وحمية تدفعنا إلى الرغبة فى القيام بالخدمة العسكرية ، إلا أن هذه الرغبة لم تتحقق .

ولا شك فى أن طفولتنا على الرغم من خلوها من دواعى الترفيه عن النفس كالراديو والفونوغراف والتليفزيون والسينما ، كانت موفورة الحظ من المباهج وألوان المتاع الأخرى ، وكان لنا من حرية التصرف ما ليس للأبناء فى يومنا الراهن . أذكر أنه عنّ لنا أن نصنع بعض المثلجات « الجيلاتى » ، فسألنا عن طريقة صنعها ، حتى عرفناها . وكان علينا أن نحصل على الآلة الخاصة بعملها ، وهى فى عهدة « الأسطى سيد » الطباخ . فلما طلبناها منه امتنع ، فغاظنا ذلك منه . وكان من عادة هذا الطباخ أن يكثر من شرب « العرقى » . وكان يضعه فى زجاجة يخفيها فى صوان عرفنا موضعه ، فجعل « فهمى » ابن أختى ينتهز فرصة خلو المطبخ من الخدم ، فيكفأ الزجاجة على جانبها ، فيندلق ما فيها . وفطن الطباخ إلى سر ذلك بعد أيام ثلاثة ، فنادى «فهمى» وسأله ، فضحك قائلا له : « أيوه أنا اللى باعمل كدا وطول ما انت ممتنع عن إعطائنا آلة المثلجات مش رايح تهنى بنقطة من العرقى » ! ولم يملك الطباخ إلا أن يذعن لما نريد، فصنعنا

« الجيلاتى » بحسب الطريقة التى أرشدنا إليها ، ولكننا أكثرنا من الملح فوق الثلج ، فتناثر منه شيء فى اللبن ، دون أن ندرك ، وذهبنا مزهوين بأطباق « الجيلاتى » نوزعها على الجالسين إلى المائدة . وما كادوا يتذوقونها حتى عراهم الاشمئزاز ، وجعلوا يهزءون منا ، فكان خجلنا شديداً .

كان « فهمى » ميالا بطبعه للعبث، وكثيراً ما كان يغرينا بأن نشق عصا الطاعة وأن نمارس ألواناً من المشاكسات . ومن ذلك أن كبار الأسرة سافروا مرة إلى المزرعة ، ليمضوا بها أسبوعين ، ففاجأهم هنالك جمع من الزوار أزمعوا المبيت ، فكان من الضرورى أن يرسلوا فى طلب فراش لهؤلاء الزوار ، فأرسلوا مركبة مفتوحة من النوع المسمى بـ « العربات الكارو » ، لتحمل المراتب والألحفة والوسائد ، فزين لى « فهمى » أن نختبئ بين طياتها ، فى خفية من السائق ، لنستمتع باللهو مع أبناء (رضوان) ناظر المزرعة ، نصطاد معهم السمك ، ونمتطى الحمير ، ونأكل الذرة المشوية فى فضاء الحقول ، ففعلنا ذلك . ولما تجاوزت المركبة بنا جسر « البحر الصغير » ظهرنا للعيان ، ولم يستطع سائق المركبة الرجوع بنا ، خشية ضياع الوقت . وحين وصلنا إلى المزرعة ، وعلمت الأسرة بمقدمنا ، توعدتنا بالضرب ، ولكنها تناست وعيدها ، وظفرنا هناك بمتعة طيبة .

وما أبرئ نفسى من المعابثات الصبيانية التى كان يضيق بها أبواى . ففى ليلة عيد ، كانت الأسرة مشغولة بإعداد مقتضياته من طعام وكعك وملابس جديدة . وتم كل شيء ، ولكن حذائى الجديد لم يصل إلىّ ، فإن « الخواجة جورج » صانع الأحذية لم يكن قد أتم صنعه بعد . وكان قد وعد بإحضاره قبل غروب الشمس ، فأسرعت إليه فى دكانه بالسكة الجديدة ، وعلمت منه أنه لن يفرغ من إعداد الحذاء إلا فى غد ، فجعلت أشن الغارة عليه ، وأصررت على ألا يغلق دكانه قبل أن يعد الحذاء ، ولزمته وهو يعمل بهمة لتحقيق رغبتى ، حتى بلغت الساعة الحادية عشرة مساء . ولم يكن أحد من أهل الأسرة يدرى

أين أكون ؟ فتفقدونى فى منازل الأقرباء ، فلم يجدونى . فأطلقوا فى طلبى المنادي الذى يستأجره الناس للبحث عن الأولاد الغائبين . وكانت العبارة التى يرددها المنادى هى هى لا يغير منها كلمة واحدة ، فهو ينادى بصوت عال قائلا : « يا اولاد الحلال ، يا مردِّين الأمانات واللهفات ، ولد صغيِّر تايه من المغرب والحلوان ستة بنتو[1] ، والأجر والثواب على الله . يا عدوى » . أما العَدَوى هذا الذى يستنجد به المنادى فهو ولىّ صالح يعتقد الأهلون أن بركته ترد المفقود . على أنه ما كاد المنادى يمضى فى طريقه حتى كنت قد رجعت إلى الدار متأبطاً حذائى الجديد ، حذاء العيد . وقد استقبلتنى الأسرة بالعناق والتقبيل ، فرحاً بعودتى سالما ، إذ سبق إلى ظنونهم أنى قد أصابنى مكروه . ولكنهم لم يعفونى من اللوم على ما صنعت بعد

وكانت تسليتنا كل مساء هى الإصغاء إلى « الحواديت » التى كانت الخادمات — فى ذلك الحين — تتقن إلقاءها كل الإتقان . وكان معظمها يتعلق بالجن والعفاريت . وكان الاعتقاد سائدا بوجودها . ولكن لا أدرى لماذا كنت أنكر ذلك البتة ، ولا أصدّق وقوع شىء خارق للمألوف . فإذا استمعت إلى قصص من هذا القبيل قصدت بسماعها التسلية وتمضية الوقت حتى يحين ميعاد النوم . وذات يوم حضرت لزيارتنا أسرة خالى « يوسف (باك) روفائيل » مع سائر خدمها لإمضاء شهور الصيف معنا ، كما هى العادة كل سنة . وكان من بين الخدم سيدة فارعة القامة تسمى « فجر » . وجرت بينى وبينها مناقشة حول الجن والعفاريت ، فادعت أنها رأتهم رأى العين غير مرة ، فعارضتها أشد معارضة ، ورميتها بسخف العقل . فأغضبها ذلك منى . وأسرّت فى نفسها أمراً هاك تفصيله :

---

(١) البنتو هو الجنيه الفرنسى ، وكان كثير التداول بالمنصورة ، وكان يساوى ٧٧ قرشاً تقريباً .

حدث أنى ، فى فترة وجود عائلة خالى بمنزلنا بالمنصورة ، كنت أشهد اجتماعات تقيمها مدرسة الأمريكان للطلبة مرتين كل أسبوع . وكانت هذه الاجتماعات مسائية تمتد إلى الساعة التاسعة، وكنت بعد حضورى هذه الاجتماعات أعود وحدى إلى المنزل . وفى الليالى التى لا يكون فيها القمر ساطعاً تظل شوارع المنصورة الصغيرة فى ظلام دامس ، إذ لم تكن هذه الشوارع تضاء إلا بمصابيح يضعها أصحاب الدور على الأبواب ، وربما انطفأت ، أو أهمل إيقادها ، فتعم الظلمة . وحدث ذات ليلة وأنا عائد من الاجتماع المدرسى ، والطريق مظلم ، أن رأيت على مقربة من الدار شبحاً ملتفاً فى ملاءة بيضاء تغطى رأسه ووجهه يعدو نحوى، باسطا ذراعيه ، ففزعت غاية الفزع ، وأحسست شعر رأسى يقف، ولم يسبق لى هذا الإحساس من قبل ، ولا حدث لى من بعد . ووقوف شعر الرأس هذا ينشأ من انقباض العضلات التى تربط شعر الفروة بالجلد، وهو شديد الإيلام . وقد اختل توازنى من الذعر اختلالا سقط له طربوشى ، فلم أعبأ به ، وجريت إلى الدار فراراً من الشبح المخيف . فلما اجتمعنا نحن الصغار ، على مألوف العادة ، جلست إلينا تلك الخادمة « فجر » تقص علينا حكايات الغيلان والعفاريت ، كعادتها ، ثم أخذت تقول : « أهو نجيب ظهر له الليلة عفريت وخطف طربوشه وقد استطعت أن أسترده منه . شفت بق يا سى نجيب ؟ اتفضل طربوشك أهه » . فأدركت على الفور أنها هى التى تمثلت لى شبحا فى الظلام ، وأنها عمدت إلى ذلك لتقنعنى بما أنكر من وجود العفاريت . فقلت لها مجابهاً : « وكيف استطعت استخلاص الطربوش من العفريت ؟ كلام فارغ . إنك أنت التى أزعجتنى ، وحصولك على الطربوش دليل على ذلك » فلم تجادلنى ، وعرفتْ أن حيلتها انكشفت . فاستأنفت تقول : « دعنا من هذه الحكاية ، ولكن ما قولك فيما سمعناه اليوم من أمر الدار المقابلة لداركم من الجهة الغربية ، فإن عفريتاً من الجن يقذفها بالحصى الكبير كل يوم عند الظهيرة ، وقد هجرها

ساكنوها ولم يجرؤ أحد على السكنى بها » . فقلت : « إن هذا غريب حقاً ، ولكن لا بد له من سبب » . وفى الصباح رغبت إليها فى أن ترافقنى إلى تلك الدار ، فلما دخلتها ألفيتها مهجورة حقاً ، والحصى الكبير يفرش حجراتها .

عجبت أشد العجب مما رأيت ، ولكن لم يخامرنى شك فى أن هناك لذلك سبباً معقولا . وعزمت على أن أتقصى الأمر ، فانتظرت حتى يوم السبت ، يوم الإجازة المدرسية ، وتسللت إلى الدار وحدى ، وظللت مختبئاً فى إحدى الحجرات حتى صاح المؤذن لصلاة الظهر ، فأخذ الحصى الكبير يتساقط على الدار ، وتبينت بوضوح — وأنا مختبئ تحت شباك — رجلا وامرأة فى الدار المجاورة يقذفان بذلك الحصى ويستخفيان . فلما انقطع قذف الحصى خرجت دون أن يرانى أحد ، وذهبت مسرعا إلى دارنا ، فإذا أمى قلقة البال لغيبتى ، وقد أرسلت الخدم فى طلبى . وما إن رأتنى حتى أخذت تؤنبنى ، إذ كانت هذه هى المرة الثانية التى أغيب فيها ولا يعلم أهل الدار أين أكون . فقصصت على أمى ماجرى . واتفق حضور أبى وقتئذ ، فدهش مما سمع منى ؛ وكانت له بصاحب تلك الدار المهجورة معرفة ، فبعث يستدعيه ، وأخبره بما شهدت من جلية الأمر ، فقال : «هذا عجيب حقاً . إنى كنت فعلا أعتقد أن الدار قد سكنتها العفاريت» . وذكر أن جاره قد عرض عليه شراءها منه بثمن بخس ، وكان على وشك أن يبيعه إياها . أما وقد بانت له الحقيقة ، وانجلى السر ، فهو سيهدد ذلك الجار برفع الشكوى إلى الشرطة . ومنذ ذلك الحين انقطع سقوط الحصى على الدار ، وأهلت بالسكان .

ومن ذكريات طفولتى ، وأنا فى الثامنة من عمرى ، أن « فهمى » ابن شقيقتى ورفيق صباى مرض بالجدرى ، وكانت إصابته به شديدة ، فعزلوه فى

حجرة خاصة ، وشددوا علينا فى ألا ننزل إلى الطبقة التى فيها حجرة العزل ، ولكنى انتهزت فرصة خروج كبار الأسرة فى زيارة ، ونزلت إلى الحجرة التى كان « فهمى » معزولا فيها ، ولبثت معه وقتاً طويلاً . وقد هالنى منظر بثرات الجدرى التى كانت تغطى وجهه ويديه ؛ وكنت أظن أنهم لا يكتشفون مخالفتى فى النزول إليه ، ولكنى ضُبطتُ وأنا متلبس بالجريمة ، فما لبثوا أن أخرجونى من الحجرة ، وأعطونى حماماً ساخناً ، وبدّلوا ملابسى ، وزيادة فى الاحتياط طعّمونى بالمادة المضادة للجدرى ، وأرحلونى إلى « كفر البرامون » حيث كانت تقيم شقيقتى « عزيزة » . وفى دارها تعرفت إلى خادم متقدم فى السن يدعى « السيد الجندى » ، كلفوه أن يلازمنى مدة إقامتى . وهو رجل ينتمى إلى أسرة كريمة ، وأخوه « الحاج على » عمدة « الكفر » . وفى طفولتهما ذهبا معاً إلى « الكتّاب » ولكن « السيد الجندى » لم ينجح ، على العكس من شقيقه الذى أثرى . والسبب فى إخفاق « السيد الجندى » أنه اعتاد شرب الخمر فتدهورت حاله ، ومع ذلك كان محدثاً لبقاً ، وكثيراً ما كان يقص علىّ حكايات مسلية من « ألف ليلة وليلة » وغيرها . وأذكر مما كان يحدثنى به الحكاية التالية قال :

« كان فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، عالمان كبيران ، من علماء اليونان ، أحدهما يدعى " سقراط " ، والآخر يدعى " بقراط " . وكانا فى الظاهر صديقين ، وفى الباطن عدوين لدودين ، يتمنى كل منهما أن يموت الآخر لينفرد بالشهرة . وكان " بقراط " من كبار الأطباء ، يعيش فى بلدة نائية عن بلد "سقراط". وحدث أن أصيب "سقراط" بمرض شديد ، حتى انقطع الأمل فى شفائه ، فأرسل تلميذاً من تلامذته إلى « بقراط » ، وأوصاه أن يقول له : إن أخاك " سقراط " توفى إلى رحمة الله ، وأن يصغى إلى كل كلمة يردّ بها " بقراط" حين يسمع نبأ الوفاة . ولما عاد الرسول سأله " سقراط " : " ماذا كان من الأمر ؟ " فقال الرسول : "لما أخبرته الخبر

أسف جداً لوفاتك"، فقال "سقراط" : "اذكر لى الجملة التى فاه بها بالحرف الواحد" . فأجاب الرسول : إنه قال : "مات سقراط وما ألّفت له دوا" ، فما سمع « سقراط » هذا القول حتى صاح : « هاتوا لى ماء لفت ! » (١) فأحضروا له قدحاً مملوءاً به ، فشربه على الفور ، وكان فيه شفاؤه . . . »

ولما فرغ « السيد الجندى » من قصته ، سألته : « وهل كان سقراط وبقراط يعرفان العربية ؟ » فقال : « كيف لا ؟ الدنيا كلها تتكلم العربية ! »

ومما أذكره « للسيد الجندى » أنه كان يرافقنى كل يوم فى الذهاب إلى الحقل ، للتنزه والتفرج . وكنا نمر فى طريقنا بمدافن القرية ، وكثير من المدافن القديمة منها متهدمة منبوشة ، والعظام فيها مبعثرة . ويوماً ، ونحن فى الطريق إلى الحقل مررنا بتلك المدافن ، فلحظنا بين العظام جمجمة عارية من الجلد ، فأخذها « السيد الجندى » بين يديه ، وجعل يتأمل فيها ، ثم وجه نظرى إلى « التداريز » التى تصل بين عظام الجبهة ، وهى على شكل خطوط « مشرشرة » وقال : « هل ترى هذه الخطوط ؟ » فقلت : « نعم ، أراها . » فقال : « هذا هو المكتوب على الجبين ! » ثم شرح لى معنى ذلك ، فقال : « كل ما يحدث للشخص فى حياته مقدر عليه ، ومكتوب على جبينه . وكل مكتوب على الجبين لازم تراه العين ! » فتعجبت كل العجب ، وأردف قوله : « تعرف ياسى نجيب السبب فى أن أخويا عمدة كفر البرامون وأنا خدّام ؟ » فقلت : « لا أعرف » . فقال : « المقدّر والمكتوب . كان أخوى مكتوب له السعد ، وأنا مكتوب لى الفقر . ولكن الفقر جالى بسبب شرب الخمرة اللى أفسدت علىّ كل شيء » فقلت : « بطّل الشرب ياعم سيّد » . فقال : « وإزاى أفرّ من

(١) التورية هنا بين قول « سقراط » : « ما ألفت » وتفسير « بقراط » لهذه الجملة بأنها : « ماء اللفت » . واللفت هو الثمرة التى تنقع فى الملح وتؤكل ويشرب ماؤها .

المكتوب؟ تعرف ياسى نجيب ، أنا بردو أسعد من أخوى. والست عزيزة شايفه خاطر الخدامين على الآخر . . . » .

وفى فصل خاص من هذه المذكرات تحدثت عن « القدَر » وما له من مفاهيم تتفاوت فى التأثر بها عقول الناس .

التربية المنزلية

لنشأة أبى أثر ملحوظ فى الطريقة التى جرينا عليها فى معيشتنا المنزلية ، فقد كان أبوه من عائلة كريمة ، وكان موظفاً بديوان المديرية ، عاش حتى أكمل المائة ، ولم يفقد سناً من أسنانه . وزوجته التى رزق منها بأبى من إحدى أسر المنصورة ، ماتت بعد ولادته بوقت قصير ، فتزوج جدى سيدة من ميت غمر رزق منها بابنة وستة بنين .

ولما بدأ والدى حياته العملية التحق كاتبا بأحد متاجر الحاصلات الزراعية ولا سيما القطن . وكان لهذا المتجر علاقة وثيقة بسوق القطن فى « الإسكندرية » وما هى إلا أن أبدى أبى كفاية ممتازة فى الشئون الحسابية والتجارية ، حتى رغب إليه أصحاب المتجر أن يكون لهم شريكاً ، أملا فى أن تزداد الحال تحسنا بتلك الشركة ، وتم ذلك لهم ، وطفقت المكاسب تتدفق ، فكان له منها نصيبه الموفور .

ولما أثرى أبى ، غمر بيت جدى بالخيرات ، وأكرم زوجة أبيه غاية الإكرام ، على الرغم من أن سوء معاملتها له ، وإيغار صدر والده عليه ، كانا السبب فى إرغامه على ترك منزل والده ، وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من العمر ، ولكن صدره لم يوغر عليها ، بل بالعكس من ذلك اعتبر أن عناية الله حولت هذا المسلك السيء إلى الخير . وكان له فضل فى حفزه على السعى ، وجعله يعوّل على النفس ، حتى بلغ تلك الدرجة من النجاح المالى المرموق .

وقد اقتنى أبى مكتبة حافلة ، حوت كثيراً من كتب الدين ، وخاصة ما صدر من كتب المؤتمر الذى عقد فى الهند بين المسيحيين والمسلمين ، مثل كتاب « إظهار الحق » و « الهداية » و « سوسنة سليمان ، فى أصول العقائد

والأديان » و « معانى الصلاة » . وفى أوقات فراغى طالعت هذه الكتب ، وألممت منها بأسس الديانة ، وتعلمت منها آداب المناظرة ، وآمنت بأن الحرية حق لكل ذى فكر ، حتى يبدى ما يعتقده الصواب ، دون تحرج من الخلاف فى الرأى .

وكذلك كان أبى مشتركاً فى شتى الصحف اليومية والمجلات العلمية . وكانت تعقد بمنزلنا جلسات فى قاعة الاستقبال ، يدور فيها الحوار بين أزواج أخواتى ، متناولا مختلف الموضوعات . والحديث شجون . وكان أحدهم – وهو كما كنا نسميه : « المسيو تادرس» ناظر المدرسة الأمريكانية – يقرأ بعض مقالات الصحف بصوت جهورى ، فأستمع للحديث ، وأصغى لما يتلى ، وأشترك فى المناقشة بما يحضرنى من قول ، وأنا فى الثامنة أو ما دونها .

ومما أذكره لأبى أنه كان يريدنى على أن أقرأ له – قبيل نومه – إصحاحاً من الكتاب المقدس ، ويشرح لى ما يخفى علىّ أثناء القراءة من دقائق المعانى . وكانت أمى تستظهر كثيراً من الآيات ، وتفسر لى ما يغمض من معانيها . وفيما بين الثامنة والثانية عشرة من عمرى ، اشتد شغفى بالقراءة ، فلم أكن أدع من مكتبة أبى كتاباً إلا طالعته ، كما أنى كنت أحرص على قراءة ما يأتينا من نشرات تجارية تبين أسعار القطن وحركة الأوراق المالية ، فإذا استعصى علىّ فهم شىء منها استعنت بأبى على حل ما يعترضنى من غموض .

وإنى لأدين بمحبتى للثقافة العربية لثلاثة كتب شُغفت بها فى بكرة العمر ، أحدها «مجانى الأدب » بأجزائه الستة ، والثانى « مجمع البحرين» ، والثالث « نُخَب المُلَح » وقد استظهرت – أنا وفهمى – ابن شقيقتى – كثيراً مما حوت هذه الكتب من شعر ونثر ، وكنا نتنافس فى إنشاد ما حفظناه بظهر الغيب ، ونعلى صوتنا بالإنشاد ، ونتناوب فى المطارحات الشعرية ، بأن أروى بيتا على قافية فيعقب عليه « فهمى » ببيت يبدأ بحرف تلك القافية . وما يزال كثير من محفوظى فى تلك الحقبة عالقاً بذاكرتى إلى الآن .

عهد الدراسة

كان أول عهدى بالتعلم فى مدرسة الأمريكان . التحقت بها وأنا فى الخامسة ، وبقيت فيها إلى تمام العشر . وكان زوج شقيقتى الكبرى ناظراً لهذه المدرسة ، ومديراً لمدارس الأمريكان فى الوجه البحرى .

ولم يكن غرض المدرسة فى ذلك الحين تحضير الطلبة لنيل شهادات الدراسة الحكومية ، بل كان كل همها متجهاً نحو الثقافة العامة ، فكانت تحثنا ونحن لا نزال فى سن المراهقة على مطالعة كتب الأدب واستظهار الأشعار . وكانت تعقد اجتماعات أسبوعية يتولى فيها الأساتذة تمرين التلامذة على الإلقاء وعلى المحاضرات والمناقشات البدائية التى تلائم سنهم ، وترشدهم عند تحضير المناقشات إلى الكتب التى يستقون منها معلومات تعينهم على المناقشة . وكانت اللغات تنال حظاً وافراً من العناية ، فكان المرسلون الأمريكيون يتولون التدريس فى السنين المتقدمة ، ويعنون بأن يمرنوا التلامذة على النطق الصحيح . وإذا كان فى هذه المدرسة نقص واضح فهو فى الوصول بالتلميذ إلى ما يؤهله للحصول على الشهادات . على أن لها فضلا لا ينكر فى عنايتها بالخلق القويم ، وإقناع التلاميذ بشتى الطرق بالإقلاع عن تصديق الخرافات العجائزية من سحر وحسد وجن . ولا أريد أن يفوتنى ذكر الحفلات التى كانت تقام فى ليلة رأس السنة ، فقد كانت المدرسة تزين بالأعلام والأنوار ، وكانت التلامذة تمثل رواية قصيرة يقضون فى التحضير لها شهراً على الأقل . وكان لأحد الطلبة ، ويدعى «بطرس صليب» ، مقدرة على تمثيل الروايات الفكاهية .

وفى نهاية الحفل كانت توزع على التلامذة أكياس الحلوى ، وكانت

تخصص للطلبة المشهود لهم بالكفاية الأخلاقية كتب ملأى بالصور الملونة .
أما عناية المدرسة بالأخلاق فكانت مضرب الأمثال ، فالتلميذ الذى لا يرجع عن خطأ بيّن كان يوقف شهراً ، فإذا عاد إلى خطئه فصل من المدرسة . وأذكر على سبيل المثال تلميذاً كان يدعى « يعقوب » اعتاد سرقة كتب الطلبة ، وتمادى بعدها فسرق نقود والده ، فاجتهدوا فى علاج نقصه هذا ، فلم يرتدع . ففكر والده فى طريقة مزرية لعلاجه ، وكاشف بها ناظر المدرسة ، فنهاه عنها نهياً باتّاً ، وهدده بفصل ابنه نهائيّاً إن هو فعل ذلك . ولكنه لم يأبه بهذا التحذير ، فأركب ابنه حماراً بلا برذعة ، وجعل وجهه نحو ذيل الحمار ، وعلّق فى عنقه ورقة مكتوباً فيها « أنا حرامى » . وسار الحمار يحمل « يعقوب » فى الشارع ، ووراءه عدد من الأولاد المستأجرين يصيحون : « يا يعقوب يا وش القملة ، مين قال لك تعمل دى العملة ؟ » وعاد « يعقوب » ووالده إلى المدرسة فى اليوم التالى ، وقابلا ناظر المدرسة فأفهمهما أن « يعقوب » فصل من المدرسة نهائيّاً . وقد بذلت مساع كثيرة لرجوعه ، ولكن لم تنفع شفاعة ولا جاه . ومن حق « يعقوب » علىّ أن أقول إن والده لم يكن خيراً منه أخلاقاً !

أما خروجى من المدرسة فكان فى واقع الأمر لسبب تافه ، فقد حدث أن معلم الجغرافيا سألنى عن عاصمة أفغانستان ، فأجبته بأنها « كابول » فقال : « وما عاصمة بلوخستان ؟ » فلم أجد جواباً ، فاستشاط غضباً ، وعنفنى تعنيفاً صارماً لم أجد له مبرراً . فصبرت حتى انتهت الحصة ، وذهبت إلى والدى فى مكتبه ، وأخبرته بما حصل ، وأردفت ذلك بأن بيّنت لوالدى أن بقائى بالمدرسة يحرمنى الحصول على الشهادة الابتدائية التى تؤهلنى لدخول القسم الثانوى ، وبذلك تفوتنى فرصة التحاقى بمدرسة الطب التى كنت أحلم بالالتحاق بها . فقال والدى إنه سيلحقنى فى أول السنة المكتبية بمدرسة الحكومة ، لا لسبب تعنيف المدرس لى ، ولكن لوجاهة ما بيّنته له ، فى الشطر الآخر من حديثى . وقد فعل . ولكن صلتى

بالمدرسة لم تنقطع بدخولى مدرسة الحكومة ، فقد كنت وأنا بها أنتهز كل فرصة للذهاب لمدرستى القديمة التى أحفظ لها أحسن الذكريات .

وكان التحاقى بالمدرسة الحكومية أول خطوة فى الطريق إلى الغرض الذى رسمته لنفسى من بعد ، وهو أن أدخل مدرسة الطب . ولا أغفل فضل مجلة « المقتطف » فى توجيهى إلى ذلك الغرض ، إذ كنت أقرأ فيها ما يكتبه الدكتور « شبلى شميل » فى اكتشاف « كوخ » Koch لمكروب التدرن الرئوى ، والمصل الذى حسبه شافياً منه ، وما يشرح به نظرية « داروين » فى النشوء والارتقاء ، وما يقوله العلماء فيها من تأييد أو تفنيد . وكذلك أذكى ميلى للطب ما قرأته من الكتب الطبية التى ألفها لجمهور القراء الدكتور « فانديك » Vandyke والدكتور « وارتبات » ، Wartbat وقد طُبعت هذه الكتب فى « بيروت » طبعاً أنيقاً .

وكانت مدرسة المنصورة الابتدائية — إبَّان التحاقى بها — مشهورة بين المدارس الحكومية بأن بها مدرسين أكفاء ، وأنها على درجة عالية من حسن النظام . ومرد ذلك إلى ناظرها « أحمد (بك) نجيب » الذى قضى شبابه ضابطاً فى الجيش ، ومعلماً فى المدرسة الحربية؛ فما تكاد الساعة تستوفى الثامنة صباحاً حتى ترى الطلاب قد اصطفوا ليعرضهم ناظر المدرسة . والويل للطالب الذى لا يحسن الوقوف مرفوع الهامة ، معتدل القامة ، حسن السمت ، والويل — كذلك — له إن لم يكن نظيف البزة ، لامع الحذاء .

أمضيت فى هذه المدرسة سنتين ، نلت بعدهما الشهادة الابتدائية ، وأبرز ما أذكره مما جرى فى هاتين السنتين زيارة كل من الشيخ « حمزة فتح الله » مفتش اللغة العربية ، و « المستر دنلوب » Dunlop مستشار التعليم بالوزارة ، وسأجمل ما يتعلق بى من زيارتيهما للمدرسة :

كنا نتلقى دروس اللغة العربية عن الشيخ « محمد المهدى » ، وهو معلم ممتاز ، سمح النفس ، أعجب باطلاعى على شيء من أدب العرب ، واستظهارى لبعض الأشعار ، فلم يضن بإطرائى أمام رفاقى الطلاب . ويوما أنبأنا بأن مفتش اللغة العربية مقبل علينا لاختبارنا ، وأوصانا بأن نتفهم ما يلقيه علينا من الأسئلة ، وأن نتدبر الجواب فى روية وأناة . وحضر الشيخ المفتش . ولما جاءت نوبتى فى الوقوف ليسألنى ، طلب إلىّ أن أكتب قصة لا تزيد عن عشرة سطور ، وأن أقرأها عالى الصوت ، فكتبت القصة الآتية ، بعنوان « جمعية السكوت » ، وهى ملخصة مما كنت طالعته فى أحد الكتب الأدبية التى صدرت فى بيروت ، مما طبعه الآباء اليسوعيون :

« تألفت جمعية للسكوت فى عهدى هارون الرشيد وابنه الخليفة المأمون من مائة عالم من علماء اللغة العربية ، غرضها مناهضة التطويل الممل ، والعبارات المزخرفة التى لا تنطوى على معان ذات بال ، اكتفاء بما قل ودل . وحدث أن توفى أحد أعضاء الجمعية ، فاستعيض عنه بآخر . وبينما الأعضاء فى مجلسهم إذ دخل كبير من العلماء يبغى أن يحل محل العضو المتوفى ، فحاروا فى أمرهم كيف يخبرونه بأن المحل الشاغر قد شغل ؛ وعمد الرئيس إلى كوب ملآن بالماء لا يتسع لقطرة زائدة ، ووضعه أمام الضيف ، فأدرك المراد بذلك ، ولكنه وضع على الكوب ورقة كانت بيده ، فجعلت تطفو على الماء ، فصفق له الأعضاء ، وأجمعوا أن يزيدوا عدد الأعضاء واحدا ، ليتسع المجال لذلك العضو الجديد . وناولوه قانون الجمعية وكان عنوانه « جمعية الـ ١٠٠ » ، ورغبوا إليه أن يغير العنوان ، ويضع رقم ١ مكان الصفر الأيمن ، فوضع الضيف صفراً وراء الواحد ، وأعاد القانون إلى الرئيس ، فغير الرئيس الصفر وجعله واحدا ، يعنى بذلك أن الضيف واحد يقدر بألف ! » .

ولما فرغت من كتابة القصة ، مددت بها يدى إلى معلمى الشيخ « المهدى »

فقال لى : اقرأها ، ففعلت ، وحرصت على ألاّ ألحن . فدعانى المفتش الشيخ حمزة فتح الله أن أقف عند السبورة ، وسألنى عن اسمى ، فقلت : « نجيب » فقال : اكتب :

يا نجيبـــاً قد فزت رأيـــاً وقولا   فاز من يهتدى إلى ما اهتديتا

فتبسم الشيخ المهدى ، ومال على أذن الشيخ « حمزة » يُسرُّ إليه قوله : إنى مسيحى ، فرد عليه قائلا : « إنى لم أقل " يا نجيبُ " بل قلت : " يانجيبا " ، وهذه نكرة غير مقصودة » ! فضحكنا جميعاً . وأقبل علىّ الشيخ حمزة مصافحاً ، وأثنى علىّ ثناء جميلا .

ومن طريف ماحدث بعد ذلك بثلاثين سنة ، أن الشيخ « حمزة فتح الله » ، قصد عيادتى لعلاج سيدة مريضة ، وبعد أن منّ الله عليها بالشفاء ، زارنى وحده لأخبره بما أطلب من أجر ؛ فقلت له : « إن سيدى الأستاذ أدى الحساب منذ ثلاثين سنة ! » فقال : « وكيف كان ذلك » ؟ فقصصت عليه قصتى معه إبان التلمذة ، فضمنى إلى صدره فى حنوّ بالغ وتقدير عميق ، وقال : « هذا يوم من أسعد أيام حياتى » !

أما زيارة « المستر دنلوب » فأذكر منها أننا اجتمعنا فى القاعة الكبرى فى المدرسة ، لنستمع إلى محاضرة له فى الأدب الإنجليزى . وبعد المحاضرة شرع يوجه إلينا أسئلة فى موضوعات عامة ، فكنت — لحرصى على قراءة الصحف اليومية — وكان والدى مشتركا فى عدد كبير منها — أجيب عن أسئلته إجابات صحيحة ، ثم سأل : « ما اسم ملكة الإنجليز ؟ » فلم يعرف الجواب أحد من الطلاب ، ورفعت إصبعى ، وقلت : « فكتوريا » . فقال : « ما تكملة الاسم ؟ » فقلت « إنى لا أعرف أباها . . . ولعل تمام الاسم : « فكتوريا نيانزا » ،

فتبسم ، وقال : « إن هذا الاسم للمنبع الذى يخرج منه النيل . كان عليك أن تقول : الملكة فكتوريا ، فلا تلفظ الاسم مجرداً من اللقب » !

وفى فترة الدراسة ، صادقت بعض الزملاء ؛ ولكن تفرق شملنا بعد نيل الشهادة الابتدائية ، ولم ألتق بأحد منهم بعد ، ما عدا طالباً اسمه « زكى » من أكسل من عرفت من خلق الله . زارنى فى عيادتى بعد تخرجى فى مدرسة الطب بخمس عشرة سنة ، ومعه زوجته تشكو مرضاً نسويًّا ، فعالجتها حتى شفيت ، فسألنى ما أطلب من الأجر ، فأبيت أن أطلب منه شيئاً ؛ ولكنه أصر على أن يأجرنى ، وقال : « اسمع يا "نجيب" . أتذكر أيام المدرسة ؟ كنا أنا وأنت فى الفرقة نستولى على " البوغاز" من طرفيه ، أنت من فوق ، وأنا من تحت ، وأنت اليوم طبيب معروف ، وأنا عمدة بلد ، فكم فدانا حزت بعد اشتغالك بالطب خمس عشرة سنة ؟ » فقلت : « حزت ثلاثة وستين فداناً واثنى عشر قيراطا وستة أسهم من الأرض المستصلحة ، وقد حسنت حالها والحمد لله » . فقال : « أما أنا يا حبيبى فأملك مائتين وخمسين فدانا من أجود الأرض ، فأى الصنعتين أجدى ؟ صنعتك أم صنعتى ؟ » فضحكنا معاً من أعماق قلبينا ، وقلت له : « الحمد لله على كل حال يا زكى ، والأمور سائرة ، ولكن دع نقودك لك ، ولست بآخذ منها شيئا » . فلم يملك إلا أن يذعن لى ، وانصرف عنى ، وهو يهز رأسه هزة الشكر .

من حال إلى حال

عصف الموت بأبى ، فكان فقده أعظم خطب بليت به الأسرة ، وكان فاتحة سلسلة من المتاعب والمصاعب ، ولا سيما فى الناحية المالية .

كان أبى متين البنيان ، موفور العافية ، لم أعهده مريضا ، ولم أعرف أنه استشار طبيباً . وليلة أقبل على الدار ، والساعة الثامنة ، واقتصر فى عشائه على قدح من شراب الليمون ، وقليل من رقائق الخبز ، وطلب منى أن أدعو له زوجة أبيه ، ففعلت . وبعد العشاء صعد إلى مخدعه ، وقال : « اقرأ لى إصحاحاً من سفر الجامعة » ، واتفق أن قرأت له تلك الليلة قول « سليمان الحكيم » : « باطل الأباطيل، الكل باطل، وقبض الريح . ما منفعة الإنسان من تعبه تحت الشمس ، دور يمضى ودور يجىء ، والأرض باقية إلى الأبد » . ولما أتممت القراءة ، مضيت لأنام فى حجرتى الملاصقة لحجرة نومه .

وفى الصباح ، واليوم يوم الجمعة ، وهو عطلة مدارس الحكومة ، بقيت فى الحجرة أنشد قصيدة « بشر » التى يقول فيها :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت	وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذاً لرأيت ليثاً أمّ ليثاً	هزبراً أغلبا لاقى هزبرا
تبهنس إذ تقاعس عنه مهرى	محاذرة فقلت : عقرت مهرا
أنل قدمىّ ظهر الأرض إنى	رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

إذ كان استظهارها واجباً مدرسيًّا . ولبثت أعلى صوتى بالإنشاد ، لعلى أبى يستيقظ على صوت القراءة ، فلا أضطر إلى دخول حجرته لإيقاظه . ولكن

الساعة أربت على التاسعة، ولم يستيقظ، فذهبت إليه، ورفعت الكلّة (الناموسية) عن سريره، فألفيته يغط غطيطا شديدا على غير ما ألفت منه. فجعلت أناديه وَأُرَبِّتُه لإيقاظه، دون جدوى، فأسرعتُ إلى أمى أخبرها، فصعدت إليه، فإذا هو قد لفظ النفس الأخير، وفارق الحياة. وما تزال ذكرى ذلك اليوم النكد شديدة الوقع على نفسى. وعزيز علىّ أن أطيل فى وصف ما جرى، وحسبي أن أذكر أن المحازن استمرت سنة كاملة، فكانت سيدات الأسرة ومن إليهن من المعارف يجلسن فى ردهة الدار على حشايا (مراتب) يجللها السواد. وفى أول الأمر كانت النوادب يعلين أصواتهن بالنياحة طول النهار، إلا ساعة الغداء. وكان من أشد ما يؤلم سمعى أصواتهن التى كانت تترامى إلىّ، وأنا فى الشارع عائد من المدرسة، وبينى وبين الدار بُعْد ليس بالقليل.

ومما اقترن بوفاة أبى حادث كان فى نظرى غريباً إلى حد بعيد، ولم أستطع أن أجد له من تفسير، وذلك أنى أردت أن أبلغ النعى إلى شقيقتى «عزيزة» وهى وقتئذ مع زوجها المفتش بإحدى دوائر البحيرة، مقيمة بمنزل فى قرية تبعد عن دمنهور مسيرة ساعة على ظهر الدابة. ولم يكن بتلك القرية ولا بالقرى التى حولها مكتب للبرقيات، فاضطررت أن أبعث إليها برسالة يحملها أحد الخدم. وركب الخادم القطار إلى دمنهور فوصل إليها مساء، ثم امتطى دابة إلى القرية، فوجد أن شقيقتى قد غادرت منزلها صباحاً، قاصدة المنصورة، وأنها أبرقت إلى الأسرة تنبئ بقدومها. وكانت برقيتها قد وردت، فذهبت إلى المحطة أنتظرها، فلما نزلت هى من القطار لاحظت أنها ترتدى السواد، فسألتها فى شأن الخادم الذى سافر إليها فى الصباح، فأجابت بأنها لا تعلم من أمره شيئا، فقلت لها: «لماذا أنت فى ثياب سود؟» فأجابت: «رأيتك فى المنام فى غفوة الصباح وأنت ترفع الكلّة عن سرير أبى، فتجده قد فارق الحياة. كما أنى شهدت الثريا المعلقة بسقف الردهة الكبيرة مجللة بالسواد، والأرائك منقولة من

مكانها ، وموضوعاً بدلها حشايا (مراتب) مغطاة بنسيج أسود، فقمت من نومى وأنا موقنة أن أبى قد مات ، وما أسرع أن أزمعت القدوم إلى المنصورة فى أول قطار أستطيع أن ألحق به » . ولقدأدهشنى أن الوصف الدقيق الذى وصفت به أختى حلمها لا يختلف عن الواقع فى شىء .

وبعد وفاة أبى ، أصيبت أمى بمرض السكر ، وعانت منه ما عانت ، حتى استأثرت بها رحمة الله ، وقد انقضت ثلاث سنوات أمضتها وأمضيناها معها فى غمرة الأحزان .

والثروة التى خلفها لنا أبى كانت جديرة أن تكفل لنا عيشاً رغيدا ، ولكن الذين عهدنا إليهم فى إدارة شؤوننا استولوا على التركة، ونعموا بها ، فلم نكن نظفر منها أنا وشقيقى الذى يكبرنى بخمس سنوات بما يتيح لنا العيشة الراضية . وكان شقيقى طالبا بالمدرسة الخديوية بالقاهرة ، فاضطر أن يقطع دراسته ، وأن يقبل العمل « بوزارة الأشغال » بمرتب قدره ستة جنيهات .

واستبان لنا بعد وفاة أمى ، طيب الله ثراها ، أن التركة مثقلة بالديون ، فاستدعى ذلك أن نبيع ما نملك من عقارات ، وأن نبيع كذلك بعض الفدادين . ولم يخلص لنا بعد توفية الديون إلا مقدار من المال ؛ استبقيت ما خصنى منه لإتمام دراستى . وكان النزر اليسير الذى ينتهى إلينا من غلة الأرض ، ومرتب شقيقى الذى تزوج ابنة خاله ، هما كل موردنا للمعيشة .

واستقر بى المقام فى القاهرة ، واستأجرت مع شقيقى منزلا فى شارع « شرم الفجالة » . وعشنا فى ضنك شديد ، كان من جرائه أن أصابنى التهاب رئوى أوشك أن يقضى على حياتى .

ولكن ضيق الحال لم يحل بينى وبين الالتحاق بالمدرسة التوفيقية الثانوية ،

وطلبتها يومئذ من الأسر ذوات اليسار ، سواء . وسنو الدراسة فيها خمس .
فبنيت عزمى على أن أجتازها فى ثلاث سنين ، خشية أن ينقطع بى الطريق .
وأقبلت على الدراسة بهمة فائقة ، فلما ظهرت نتيجة اختبار الثلاثة الأشهر الأولى
كنت أول طلاب الفصل ، ودرجاتى تزيد عن الثانى بخمس وأربعين درجة .
وكان من عادة ناظر المدرسة المسيو « بلتيه » Peltier أن يحضر الفصول وقت تسليم
شهادات الاختبار ، ويتلو أسماء الطلاب ، ويسدى إليهم النصح . فاختصنى
بمديح بالغ ، وقال لى : إنى تفوقت تفوقاً نادراً ، ويجب علىّ أن أحتفظ به .
فزاد ذلك من إصرارى على أن أستذكر دروس السنة الثانية بمنزلى ، وأن أستعدّ
لأداء امتحان الانتقال إلى السنة الثالثة عند افتتاح المدارس فى أكتوبر القادم .
وكان ذلك مخالفاً للقانون المدرسى ، فذهبت للقاء مسيو « بلتيه » ورغبت إليه أن
يعيننى على تحقيق مأربى . فسرّه وأنا طالب بالقسم الإنجليزى أن أكلمه بالفرنسية ،
وأن يفهم منى ما أريد ؛ فأذن لى فيما رغبت فيه ، وأديت الامتحان بنجاح .
وبذلك تم لى أن أنتقل من السنة الأولى إلى السنة الثالثة فى عام دراسى واحد .

وثـمـَّة حادثان صغيران كان لهما فى نفسى أثر بعيد أثناء تلمذتى فى هذه
المدرسة : الأول أن مدرس اللغة العربية الشيخ « حامد موسى » رحمة الله
عليه ، كان يشجعنى بعبارات يوقع بها فى موضوعات الإنشاء التى أكتبها . وأذكر
من هذه العبارات : « أجدت يا واحد الأدباء » و « هكذا كان ظنى بك »
و « لكل اسم من مسماه نصيب يا نجيب » . وكان لتشجيعه لى أكبر الأثر فى
إقبالى على مطالعة كتب الأدب العربى .

وفى مناسبات مختلفة ، بعد تخرجى فى مدرسة الطب بسنين عدة ، نظمت
شعراً عامياً من النوع المسمى « الزجل » قصدت به تسلية أفراد عائلتى إبان
الحرب العالمية الأولى ، وكانت طيارة بلغارية وأخرى تركية قد ألقت قذائف على

القاهرة مات بسببها بعض المواطنين ، ولكن لم يعبأ بها الناس كثيراً . ثم ظهرت في سماء القاهرة المناطيد الألمانية التي صنعها Graf Zepplin جراف زپلين ، وكنا قرأنا فى الصحف ما قامت به من التخريب فى (لندرة) . وهذا الزجل على منوال أغنية شعبية كان يرددها كشكش بك « نجيب الريحانى » فى مسرحه بشارع عماد الدين ، فى رواية « حمار وحلاوة » وأذكر الآن من زجلى الذى كتبته ما يلى :

أخيّه أروح فين يا اخواتى		مـن	الزبلينـات
كنا رضينا بالطيـارات		الداهيـة	البـلونات
تهدم البيت فى دقيقـة		وتمـوّت	بالألافـات
لا الدور الأرضى نافع		لا ولا	البـدرونـات
آدى الخـوازيق الأصلى		ما فيهاش كانى ولا مانى	
دول لا ترك ولا بلغـار		دولا خـوازيق ألمانى	
حلمنتش	حلمنتيشى	احتيـاطاتنـا	تبكيشى
على ما تـدقّ الصفـارة		نكون رحنا على ما فيشى	

والحادث الآخر الذى أذكره ، هو أنى عندما كنت طالباً بالمدرسة التوفيقية كتبت باللغة الإنجليزية موضوعاً إنشائيا عنوانه « العمل بلا تسلية يجعل من چاك Jack تلميذاً بليداً » . فلما قرأه مدرس اللغة الإنجليزية المستر «فوستر سميث» Mr. Foster Smith دعانى إليه وسألنى : «من كتب لك هذا ؟ أو من أى كتاب نقلته » ؟ فأجبته بأن الموضوع من إنشائى ، فقال لى : « إنى أسامحك إذا قلت الحق » فعرضت عليه أن أكتب فصلا آخر فى هذا الموضوع ، وأنا أمامه على المكتب . وما لبثت أن فعلت . فشد المستر « فوستر سمث » على يدى ، وقال : « هذا حسن جداً » .

ومن عجيب الاتفاق أن الأقدار كأنما كانت تعمل معى على أن تختصر لى سنى دراستى الثانوية ، فقد أجازت الوزارة لمن يأنس فى نفسه الكفاية من طلبة السنة الرابعة أن يتقدم لامتحان «البكالوريا» مع طلبة السنة الخامسة ، إذ كانت معتزمة أن تنقص الدراسة الثانوية إلى ثلاث سنين . فتقدمت للامتحان مع من تقدموا . ولم ينجح فى الامتحان التحريرى إلا اثنان من طلبة السنة الرابعة كنت أنا أحدهما ، على أن الآخر رسب فى الامتحان الشفوى .

أما ترتيبى فى « البكالوريا » بين الناجحين المتقدمين من المدارس جميعاً ، فكان التاسع عشر ، كما أعلن رسمياً . وأعجب ما فى الأمر أن هناك حقيقة خفية وراء هذا الترتيب ظلت على خفائها حقبة مديدة ، حتى تولى رياسة الوزارة المرحوم «على ماهر (باشا)» . وفى إبان وزارته أقام معرضاً لأسماء الطلبة الذين نالوا الشهادة الثانوية بامتياز ، وكان هو منهم ، وكذلك كنت أنا . وقد ظهر عند مراجعة درجاتى أن الذى صحح ورقة الرياضة وضع الدرجة التى أستحقها ٢٣ ، وذلك عن خطأ فى الجمع ، وأما الدرجة التى استحققتها بالجمع الصحيح ، فهى ٣٠ ، فلولا هذا الخطأ الذى لم يستدرك فى وقته ، لكان ترتيبى الأول ، لا التاسع عشر !

فى مدرسة الطب

التحقت بمدرسة الطب سنة ١٨٩٨ ، وهى السنة التى حدث فيها انقلاب كبير فى تاريخ المدرسة وفى مستشفاها المعروف بمستشفى « قصر العينى » ، وهو تحوّل التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية . وكانت المدرسة قد خلت من الأساتذة المصريين الأكفاء الذين كانوا عماد التدريس فى عهدها السابق ، إما بالوفاة أو ببلوغ سن التقاعد . واحتل مساعدوهم كراسى الأستاذية . والمؤسف أن عدداً كبيراً منهم لم يستطيعوا متابعة ما جدّ من المكتشفات ، لعدم تمكنهم من لغة أجنبية . وقد استتبع هذا الانقلاب الاستعاضة بأساتذة من الإنجليز والألمان عن الأساتذة المصريين ، ما عدا « محمد شكرى (باشا) » أستاذ الولادة ؛ إذ استبقى ثلاث سنوات ، لإلقاء المحاضرات ، دون أن يكون له فى المستشفى عمل . وكذلك استبقى الأساتذة المصريون المساعدون ، حتى يبلغوا سن الإحالة إلى المعاش . ومما يبعث على الدهشة أن منهم من وُضِعوا فى أقسام لا تدخل فى اختصاصهم ، فإن الدكتور «على (بك) حيدر» ، وهو رمدى ، صار مساعداً للمستر «مادن» Madden فى قسم أمراض الجلد الذى ألحق بقسم الجراحة ، ولم يسبق له الاشتغال بالأمراض الجلدية . ولما تعذر استكمال الأساتذة الأجانب فى مختلف الأقسام ، ظل بعضها شاغراً ، كالتشريح والكيمياء . فقام الدكتور « كيتنج Keating ناظر مدرسة الطب بتعليم التشريح ، وكان قبل أن يتولى النظارة مختصا بأمراض الأنف والأذن . وكذلك قام الدكتور « على مراد » بتدريس الكيمياء ، وكان قبلاً محضّراً بالقسم.

ولست أغالى حين أقول بأن طلبة السنة الأولى ظلوا عامهم بلا عمل ، أو

يكادون لا يعملون ، فأنفقت معظم وقتي فى مطالعة روايات « دكنز » Dickens و « ديماس » Dumas و « فكتور هوجو » Victor Hugo فلم ينته العام حتى كنت قد أتيت على أكثرها .

وكان الأستاذ « ولسن » يحاضرنا فى « الفسيولوجيا » علم وظائف الأعضاء وملّ الطلبة محاضراته ، حتى إنهم كانوا ينعسون أثناء إلقائه . وفى قسم التشريح كان الدكتور « محمد ناشد » يساعد الدكتور « كيتنج » ، فيلقى علينا دروسه فى العظام بلغة إنجليزية بالغة الركاكة ، بيد أنه كان ظريف المحاضرة ، يقص علينا من طرائف الحكايات ما فيه سلوة وإيناس . وفى أخريات العام الدراسى قدم علينا الدكتور « شميت » Schmidt أستاذ الكيمياء فأكببنا على دروسه . وكنا نلبث فى معمل الكيمياء ست ساعات متوالية ، ونحن وقوف ، حتى استطعنا إتمام المنهج المقرر .

أما فى السنة الثانية ، فتحسنت الحال عن ذى قبل ، إذ استوفت الأقسام معظم أساتذتها . على أن الأستاذ « إليوت سميث » Elliot Smith أستاذ التشريح لم يحضر إلا فى السنة التالية ؛ وكان الأساتذة الجدد مثل « شميت » Schmidt و « لوس » Loos و « بيتر » Bitter ، وبخاصة « سيمرس » Symmers أستاذ « الباثولوجيا » (علم التشريح المرضى) يبذلون معنا جهد الجبابرة فى التدريس ، فاستفدنا من المواد التى درّسوها لنا أيما فائدة .

وفيما يتصل بالتشريح ، عولت على نفسى ، وعلى كتاب « كاننجهام » Cunningham و « جراى » Gray's anatomy . ومارست تشريح الجسم بتمامه . وكان الفرّاش « مصطفى النخاس » يقدم لنا المساعدة الكافية ، إذ كان ماهراً فى تحنيط الجثث وتشريحها .

وقبل موعد الامتحان بشهر ، منحنا إجازة للاستذكار والتأهب ، فأقبلت على كتب الدراسة أراجعها فى همة ونشاط . وبعد أسبوع بدا لى أن أزور

أصدقائى : كامل حنا ، و سامى صابونجى ، و إبراهيم صليب ، بمنزلهم فى شبرا ، فوجدتهم مرحين يلعبون بالنرد « الطاولة » ، فأخذنى العجب ، وسألتهم عن علة انصرافهم عن استذكار الدروس ، فأجابوا بأنهم أزمعوا ألا يدخلوا الامتحان ، وسيعيدون السنة ، فهم لم يتموا تشريح الجسم . فما زلت بهم حتى أقنعتهم بالعدول عن هذا العزم ؛ وعرضت عليهم أن نذهب معاً إلى المدرسة ، وأن أتولى معهم تشريح جثة كاملة فى الأسابيع الثلاثة الباقية ، فوافقوا ، وأعطوا مصطفى النحاس جنيها ليفتح المشرحة ويبيح لنا الدخول فيها . وفى الأيام الأخيرة كنا نواصل العمل بالمشرحة ليلا على ضوء فوانيس نحضرها معنا . وفى إحدى الليالى طال مكوثنا إلى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فلما خرجنا بالفوانيس ، فزع البوابون الثلاثة ، وصاحوا : « أدركونا يا ناس ، عفاريت المشرحة طلعت علينا » . واستيقظ على صراخهم مرضى المستشفى بجوار المشرحة . وفى غد نهتنا إدارة المستشفى أن نعود إلى دخول المشرحة خلال الإجازة ، وكنا قد أتممنا التشريح أو قاربنا ، فلم نعد ، واجتزنا الامتحان ، وظهرت نتيجته ، فإذا نحن جميعاً من أوائل الناجحين فيه .

وفى آخر تلك السنة ظهر فائض فى ميزانية المدرسة ، فمنحنا مرتباً شهريا قدره جنيهان ، وأنشئ لنا مقصف صغير يعد وجبة غداء بثلاثة قروش. فأعاننا ذلك المرتب على الاشتراك فى الغداء بنحو جنيه فى الشهر . وكنا قبل ذلك نجتزئ فى غدائنا بخبز وجبن وبرتقالة إن تيسرت ، أما الجنيه الآخر فقد أعاننا فى نفقة الانتقال من المنزل إلى المدرسة ، وبذلك تيسرت لنا الأحوال .

ومما التزمته مدة دراستى ، فى «المدرسة التوفيقية» وفى «مدرسة الطب» على سواء ، أن أعنى بنظافة الملبس ، وأحرص على حسن الهندام بالرغم من ضيق ذات اليد . ولم يكن ذلك يكلفنى كثيراً ، فالطربوش يكوى كل شهر أو نحوه

بنصف قرش ، والحُلَّة (البذلة) تكوى بقرش ونصف قرش مرة كل شهر. أما الحذاء ففي كل صباح أتولى طلاءه وتلميعه . وكان شعر رأسي فى تلك الأيام غزيرا وكنت أمشطه وأصففه حتى يبدو أنيقا . وكنت أفعل ذلك لكى أستطيع أن أحترم نفسى ، ولكى لا أتعرض لنقد غامز عيّاب .

فى مستشفى قصر العينى

كان دخولى مستشفى « قصر العينى » وأنا طالب بالسنة الثالثة ، فى مدرسة الطب ، بدء حياة شاقة ، ولكنها محببة فى الوقت نفسه . فالمستشفى به أربعمائة سرير ، وليس فيه إلا طبيبان مقيمان من الإنجليز ، هما « هيوارد » Hayward و « كاربينتر » Carpenter ، ومعهما اثنان من أطباء الامتياز ، وكانوا يتولون الجراحات العاجلة . أما معظم العمل فيقوم به طلبة السنة الرابعة ، وعدتهم ثمانية ، وطلبة السنة الثالثة ، وهم عشرة أو اثنا عشر . ومن ثم كان التمرين الطبي العملى على أتمه . ومما زاده كفاية أنه كان قد تم تعيين جملة أساتذة من مهرة الأطباء الإنجليز ، فكانوا هم ومساعدوهم من المصريين لا يخالفون المواعيد المقررة فى حضور أو انصراف ، ويقدمون حساب عملهم للدكتور « كيتنج » ناظر المدرسة .

وكان من بين هؤلاء الإنجليز طبيب اسمه « تولر » Toller من أساطين الطب ، قدم « مصر » لموافقة جوها المعتدل لحالته الصحية ، فهو مصاب بمرض فى الكليتين . وكانت له شهرة فائقة بين السياح الذين ينزلون « فندق شبرد » ، فيذهب لعلاج مرضاهم صباحاً فى أغلب الأيام . ومرة أبطأ عن الحضور إلى المستشفى فى موعده الصباحى . وكانت العادة أن ننتظره عند الباب الخارجى . فاتفق حضور الناظر الدكتور « كيتنج » ، فلبث واقفا معنا حتى جاء « تولر » ، فانهال عليه يؤنبه بصوت جهورى ، وألقى عليه درساً فى الحرص على المواعيد ؛ لم ينسه من بعد ، لا هو ولا غيره من زملائه .

وكان « كيتنج » يراجع بنفسه أوراق من يتوفون من المرضى ، ويقابل بينها وبين تقرير التشريح المرضى ، فإن لاحظ اختلافا خطيرا أو إهمالا جسيما استدعى

الطبيب أو الجراح ، وعنفه أشد تعنيف . ويوماً كان الدكتور « ترايب » Tribe يمر مع الطلبة على المرضى ، فأرسل الدكتور « كيتنج » Keating فى طلبه ، فمضى إليه ، وعاد « ترايب » إلى الطلبة بعد حين وأخبرهم بأن الدكتور « كيتنج » مكث نصف ساعة يلعن له أبويه ، لخطئه فى التشخيص ، فهناك مريض توفى بخراج فى الكبد ، وكان يعالج فى المستشفى على أنه مريض بحمى « التيفوئيد » . وأذكر هنا الجملة التى قالها باللغة الإنجليزية ، وابتدع فيها فعلا عربياً من « ابن كلب » بلفظ إنجليزى ، وهذه الجملة هى :

Keating has been ibnkalbing me for the last half hour.

ومن أظرف الأساتذة الذين كنا نتلقى عنهم مستر « مادن » ، وهو بارع فى الجراحة ، كما هو ممتاز فى تدريسه النظري و « الإكلينيكى » ، وقد خصص يوم الأربعاء للمرور بالمرضى ، فلم يكن يتخلف طالب عن صحبته دقيقة واحدة ، لما يفيدنا به من معلومات وافرة . ولما لم يكن بين الأساتذة الإنجليز مدرس للأمراض الجلدية فقد كلفوه تدريسها ، وألحقوا به طبيباً من المواطنين القدامى ، طيب القلب ، سليم النية ، فاتخذه مساعداً له ، وكان يحبه ويجله ، ولكن تحلو له مداعبته . وذات يوم مر مستر « مادن » بمرضى الجلد ، فوجد أحدهم فى حاجة إلى جراحة ، ورأى أن يستشار قبل إجرائها طبيب باطنى ، للتحقق من حالة القلب ، فطلب من مساعده أن يحيل المريض على الدكتور « ساندويث » Sandwith أستاذ الأمراض الباطنية ، فكتب المساعد على تذكرة المريض : « يحال إلى الدكتور ساندويتش » فابتسم المستر « مادن » ، وقال لمساعده : « إن الاسم هو ساندويث » Sandwith ، بالثاء وعبثا حاول المساعد نطق الاسم صحيحا ، بل كان ينطقه كل مرة « ساندويتش » ، وفى آخر محاولة له ، لم ينطق الاسم بل اكتفى بقوله : « يث ثير » Yeth-Their

بدل « يس سير » Yes Sir . ومن مباسطات مستر « مادن » مع مساعده ، أن المساعد كان يخاطبه بلقب « دكتور » فقال له : « إن الإنجليز يخصون طبيب الأمراض الباطنية بلقب "الدكتور" ، أما الجراحون مثلى فلقبهم « مستر » . فأرجو أن تدعونى « مستر مادن » . فقال له : « سأفعل ذلك دائما يا دكتور مادن » ! ومرة كان المستر « مادن » يصور أحد مرضى الجلد بآلة التصوير الموضوعة على حامل ذى ثلاث قوائم ، ويدعونا إلى النظر ، بعد أن يغطى رءوسنا بملاءة لتمنع الضوء ؛ وأفهمنا بأننا سنرى المريض مقلوبا ، رأسه إلى أسفل ، ورجلاه إلى فوق . وبعد ذلك طلب إلى الأستاذ المساعد أن ينظر ، وغطى رأسه بالملاءة ، ولكنه أسدل الحاجز على عين الآلة المصورة ، وقال : « ماذا ترى ؟ » فأجابه الأستاذ المساعد وهو لم يكن يرى شيئا : « هذا جميل جدًّا ، أرى المريض ورأسه إلى أسفل ورجلاه إلى فوق ! » . فضحك المستر « مادن » وضحكنا معه . ولم يفطن الطبيب المساعد للسبب الذى أضحكنا . وبعد هذا الحادث كان كلما وقف مستر « مادن » لفحص مريض وشرح حالته يسألنا : «هل لاحظتم حقًّا ما أقول ، أو أنكم تكتفون بأن المريض رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى فوق ؟! » .

وقد أمضينا فى قسم الجراحة سنة واحدة مارسنا فى خلالها مختلف الجراحات ، وتأهبنا لدخول الامتحان . وقبل ميعاد الامتحان بأسبوعين ، أعلمنى خمسة من رفاق الطلاب ، أذكر من بينهم أحمد حلمى (باشا) و حافظ (بك) زكى و محمد (بك) صالح بأنهم سيؤجلون دخول الامتحان ستة أشهر ، إذ فاتهم معظم محاضرات الجراحة لاشتغالهم بالمستشفى ، فنهيتهم عن هذا الرأى . وعرضت عليهم أن ألخص لهم دروس الجراحة كاملة ، فإن راقهم دخول الامتحان بعد ذلك فعلوا . وكنت أذهب معهم إلى إحدى الحجر المعدة لنوم الطلاب ، فنضع سريراً وسط الحجرة وحوله خمسة كراسى ، وأضطجع أنا على وسادة السرير ،

وأضع على عيني رباطاً حتى لا يشغلني النظر . فإذا جلس الرفاق حولي ، شرعت ألقي دروس الجراحة ، ساعتين في الصبح ؛ ومثلهما بعد الظهر ، ودام ذلك أسبوعين ، ودخلنا الامتحان ، فنجحنا جميعا .

وفي السنة الرابعة انتقلنا إلى الأمراض الباطنية ، فجاء اسمي في قسم الدكتور « ساندويث » ، وهو طبيب كفء ، ولكنه لاذع اللسان ، لا يعفي أحداً من غليظ القول ؛ ومما سمعناه يعيرنا به أن المصري لا يتعمق في بحث المرضى ، وأن أوراق المشاهدات التي يكتبها تافهة . ومن حسن حظي أني كنت قبل أن ألتحق بذلك القسم قد تعلمت كل ما يلزم من فحص المرضى بالتسمع والقرع ، بفضل الدكتور «جرجس نجيب»،وكان طالباً بالسنة الرابعة ، وكان كفئاً ممتازاً .

أما حصتي من أسرّة المرضى فكانت عشراً . وكان في أحدها مريض يشكو ألماً شديداً في صدره . وقد قام بفحصه الدكتور « هيوارد » Hayward على أنه لم يكتب في ورقة المشاهدة تشخيص المرض ، بل اكتفى بكتابة « ألم بلوراوي في الجنب الأيسر » pleurodynia . ففحصت المريض فحصاً دقيقاً ؛ فلاحظت أن النبض في اليد اليسرى ضعيف كل الضعف ، يكاد لا يحس، وهو في اليد اليمنى قوي . وكذلك حدقة العين اليسرى بالغة الضيق ، بخلاف حدقة العين اليمنى ، فذهبت إلى مكتبة المدرسة ، لعلي أظفر في أحد الكتب بما يساعدني على معرفة التشخيص ، ولحسن الحظ وقع في يدي كتاب إنجليزي اسمه « أهمية الأعراض في تشخيص المرض » The value of symptoms in making a dignosis فبحثت في فصوله عن أسباب اختلاف حجم الحدقة في عيني المريض واختلاف قوة النبض في الساعدين ، فوجدت أنهما إذا اجتمعا فالأغلب أن يكون المريض مصابا بأنيورزم في الأورطي المستعرض ، وهو مرض نادر الحدوث جداً ؛ فطلبت كتاباً في الجراحة ، ودرست هذا الموضوع درساً وافياً ، وتعلمت طرق

فحص المريض . ثم ذهبت إلى المستشفى وكتبت المشاهدة على غرار ما أوصى به مؤلف الكتاب . وفى الصباح غدوت أنا والطلبة مع الأستاذ « ساندويث » إلى قاعة المرضى . وكان ذلك أول يوم للمرور معه ، فوقفنا عند سرير ذلك المريض الذى فحصته ، وأخذت أقرأ ما كتبت فى ورقة المشاهدة الخاصة به . ولكن الدكتور « ساندويث » لم يكن مصغياً لى ، بل كان يحدجنى بازدراء ، مستنكراً أن يرى شعرى مصففاً ، وطربوشى مكويا ، وحذائى لامعاً ، وإذا هو يقول : « كم ساعة تنفق فى أناقتك ؟ » فأجبت : « لا أكثر من خمس دقائق » فقال : « حسناً ، تابع قراءة المشاهدة » ، فقرأت له ما كتبت ؛ فلم يبد أية ملاحظة ، بل سألنى : « وماذا هو مكتوب فى التذكرة فى تشخيص المرض ؟ » فقلت له : « ألم بلوراوى pleurodynia » فقال : « انتقل إلى مريض آخر » فقلت : « هل نبقى على التشخيص المكتوب فى التذكرة ؟ » فأقبل بالسماعة على المريض يتسمع إلى قلبه وصدره ؛ وسألته : « هل أغير التشخيص ؟ » فقال : «لا» ونظر إلىّ باستخفاف وقال : « وما تشخيصك أنت ؟ » ، فأوضحت له ما أرى ، وعززته بما كنت قرأته ، فلم يزد على أن قال : « ألاحظ أن خطك فى الكتابة ردىء . انتقل إلى مريض آخر ! » . وقد ساءنى أنه لم يقنعنى بخطأ ما رأيت ، وزادنى ضيقاً أن رفاق الطلبة الذين كانوا يصاحبوننى فى المرور جعلوا يأخذون علىّ أنى راجعت الدكتور « ساندويث » وقال بعضهم فى تهكم : « ما كدت تستعمل السماعة أول يوم حتى شطحت وأمسكت بالأنيورزم فى الأورطى المستعرض ! » ، وقال أحدهم : « على مهلك يا سى نجيب » !

وفى ذلك اليوم توفى المريض ، ونقل إلى المشرحة ، فأسرعت إليها ، ووقفت على الدرج أنتظر الأستاذ « سيمرس » Symmers المنوط به إجراء التشريح . فلما حضر صافحنى ، وسألنى : « هل انتظرت طويلا ؟ » فأجبت : « نحو ساعة » ، فقال : « وفيم حضورك ؟ » فقلت : « إن المتوفى الذى تجرى عليه

الصفة التشريحية من الأسرّة المخصصة لى » . ودخلت المشرحة معه ٥
وكنت أتوقع أن نبدأ بعمل الصفة التشريحية ، ولكن الأستاذ لم يأمر بعملها إلا بعد
قدوم الدكتور «ساندويث» ، كما هى العادة التى كانت متبعة وقتئذ . وسألنى
«سيمرس» : « هل سبق لك أن توليت تشريح جثة فى المشرحة المرضية ؟ » فأجبته :
« كانت كل الجثث التى شرحتها فى قاعة التشريح العام ، ولكن حدث أنى
استأذنت مرة فى أن أشرح جثة مريض توفى وجىء به إلى المشرحة المرضية ،
فأذن لى ، وفعلت » . فقال « سيمرس » : « لا بأس إذن بأن تقوم بتشريح
هذه الجثة بنفسك » ففتحت الصدر ، ونزعت القلب والأوعية الخارجة منه
بمنتهى العناية ، فاستوقفنى « سيمرس » قائلا : « أمولع أنت بالجراحة ؟ »
فقلت : « نعم » ، فقال : « أحسنت صنعاً ، أتوقع أن نسمع عنك كثيراً » .
وحين فرغنا من تشريح القلب ، طلب « سيمرس » تذكرة المريض ، فوجد
التشخيص ألما فى الصدر ، فالتفت إلى الدكتور « ساندويث » قائلا : « ما هذا ؟
أأنت الذى فحصت المريض قبل وفاته ؟ » فأجاب : « نعم » ، فقال : « كيف
أقررت التشخيص المكتوب ؟ انظر الأنيورزم فى الأورطى المستعرض ! » فاتجه
الدكتور « ساندويث » بنظره نحوى يقول : « ألم نكن أثناء المرور نذكر أنيورزم
الأورطى المستعرض ؟ » فقلت : « بلى » . فقال : « لماذا لم تكتب هذا التشخيص
فى تذكرة المريض » ؟ فقلت : « لأنه توفى بعد المرور بقليل » . وكظمت فى
صدرى ما كان يجب أن أجيب به . وطفق « سيمرس » يسألنى عن
« باثولوجيا الأنيورزم » فأجبته بما كنت قد درسته ، فأعجب بالجواب ،
وقال : « لابد أن الدكتور " ساندويث " شرح لك هذا أثناء المرور » . فلم
أعقب على قوله بنفى أو إيجاب . والحق أن الدكتور « ساندويث » حمد لى فى
نفسه موقفى منه ، وظل بعد ذلك يولينى تقديره لى ، ويمنحنى ثقته بى .

مـزالق الأخلاق

يلوح لى أن من الخير ألا أغفل الحديث فى الناحية الأخلاقية ، وسلوك الشباب ، أثناء حياتنا التعليمية فى مدرسة الطب وفى مستشفى قصر العينى . وأنا أعلم أن الخوض فى مزالق الأخلاق حديث مستهجن ، وأن الجهر بالسوء من القول لا يحبه الله . ولكنى لا أبغى به شنعة ، ولا تسوىء سمعة ، ولهذا لم أذكر الأسماء ، ولم أدل بما يمكن أن ينم عنها . وإنما أقصد إلى اثنتين : الأولى أن أرسم ملامح صادقة لمجتمعنا فى تلك الحقبة الماضية ، لفائدة البحث الاجتماعى المحض، والأخرى أن يتبين الشباب عاقبة العبث والغواية، وثمرة الجد والاستقامة ، عسى أن يكون فى ذلك لهم عظة صالحة ، وذكرى تنفع .

كان عمل الطلبة فى المستشفى موزعاً بين قسم الرجال وقسم «الحريم» . فمن حقهم فى ساعات العمل المعينة أن يدخلوا قسم الحريم لتسجيل المشاهدات ، فكان ذلك مدرجة للاختلاط بين الطلبة وطالبات مدرسة التمريض اللائى كن يقمن بعمل الممرضات . وكانت الطالبات فى ذلك الحين يغطين وجوههن بخمار أبيض (يشمك) . ومما يؤسف له حقا أنهن لم يكن جميعاً يؤثرن الحشمة والتزام الحياء . وكان بعض الطلبة يبادلون بعضهن المداعبات والمغازلات الجريئة فى غفلة من كبيرة الممرضات « السستر » . وقد سقط فى شباكهن نصف الطلبة ، وكان بينهن اثنتان من ذوات الجمال والإغراء . وانتهى الأمر بأن اختص كل طالب بواحدة من هؤلاء الطالبات ، وكانوا يظنون أن أمرهم يبقى مكتوماً، ولكن سيرتهم افتضحت فى داخل المستشفى وفى خارجه .

وإذا كانت قدماى لم تنزلقا فى هذا السبيل ، فالفضل فى ذلك يرجع كله إلى النصائح التى كانت تتعهدنى بها أمى فى صباى ، إذ كنت أضع نصب عينى نصيحتها التى أسدتها إلىّ فى أخريات أيامها . فكثيرا ما كانت تقول لى : « إياك يا نجيب حين تكبر أن تمشى فى الطريق المعوج ، وحاسب من الهفوة الأولى . واعلم بأن الفارق بين الطريق المستقيم والطريق الأعوج شعرة لا تكاد ترى فى أول الأمر ؛ ومع التمادى فى الطريق الأعوج تجد نفسك قد سقطت السقطة التى لا تقوم منها » .

وبين رفاقى الطلبة من استطاعوا تجنب تلك المزالق ، بل إن منهم من راحوا يستهزئون بمن يعبث وينحرف . وأذكر أن الزميل يوسف عز الدين — وكان ماهراً فى نظم الأزجال — دخل مرة قسم الجراحة ، فألفى فتيات التمريض سافرات الوجوه ، يتحدثن إلى أصدقائهن الطلاب ، فلما رأينه غطت كل منهن وجهها بخمارها ، فكتب الزجل التالى ، ووزعه على الزملاء :

لو شفت سلفى أقول له مرحبــا ألفين
واشيل قوام طرحتى واسأل حبيبى فين ؟
وان شفت غيره أتقل طرحتى باتنين
واخبى وشى وأقول راجل غريب عنــا
والثــانى صاحب حبيب قلبى ونور العين

وحدث أن كانت إحدى هؤلاء الممرضات تحضّر مريضة كان الأستاذ « فيشر Fisher » سيجرى عليها جراحة فى اليوم التالى ، فجرحت حاجب المريضة جرحاً كبيراً أثناء حلاقته ، فلما رأى الأستاذ « فيشر » المريضة وهى ممدودة على منضدة العمليات وشاهد الحاجب مجروحا قال مستهزئا : « أكانت الممرضة التى حضّرت هذه المريضة تحلق الحاجب أم تقوم بعملية تشريح؟ » فرد أحد أولئك الطلاب ،

وهو لا يعلم أن الممرضة التى فعلت ذلك كانت من الصديقات الأربع : « حقا إن هذه الممرضة جاهلة لاتحسن العمل » فردت عليه الحكيمة « نظيمة » وكانت تمقت هذه الممرضة لسوء أخلاقها ، وقالت : « ما علمتهاش الحلاقة ليه يا أسطى ؟ ما هى بردو من العيلة » وهى ترمز بقولها إن الممرضة من العائلة إلى أنها من خليلات الطلاب الأربعة ، وكان ذلك الطالب أحدهم ، وكان ثقيل الظل جدًّا ، فأطلق عليه الزملاء اسم « الأسطى بظوة » إذ كانوا يستثقلونه . وفى هذا نظم « يوسف عز الدين » الزجل الآتى :

مره فيشر شاف عيانهْ   محلوق حاجبها ومجرّح
قال دى حلاقة ندمانهْ   زى اللى واحــد بيشرّح
قالم دى واحده من الستات   حلقت لها وما التفتتشى
قام رد بظوة بكل تبات   وقال غشيمه ماعرفتشى
قالت نظيمه يا شنعه   قلبك عليها جتك نيله
علمها ياأسطى دى الصنعه   ما هىّ بردو من العيله

ومما يحسن ذكره أن « بظوة » هذا كان بدين الجسم ، سقط فى الامتحان آخر السنة ، فعزاه « يوسف عز الدين » بزجل لا أحفظ منه إلا مطلعه وهو :

جمل المحامل وقــع   شمتت الاعادى فيه

وحدث أنه من قبيل الترفيه عنه رأى زملاؤه الثلاثة أن يقيموا له حفلة شاى ، فما كان من يوسف عز الدين إلا أن وزع عليهم، وهم جالسون فى حديقة المستشفى يشربون الشاى ويمرحون، أوراقاً مكتوباً عليها الزجل الآتى :

« حللاقى » مثلك فين اليوم   يا « مزين » الدنيا والناس
ومين نظيرك فى « الجيل ده »   ولك أيادى فوق الراس

وفى الألفاظ هنا «تورية» والمقصود استعمال ألفاظ الحلاقين، فهو يقول: « حللاقى » أى « حنلاقى » ونطقها الأول يجعل معناها « حلاّقى ،» و « مزين » أى حلاق ، و « الجيل ده » أى هذا الجيل ، والمعنى المستتر فيها « الجلدة » وهى من أدوات الحلاقين، و« الأيادى فوق الرأس » تشير إلى عمل الحلاق عند قص الشعر ، وإن كان المعنى الظاهر هو الأفضال وصنائع المعروف .

وكان الوسيط بين الطلبة والفتيات ممرض مُسن اسمه « جعفر » . وحدث ذات مرة أن طالبا يسميه زملاؤه « بصل » كان متصلا بفتاة تركية من الممرضات اسمها « فردوس » تحسن الضرب بالعود . ويظهر أنه حدث سوء تفاهم بين الطالب وصديقته ، واتفق أننا كنا جالسين فى حديقة المستشفى نتولى نوبة الليل « النوبتشية » ، والساعة قد بلغت الحادية عشرة ، وكانت كل «السسترات» قد فارقن المستشفى، إذ سمعنا «فردوس» تغنى على نغمات العود، قاصدة أن يسمعها صاحبها « بصل » وهو جالس معنا ؛ وهذه أنشودتها التى سمعناها :

مانتاش على البال طمن خاطرك وارتـــاح
إش أوصلك لبنـــات العز يا فـــلاح
فلاَح ، يا فلاح ، يا فلاح ، يا بصل

وما هى إلا أن رأينا « جعفرا » مقبلا علينا يتوسط بين «بصل» وصاحبته، فاختلى به ، ويبدو أنه أزال ما بين المتجافيين من خلاف

وقد تكرر رسوب هذا الطالب « بصل » فى الامتحان ، حتى هدده « كيتنج » بالفصل . على أنه نجا من الفصل لخلاف حدث بين اثنين من أعضاء لجنة الامتحان ، هما « ساندويث » و « تولر » فأعطاه الأول عشرين من مائة بقصد إسقاطه نهائيا فى الامتحان . فأراد زميله الآخر أن يفسد عليه غرضه فأعطى الطالب مائة من مائة ، فإذا المتوسط ستون

وهو أدنى درجة للنجاح فى الامتحان . فنجح الطالب ، وكانت هذه آخر فرصة له فى التقدم إلى الامتحان . ولولا نجاحه فى هذه المرة لطرد من المدرسة .

ومن قبيل المداعبات التى يتعرض لها الشباب حادث وقع خارج مدرسة الطب ، أذكره لأنه يتصل بأحد زملائى فى الدراسة . وتفصيل ذلك أننى وأنا طالب بالسنة الثانية بمدرسة الطب ، كنت مقيماً بمنزل خالى بالظاهر لسفر شقيقى وزوجته إلى «المنصورة» . وقد أفرد لى خالى حجرة فى الطبقة الأرضية من المنزل ، فكنت أجتمع فيها ببعض الرفاق للاستذكار . وكانت تجاه المنزل دار أنيقة لا تفصلها عنه إلا بضعة أمتار من أرض فضاء تنتهى بسور منخفض . وهذه الدار لرجل من الأثرياء ، يحب المرح ويلتمس لنفسه ولأسرته أسباب الترفيه . فاستأجر « تختا » موسيقيا قوامه فتاتان مليحتان إحداهما عازفة قانون ، والأخرى مغنية ضاربة بالعود ، فكانتا تحييان الليالى فى الدار بالأنس والطرب ، وبهب على أسماعنا ما ترسلانه من لحن ونغم . وبينما أنا ذات ليلة أستذكر درس التشريح مع زميل من الطلاب ، إذا بحجر يلقى على شباك حجرتنا ، فقمنا نتبين الأمر ، فإذا الفتاتان تطلان علينا وتجاذباننا أطراف الحديث . وطاب تكرار ذلك لصاحبى ليلة بعد ليلة ، فطلبت إليه أن نحسم هذا العبث ، فانصرف عنى ، والتقى بفتاتيه فى الشارع على مقربة من المنزل ، وانقطع حضوره عندى للاستذكار ، ولم أقف عند هذا الحد ، وإنما عمدت إلى الشبابيك المطلة على دار الطرب . فأغلقتها ، وأذكر أنى أحضرت قدوماً ومسامير لأحكم إغلاقها .

ولم أدر وقتئذ أن تصرفى هذا كان ملحوظاً عند أهل تلك الدار ، ولكن عرفت ذلك بعد ثلاثين سنة . فقد كان لصاحب الدار ولد تخرج فى مدرسة الحقوق ، والتحق بالقضاء المختلط ، وارتقى فى مناصبه حتى بلغ منصب مستشار ، وكان بين زملائه فى المحكمة المختلطة السيد « حامى مكرم » زوج كريمتى

« إيزيس» ، فلما علم بعلاقة النسب بينى وبين زميله ، قص عليه قصة الفتاتين ، وكيف أغلقت الشبابيك المطلة عليهما ، وقال : إن أبويه كانا يكبران ما صنعت، وأنا لا أزال طالبا،وكانا يتحدثان بذلك فى شتى المناسبات .

أما الطالب الذى أنس بمغازلة الفتاتين ، فقد اتفق له أن سقط فى امتحان التشريح ، ولم يواصل دراسة الطب ، فالتحق بمصلحة السكة الحديدية ، ولم يكن موفقا فى عمله الحكومى ولا فى حياته الزوجية بعد ذلك .

ولا أرانى أغلو ، حين أقول بإجمال، إنى حين أتتبع حياة من زلت بهم القدم فى سلوكهم الأخلاقى والاجتماعى ، أجد أن كثيراً منهم خاب مسعاه ، وأن الحيدة عن الطريق القويم تركت فى حياتهم أسوأ الأثر ، فإن من لم يخفق منهم كل الإخفاق ، تخلف عن ركب الطليعة ، ولم يبلغ قمة المجد .

وما دمنا فى حديث انزلاق الأخلاق ، فلا أرى بأسا من أن أشير إلى نهاية محزنة لقيها اثنان كانا من خيرة مدرسى الطب الأجانب، وما قعد بهما إلا سلوكهما الشخصى . أولهما الدكتور (ن) وهو محاضر ممتاز كانت الطلبة تتهافت على الاستماع إلى محاضراته ، حتى من لم يكونوا من طلبة فصله . فاعترضت طريقه فتاة لعوب ، تعرفت به فى إحدى دور « السينما » ، وأفضت الصلة بينهما إلى الزواج . وما زال يهمل واجباته المدرسية حتى فصل ، ودب بينه وبين زوجته خلاف أدى إلى الطلاق ، فحاول أن يراجع الاشتغال بالطب ، فلم يفلح . وأخيرا تعرف بأحد السياح الأغنياء ، واشتغل ترجماناً له ، وسافر إلى أمريكا الجنوبية معه ، حيث انتهت حياته نهاية مزرية .

أما المدرس الآخر ، فهو الدكتور « ... » وقد تزوج بفتاة من أسرة شرقية معروفة ، ولكنه لم يخلص فى حياته الزوجية ، بسبب علاقة غرامية نشأت بينه وبين سيدة أجنبية كانت متزوجة من مصرى عين سفيراً لبلاده فى أحد البلاد

الأجنبية ، وطلقت منه بسبب سوء سيرتها ، فتزوجها بعد أن طلق زوجته الأولى . وانهمك مع الزوجة الجديدة فى اللهو ، وأدمن معها الشراب ، فأهمل عمله حتى فصل. وافتتح مع تلك الزوجة فندقاً فى «حلوان». وحدث أن أصيبت هذه الزوجة بمرض نسوى ، فأرسلها زوجها إلىّ لأتولى علاجها ، وظلت تتردد على العيادة . وفى إحدى زياراتها قالت لى وهى تبارح حجرة الفحص : « لا بد أنك ضقت بكثرة زياراتى » ، فقلت تأدباً : « كلا ، يسرنى أن أؤدى خدمة لزوجك » . فقالت بنغمتها الماجنة : « هل تقصد حقا أنه يسرك أن ترانى ؟ » فاستشطت غضبا ، وهممت أن أجاهرها بحقيقة ما أشعر به نحوها من المقت والزراية ، ولكنى اكتفيت بأن أقول لها ، وقد فتحتُ الباب : « أخبرى زوجك بأن علاجك انتهى » . ولم ترنى وجهها من بعد .

وما أحب أن أختم حديثى فى هذا الصدد ، قبل أن أرغب إلى أبنائى – أوعلى الأصح حفدتى – من أطباء الشباب ، أن يأخذوا حذرهم إزاء ما يصادفهم من عوامل الإغراء والإغواء ، خشية أن يتورطوا فيما لا يحمدون عقباه من مزالق الأخلاق .

لقد تعرّضنا قبلهم لتجارب كثيرة مثيرة ، ولكننا أدركنا أن الاستمساك والاستعصام – أول الأمر – يولد المناعة ، ويورث القدرة على المقاومة ، ويساعد على تكوين إرادة قوية ، هى العامل الأول فى إجبار النفس على السير فى الطريق القويم .

ونصيحتى إليهم ألا يفرطوا قيد شعرة فيما يفرضه السلوك الأخلاقى الحميد ، وأن يملكوا قيادهم ، ويأخذوا أنفسهم بالحزم ، وأن يضعوا أمام أعينهم بشاعة الجرم الخلقى الذى يقترفه طبيب استؤمن على الأعراض ، وأخلد إليه الناس بالثقة ، ليؤدى واجباً نحو مريضة ، بعث بها ذووها فى حمى الرسالة الإنسانية المقدسة ، رسالة الطب .

وحقًّا إنها لكبيرة عند الله أن تُخان أمانة الأعراض، وقد توعد سبحانه من يرتكبها بأشد الوعيد . ولكن من يخون هذه الأمانة لا يسلم كذلك فى حياته العملية على ظهر هذه الدنيا من سوء الجزاء . فإن ضميره لا بد مستيقظ يوماً ليحاسبه ويعذّبه ، فينغّص عليه عيشه ، ويصبغ الدنيا فى عينيه بالسواد . والطبيب الذى يخون أمانة الأعراض لا بد من أن يفتضح أمره ، وتسوء سمعته ، ويتحاشاه الناس ، فلا خفىّ إلا ويظهر ، ولا مكنون إلا ويستعلن .

نهاية الدراسة

بينما نحن نجتاز السنة النهائية من دراستنا فى مدرسة الطب سنة ١٩٠٢ إذ ظهر وباء الكوليرا — فى بلدة « موشا » بالصعيد — وذلك فى أواخر شهر مايو من تلك السنة . ولم يكن عدد الأطباء كافياً لمقاومة الوباء ومكافحته ، فعمدت الحكومة إلى تجنيد من قطعوا من طلبة « مدرسة الطب » شوطاً بعيداً فى الدراسة ، ولا سيما طلبة السنة النهائية ، لكى يسهموا مع الأطباء فى المقاومة والكفاح . ونجم عن ذلك أن وقفت الدراسة فى المدرسة ، وأجلت امتحاناتها . واستمر ذلك حتى انقشع الوباء فى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٩٠٢ ، فعاد الطلبة إلى مقاعد الدرس ، وعقد الامتحان النهائى للتخرج فى يناير سنة ١٩٠٣ .

ولما كان لما قمت به فى كفاح « الكوليرا » أثر عميق فى مجرى حياتى ، فسأفرد لحديثه الفصل التالى من هذه المذكرات .

ويوم دخلت « مدرسة الطب » ، كان طلبة فرقتى سبعة عشر ، أحدهم صديقى وزميلى فى الدراسة الثانوية المرحوم « يونس (باشا) صالح » فلم يطب له تشريح الجثث ، فأعرض عن دراسة الطب ، والتحق بمدرسة الحقوق . وثمة أربعة استعصت عليهم الدراسة ، فخرجوا من المدرسة فى أثناء السنة الأولى والثانية ، واثنان أخفقا فى امتحان السنة الثالثة ، فكان المتقدمون للامتحان النهائى عشرة . وشاع بين الطلبة قبل إعلان النتيجة أن الناجحين أربعة فقط ، وكان لهذه الشائعة ما يسوغها ، فإننا كنا جميعا لا نعرف قدراً كافياً فى شأن الولادة وأمراض النساء ، إذ لم يكن قد أنشئ لها قسم أو عيادة خارجية ، ولم يجر من عمليات أمراض النساء فى المستشفى إلا ما ندر ، ولم نشهد من عمليات الولادة إلا حالة واحدة

انتهت بوفاة الأم والجنين معاً . والمحاضرات التي ألقاها علينا « شكرى (باشا) » باللغة العربية لم تتجاوز الثلاث. ثم عاقته عوائق عن متابعة إلقاء المحاضرات الباقية ، وعدتها أربعون . فمعظم معلوماتنا فى هذه المادة كانت نظرية ، حفظناها عن ظهر قلب ، دون معلم . وقد عولنا فيها على كتابين باللغة الإنجليزية من تأليف « جيليت » Jellett . أما فى غير أمراض النساء والولادة من مواد الدراسة ، فكنا مستعدين أتم الاستعداد ، بل كنا متفوقين فى الجراحة علماً وعملا بفضل مستر « مادن » ، وفى الرمد بفضل مستر « فيشر » .

وظهرت نتيجة الامتحان ، فإذا أنا أول الناجحين ، وكانوا ثمانية . فسرتنى هذه النتيجة سروراً كبيراً ضاعف منه أنى لم أكد أصل إلى باب المستشفى يومئذ حتى فاجأنى أحد السعاة ببرقية من شقيقتى الكبرى « بالمنصورة » تبشرنى فيها بأن « سرسق » الثرى المشهور اشترى الأرض المحيطة بمزرعتنا هنالك ، وهو يرغب فى شراء المزرعة بثمن مجزئ ، وطلبت منى أن أحضر مع شقيق وشقيقاتى المقيمين « بالقاهرة » لإمضاء عقد البيع . فكنا فى « المنصورة » بعد يومين ، وأمضينا العقد ، وقبضنا الثمن . ووكلوا إلىّ أن أتولى بنفسى قضاء الديون ، وتوزيع ما يتبقى بين الورثة ، ففعلت . أديت لكل ذى دين دينه كاملا ، وأفرجت عن المصوغات المرهونة لقاء ألف جنيه، واحتفظت لنفسى منها بساعة أبى وسلسلتها الذهبيتين ، وما زلت أحتفظ بهما حتى اليوم . وما فضل من ثمن المزرعة قسمته بين الشقيق والشقيقات ، وأبقيت لى منه قليلا .

وفى مساء اليوم الذى فرغنا فيه من المحاسبة ، قدم المنزل الصائغ « الحاج حسين » وهو الدائن المرتهن للمصوغات ، وأخبرنى بأن شقيقى الأكبر كان قد اقترض منه عشرين جنيهاً ، دون شيء مرهون ، وطلب منى أداء هذا المبلغ . فرجعت إلى الأوراق أفتش فيها حتى عثرت على سند بخط « الحاج حسين »

يقر بأنه تسلم المبلغ منذ عشرة شهور . فلما واجهته به امتعض ، وقال لى وهو يهبط السلم : « أنت دقيق قوى ، ما كنت تخليك طيب زى باقى العيلة » .

وقُبيل سفرى من «المنصورة» ، مضيت إلى المزرعة فى مركبة ، فلم ألق بها ممن أعرف من عمالها القدماء إلا ناظرها « رضوان » ، وأحد خفرائها « إبراهيم أبو يمن » الذى كنا نسميه « إبراهيم البلم » لبلادته . وكنا نضحك من أفاعيله ، وأذكر منها أنه كان من عادته أن يجيء إلى منزلنا كل أسبوع بسلة من فاكهة الحديقة ، فيتسلى بالأكل منها أثناء سيره على قدميه ، فلا تصل السلة إلا وقد ذهب نصفها أو نحوه . وبعد أن جلست إليهما بعض وقت ، للتوديع ، قدّمتُ إلى « رضوان » باسمى واسم الأسرة هدية له ولزوجه ولأولاده ، ودسست فى يد « إبراهيم » ما تيسر من النقود .

وكان أول ما صنعت ، بعد عودتى إلى « القاهرة » ، أن قصدت مستشفى قصر العينى ، لألقى أساتذتى ، ومن لم ألق منهم زرته فى منزله ، لأشكر لهم ما أسدوا إلىّ من معروف ، ولأعبر عن عرفانى للجميل .

ولم أنس نصيب الممرضين الذين كانوا يساعدوننى أثناء التلمذة من حسن التقدير ، فقد كافأتهم بمنح سخية ، وهم ثلاثة : أولهم « مصطفى النخاس » كبير الخدم فى قاعة التشريح ، وكانت مهارته فائقة ، وهو الذي علمنى طريقة تحنيط الجثث بالفورمالين . والثانى « رجب » كبير ممرضى قاعة العمليات ، وكان رجلا كفئاً تقدمت به السن . وهو الذى له الفضل فى تمرينى على طريقة تعقيم الآلات والضمادات بالبخار . وقد عاصر هذا الرجل « الدكتور الدّرى (باشا)» و«هربرت ملتون» Herbert Milton إذ كان قسم الجراحة مقسوما بينهما . وكان «الدّرى (باشا) » يظفر بنتائج حسنة لسرعته وكفايته فى إجراء جراحات النواسير البولية فى الرجال ، وكذلك داء الفيل فى الخصية . ولكنه لم يكن يلقى

بالا لفوائد التعقيم ، ولم تكن قد عرفت هذه الفوائد إلا منذ سنوات قليلة . وكان شأنه فى عدم الثقة بالتعقيم شأن « لوسون تيت » Lawson Tait الجراح الشهير الذى كان يهزأ بنظريات « لستر » Lister . على حين كان « هربرت ملتون » Herbert Milton زميل الدّرى (باشا) صاحب اليد الطولى فى إدخال الاكتشافات الحديثة فى تعقيم الآلات والضمادات والتخدير « بالكلوروفورم » فى مستشفى قصر العينى . وأما الثالث فهو « حسن » كبير ممرضى الجراحة ، وقد علمنى صنع الجبس ، وتحضير المحاليل لغسل الجروح ، ووضع الضمادات ، وإعداد أدوات التبخير . وإنما عنيت بالتنويه بهؤلاء الأعوان من الممرضين رجاء أن يجد فيه أبنائى طلبة الطب ما يبعثهم على التهوين من كبريائهم فى معاملة أعوانهم من المشتغلين بالتمريض . فلا ينكرون ما لهم من فضل ، ولا يجحدون ما كسبوا من خبرة بالفطنة والمرانة .

ولست مستطيعاً أن أعبر عما استشعرته من الألم ، وما ملأنى من الحزن ، وأنا أغادر باب مدرسة الطب ، لما قرّ فى نفسى من أنى لم يعد لى بها صلة . لقد اغرورقت عيناى بالدمع ، أسفاً على فراق المرضى والمعامل والأساتذة ، بعد صحبة سنوات أعدها أسعد أيام حياتى . ولم يخطر ببالى ساعتئذ أن القدر يخبأ لى أن صلتى بالمدرسة ومستشفاها لن تنقطع ، وأنى سأظل ربيبها ، أنفق فيهما شبابى وكهولتى جميعاً .

تقفون والفلك المحرّك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار

شهور مع "الكوليرا"

١ ـ فى « موشا »

فى مستهل صيف سنة ١٩٠٢ تفشت « الكوليرا » بين الحجاج فى مكة ، فقضت على الألوف منهم ، وبينهم من المصريين كثير . فلما عاد الحجاج إلى « مصر » حُجزوا فى معازل الحجر الصحى فى « سينا » ، واتخذت احتياطات دقيقة ، ولكنها لم تمنع تسرب الكوليرا ، فقد ظهرت فى قرية من قرى الصعيد ، تسمى « موشا » على مقربة من أسيوط . وهى قرية صغيرة ، سكانها بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ، تقوم على مرتفع من الأرض وسط الحياض بأسيوط . وفى أثناء الفيضان تمتلىء الحياض ، فتصبح القرية كأنها جزيرة تحيط بها المياه ، لا يوصل إليها إلا على متن القوارب . وفى الصيف ، بعد انحسار مياه الحياض ، تجف التربة ، وتكثر فيها بسبب الحرارة أخاديد وشقوق يتعذر معها السير . وإن درجة الحرارة لترتفع فيها حتى لتبلغ فى الظل أحيانا ٥٣ سنتيجراد .

كان بين الحجاج الذين عادوا ، بعد أن قضوا فترة الحجر الصحى ، عمدة بلدة موشا » ، وهو على حظ من الثقافة ، وقد جلب معه عشر صفائح مملوءة بماء بئر زمزم ، فى مكة . وكانت زمزم فى تلك السنة قد لحقها « مكروب الكوليرا » ، ولم يفطن إلى ذلك هو أو أطباء المحجر ، فأذنوا له فى نقل صفائح الماء معه ، وهى محتوية على رواسب عضوية تقوت بها « ميكروبات » الوباء . ولما وصل العمدة إلى بلدته ، وزع ماء الصفائح على أهليه ومحبيه ،

فصبّوه فى آبارهم للتبرك . وما هى إلا أن ظهرت بينهم « الكوليرا » تحصدهم حصداً . فأقامت الحكومة حول القرية نطاقاً من العسكر يمنعون الدخول إليها أو الخروج منها . وحشدت لمكافحة الوباء خيرة الأطباء ، وعلى رأسهم «جودمان» Goodman ، وطبيب من الجيش سبق له أن كافح « الكوليرا » فى « الهند » ، وهو « الدكتور راونترى » Rowentree . وكذلك جندت طلبة السنتين الثالثة والرابعة من مدرسة الطب ، وقدرت لكل منهم خمسة عشر جنيها مرتباً شهريا ، وهو ضعف مرتب الطبيب فى الأحوال العادية فى ذلك العهد . وتواصل الكفاح شهراً كاملا ، دون أن ينقطع الوباء ، بل لقد تسرب إلى البلاد المجاورة لأسيوط .

وكنت يومئذ بين الطلبة المجندين من السنة النهائية فى مدرسة الطب ، ولكنى لم أرسل إلى «موشا » ، بل عينت للعمل فى محطة القاهرة للسكة الحديدية : أفحص المشتبه فيهم منَ القادمين فى قطارات الصعيد ، وأتخذ إجراءات التسهيل لشحن المهمات الطبية إلى تلك القرية . ولبثت فى هذا العمل خمسة عشر يوماً ، فسئمته . وكبر على نفسى أن أواصله . وعنّ لى أن أسعى للنقل منه ، فطلبت إجازة يوم . فلما أذن لى ذهبت فى ذلك اليوم إلى « مصلحة الصحة » ولا قيت « وهبة (بك) شحاته » — فقدمنى له ابن شقيقتى « فهمى » ، وهو سكرتير لأحد الأطباء الإنجليز فى المصلحة . ورغبت إلى « وهبة (بك) » فى أن يمهّد لى الدخول على السير « هوراس بنشنج » Sir Horace Pinching المدير العام لعرض شكواى . ولم أصارح « وهبة (بك) » بالشكوى ، خشية أن يثبط من همتى ، فسألنى : « ألك معرفة بالسير هوراس ؟ » فقلت : «لا» . فقال : « إنه رجل عسكرى ، أمضى فى الجيش شبابه ، وهو صعب المراس ، يهابه الرؤساء الإنجليز أشد الهيبة » . فأصررت على رغبتى فى لقائه ، وما زلت

ألح عليه حتى دخل مكتب « السير هوراس » وأنبأه بأن طالباً مجنداً لمقاومة « الكوليرا » يبغي أن يلقاه . فسأله : « أين يعمل هذا الطالب ؟ » ، فأجابه : « فى محطة القاهرة » فقال له : « مم يشكو ، وهو فى عمل سهل لا خطر فيه من العدوى؟ » . فرد « وهبة (بك) » بأنه لا يدرى موضوع الشكوى . فأذن فى دخولى ، وسألنى عن شكواى ، فقلت له : « إنى شاب فى التاسعة عشرة من العمر ، وقد وضعت فى عمل أجدر به طبيب على وشك التقاعد » ، ولحسن حظى ضحك الرجل ، ولم يكن ذلك مألوفاً من أخلاقه ، فشجعنى ذلك على المضى فى القول ؛ وإذا هو يسألنى : « ماذا ترغب ؟ » فقلت : « قرأت فى صحيفة (المقطم) أمس أن طبيباً مصرياً فى موشا توفى بعد إصابته بـ « الكوليرا » ، فمكانه شاغر ، ولعلى أفلح إذا عينت فيه ، وأمامى مستقبل يجب على أن أسعى منذ الآن فى وضع أساسه » فرد على بأن « جودمان » طلب أن يكون الطبيب البديل ممن مارسوا مكافحة الأوبئة ، فوجدتنى أقول له : « يندر أن يكون فى مصر طبيب كافح الكوليرا قبل اليوم ، فإن آخر غزوة « للكوليرا » كانت سنة ١٨٨٢ ، منذ عشرين سنة » فاقتنع بقولى، وكتب لى رسالة طلب منى أن أحملها إلى « جودمان » عند وصولى إلى موشا ، وقال لى : « تأهب للسفر غداً » فقلت له : « لم لا أسافر اليوم بقطار المساء ؟ » فتأملنى ملياً ، ثم قال : « أواقع أنت فى غرام يائس تتعجل بسببه الموت ؟ » فتبسمت ، وقلت : « غرامى الأول والأخير هو القيام بالواجب . وإنى أتطوع لمكافحة الوباء كما يتطوع الجندى للذود عن وطنه » فقال : « حسناً ، امض على بركة الله » .

ولما علم « وهبة (بك) » بما دار بينى وبين « بنشنج » قال لـ « فهمى » : « ما بال خالك يرمى بنفسه فى النار ؟ » ولا تسل عما نالنى من لوم « فهمى » وشقيقى وشقيقاتى حين انتهى إليهم النبأ ، فلم يقرنى أحد منهم على ما فعلت .

وفى المساء ، أقلّنى قطار الصعيد ، فوصل بى إلى « أسيوط » ، وقد لاح الفجر . فنزلت فى فندق المدينة الوحيد ، وكان من أدنى الفنادق درجة . وأردت أن أنام بعض الوقت ، بغية الراحة والاستجمام ، ولكن لم يغمض لى جفن . وفى الساعة السادسة صباحاً أحضر لى عامل الفندق قدحاً من الشاى ، ودار بينى وبينه بعض الحديث ، فعلمت منه أن قافلة تسافر إلى « موشا » كل يوم فى منتصف الساعة السابعة على ظهور الحمير ، حاملة الثلج والأطعمة . فطلبت منه أن يكترى لى حماراً ، وأن يخبر رئيس القافلة برغبتى فى السفر معه ، ففعل . وبعد مسير ساعتين مع القافلة ، شارفنا بلدة «موشا» . وكنت فى مسيرى أخشى أن تسوخ قوائم الحمار فى الأخاديد والشقوق بين كتل الطين اليابس ، ويسمونه هناك « البشريد » ، ولكن المكارى طمأننى بأن الحمار مدرب على السير فى هذه الأرض ، ولم يسبق له أن زلت به القدم . وفى أثناء مسيرى شاهدت لأول مرة فى حياتى — فيران الحقول ، وهى تقفز من تلك الشقوق والأخاديد . وكانت الحرارة بالغة الشدة ، وقد أذابت من ألواح الثلج نصفها فى الطريق .

وعند النطاق المضروب حول « موشا » من المعسكر ، وقفت القافلة تسلم الثلج والأطعمة ، وما لبثت أن عادت أدراجها ، وبقيتُ وحدى أطلب من الضابط إخبار الدكتور « جودمان » بأنى أحمل رسالة إليه من « السير هوراس بنشنج » . فأمهلنى قليلا ، وقدم لى كرسيًّا للجلوس عليه ، واعتذر بأن « الدكتور جودمان » الآن فى مجلس عسكرى معقود لمحاكمة جندى متهم لأحد الأهلين أن يخرج من البلدة ، وأخذ منه نظير ذلك بيضة مشوية . وفيما بعد علمت أن هذا الجندى جوزى بضربه أربعين جلدة ، وحبسه ستة أشهر .

وأقبل الدكتور « جودمان » فى نحو الساعة العاشرة . وهو رجل جهم الوجه ، ولكنه طيب القلب . وكان معه الدكتور « راونترى » يرتدى ملابس

الفرسان فى الجيش الإنجليزى. ودفعتُ الرسالة إلى « جودمان » فما قرأها حتى فارغضباً ، وخاطب «راونترى» قائلا : « طلبت طبيباً مدرباً ، فجيء لى بشاب لم يتخرج بعد » . فقال له « راونترى » : « أتريد أن تثير مناوشة بينك وبين (بنشنج) » ؟ . فكأنما صب عليه ماء بارداً، أسكن ثائرته . وسرعان ما قال لى « جودمان » هادئ الصوت : « إن فى القرية بئراً موبوءة هى العلة فى استمرار الإصابات بـ "الكوليرا" ولم نستطع العثور عليها بالرغم مما بذلناه من البحوث ، ولهذا السبب طلبت طبيباً خبيراً للبحث عنها ، وتلافى شرها، فأرسلوك إلىّ وأنت تلميذ لم تتخرج بعد». فابتسمت، وابتسم هو أيضاً لحسن حظى ، وسألنى : « ماذا تقترح لحل هذه المشكلة ؟ » فقلت : « سأحاول أن أعمل شيئاً » فقال : « وماذا تريد من الوسائل لمحاولتك ؟ » فقلت : « قائمة للوفيات وتواريخ حدوثها ، وخريطة للقرية ، ورسماً بيانيًّا لسير الوفيات فيها، وكذلك أطلب الإذن فى دخول المنازل لمعرفة مواقع الآبار» . فقال : « أما الخريطة فقد همّ مهندس أسيوط أن يقوم بها ، ولكنه ما بدأ يرسم الإطار حتى أصابه إسهال ، فخشى أن يكون الوباء قد أدركه ، وغادر القرية من فوره ، وقد مضت على غيبته مدة طويلة ، ولم يعد . وأما الرسم فلم يعمله أحد . وأما قائمة الوفيات فنستطيع أن نوافيك بها . وأما زيارة المنازل فإنى أجيزها لك ، على أن أرسل معك ستة من العساكر لحمايتك من هؤلاء الوحوش » . فقلت : « إنى لا أرغب فى حماية عسكرية، وسأطرق المنازل أعزل مع مرشد من الأهلين ». فقال : « إنهم قاتلوك أول يوم لا محالة ».

فقلت : « أنا أفضل ألا أصطحب أحداً من الشرطة » . فقال : « كم يوماً يستغرق القيام بهذا العمل ؟ » فقلت : « أسبوعين » .

واجتاز بى « جودمان » النطاق المضروب من العساكر ، فألفيت خياماً منصوبة فى العراء لإقامة الأطباء . ولكل طبيب خيمة خاصة به ، مزودة ببعض

أدوات غسل الوجه واليدين . وهناك خادم يتنقل بين الخيام لمساعدة من يبغى الاستحمام .

وكان أول من لقيت من الأطباء الدكتور « على إبراهيم (باشا) » ، وهو يسبقنى فى التخرج بسنتين ، والدكتور « شقير » ، فنصح كلاهما لى بما أتخذ من أسباب الحيطة ، ونهيانى عن التعرض للشمس ، لشدة الحرارة التى تبلغ خارج الخيمة ٥٣ سنتيجراد ، كما نهيانى عن أن ألمس الطست والإبريق النحاسيين إلا بعد أن أصب عليهما وعلى يدى الماء لتبريدهما ، فإن لم أفعل تعرضت أصابعى للسع ، وظهرت عليهما النفاخات « البرابيق » . ويجب علىّ فوق هذا كله ألاّ أنسى وضع الأوعية المملوءة بالماء تحت قوائم السرير ، توقياً من دبيب العقارب إلى فراشى بالليل . وقدم لى الدكتور « على (باشا) إبراهيم » زجاجة واسعة الفم ، لها سدادة من « الفلين » ، تحتوى على « الكحول » ، وفيها ملقط من ملاقط الشرايين . وأوصانى أن أتفقد العقارب على ضوء « الفانوس » قبل النوم ، فما عثرت عليه منها تناولته بالملقط ، وألقيت به فى زجاجة « الكحول » وقال لى إنى سأجد منها خمسا أو ستاً كل ليلة . وكذلك أوصانى أن أترك الخيمة كلما اشتدت الريح ، خشية أن تقتلع العاصفة الخيمة، فتسقط هى وما حوت من الأثاث فوقى . وبت ليلتى تساورنى العقارب والعواصف فى المنام !

وفى الصباح ، أرسل لى « جودمان » الإطار الذى رسمه المهندس تمهيداً لعمل خريطة للقرية ، وقائمة المتوفين بإصابة الكوليرا ، وتاريخ الوفيات . وطلب من نائب العمدة ، وهو رجل قوى البنية ، دمث الخلق ، أن يصاحبنى فى زيارة المنازل ، للكشف عن الآبار التى يخفيها الأهلون عن عيوننا ، مخافة أن نأمر بتبخيرها أو ردمها . وكان اليوم يوم « الجمعة » ، فمضيت مع نائب العمدة ، وقد شيعنى زملائى الأطباء بكل ما يثبط الهمة ، وتوقعوا لى

الإخفاق الذريع ، وأنكروا عليّ أنى أبيت الخروج فى حراسة ستة من الجنود ، ونسبوا ذلك منى إلى جهلى بطبائع أهل الصعيد .

ودخلت القرية ، حتى بلغت مسجدها وقت صلاة « الجمعة » والناس فى المسجد محتشدون . فطلبت من نائب العمدة أن يخبر الإمام بوجودى ، ويستأذنه فى أن ألقى فى الناس كلمة بعد أداء الصلاة ، وأن ينبههم إلى أنى تطوعت لخدمتهم بديلا من الطبيب الذى قضى شهيد الواجب . فاستجاب الإمام لما رغبت إليه فيه . ووقفت على عتبة المسجد وخاطبت الجمهور الخارج من الصلاة باللغة الدارجة واللهجة الصعيدية على قدر ما استطعت ، وأفهمتهم بأن « الكوليرا » التى أودت بكثير من أعزائهم بين رجال ونساء وأطفال يرجع سببها إلى أن مياه بعض الآبار تلوثت بحشرات مؤذية لا تراها العيون ، فإذا وصلت مياه الآبار إلى الأمعاء ، تسربت معها تلك الحشرات ، فكان منها قئ وإسهال يقضيان على المصاب فى أيام معدودات . وقد طهّرت الحكومة ما استطاعت حصره من الآبار ، وهنالك بقية منها أخفاها الأهلون ، خوفاً عليها من التلف ، وهذا وهم خاطئ ، فإن ما طهرته الحكومة من الآبار أصبح نقيًّا صالحاً . وسنبحث عما بقى من الآبار الموبوءة لتطهيرها ، حتى ينقشع الوباء بإذن الله . وقلت لهم : إننى وأنا شاب دون العشرين ، تطوعت للخدمة ، غير مبال بالخطر ، وطلبت منهم أن يعينونى فى مهمتى .

فاستحسن الناس ما قلت ، ووعدونى ببذل العون . فشرعت فى رسم خريطة القرية . ونفعنى فى ذلك نائب العمدة بآرائه السديدة . وقد اعترضتنى مصاعب فى الرسم ، أهمها أن الكثير من الحارات ينتهى بزقاق مسدود بأحد المنازل ، فلا يوصل إلى تتمة الحارة إلا بالصعود إلى سطحه والنزول من السطح إلى ما تبقى منها . وكنت أبدأ عملى فى السادسة صباحاً ، حتى الظهر ، وأستأنفه فى الثالثة

عصراً حتى الغروب ، فأعود إلى الخيمة وأُلقى بجسدى على الفراش ، منهوك القوى . ويوماً أقبل علىّ أحد الرفاق الأطباء يسألنى : « كيف حالك ؟ » فقلت : « رجلىّ بتنقح من التعب » ، فقال لى مبتسما : « قلنا لك يا سى "نجيب" اللى يخف عقله تتعبه رجليه ! » .

وأكملت رسم القرية فى خمسة أيام . ومما سرنى بعد ذلك أن وزارة الداخلية أرسلت ، إثر زوال الوباء ، مهندساً يرسم القرية ، فلدفع إليه « جودمان » بالرسم الذى وضعته ، ولما راجعت وزارة الداخلية الرسمين ، ووازنت بينهما ، تبين لها دقة الرسم الذى وضعته ، وكتبت إلى « جودمان » تهنئه به ، على اعتبار أنه هو صاحبه !

واسترحت بعد إكمال الرسم يوماً فى الخيمة ، ثم أخذت أفتش عن الآبار المخبوءة ، وكان الأهلون يخفونها بوضع ألواح من الخشب القديم عليها ، ويفرشون فوق الألواح حصيراً بالياً يسمونه « الأبراش » . ثم يغطون الحصير بالتراب : فلا يهتدى إلى مكان البئر إلا من يعرف السر . وكنت أصل إلى اكتشافها بأن أقرع أرض فناء المنزل بهراوة غليظة تسمى « النبوت » ، أعارنيها نائب العمدة الذى كان يصحبنى فى القيام بهذه الزيارات . فإن كان صدى القرع أصم علمت أن ليس هنا مكان بئر ، وإن كان الصدى رناناً أمرت بنبش الأرض ، فأجد فوهة البئر مغطاة بالحصير فوق ألواح الخشب . ومتى اكتشفت بئرا وضعت نقطة حمراء فى موضعها من رسم القرية ، وكتبت اسم صاحب المنزل المحتوى على البئر فى دفتر خاص ، وبهذه الطريقة اكتشفت من الآبار المخبوءة نحو خمسين .

وكانت الخطوة التالية أنى راجعت قائمة الوفيات وتواريخها ، ووضعت فى الرسم نقطة سوداء عند كل منزل حدثت فيه وفاة . وشد ما كانت دهشتى حين

استبان لى أن معظم الوفيات حدثت فى المنازل المجاورة لبئر كبيرة اشتهرت بعذوبة ماثها ، فكان أصحابها وجيرانهم يستقون منها فى السر ، ويعيدون تخبئتهم لها بعد أن ينالوا حاجتهم منها كل يوم .فأخذت ملء « صفيحة » من ماء هذه البئر ، وأرسلت بالصفيحة إلى « المعمل البكتريولوجى » فى أسيوط . واتفق أن كان بها وقتئذ الأستاذ « بيتر » Bitter مدير قسم البكتريولوجيا وقانون الصحة —فى زيارة تفتيشية — فتولى فحص الماء ، فوجده عامراً «بميكروب الكوليرا» فحضر بنفسه إلى « موشا » ، وأبلغ النبأ إلى « جودهان » . وما لبثت البئر أن طهرت ، ثم ردمت، وقد عوضت الحكومة صاحبها عنها بمقدار من المال غير قليل . ثم فحصوا مياه بقية الآبار فإذا هى نظيفة . ولم يمض أسبوع حتى انقطعت الإصابات « بالكوليرا » عن « موشا » ، فكان لذلك هزة سرور فى نفسى على وجه خاص ، وفى النفوس جميعاً على وجه عام .

وقد وسمتنى « موشا » بوسمة باقية إلى اليوم ، فإنى كنت أشقر البشرة ، فلما تعرّض وجهى ويداى لحرارة الشمس البالغة هناك ، تسلخ وجهى وأصابته « إكزيما » حادة ، وتهرّأ جلد يدىّ، ولم أشف من التسلخ والتهرؤ « الإكزيما » إلا بعد علاج زاد على شهر ، ولكن لون وجهى ويدىّ استحال من الشقرة إلى السمرة ، ولم يعد اللون الطبيعى الأول من بعد .

Twitter: @ketab_n

٢ – فى « ديروط »

ما كان لنطاق عسكرى ، كذلك النطاق الذى ضرب حول « موشا » ، وسمح فيه جندى من جنود الحصار لأحد الأهلين أن يخرج منه نظير بيضة مشوية ، أن يمنع تسرب « الكوليرا » إلى شتى البلاد .

وذلك هو الذى كان .

تسربت عدوى « الكوليرا » إلى كثير من المدن المصرية ، وكانت « ديروط البلد » و « ديروط المحطة » من أوائل البلاد التى سرى فيها الوباء .

فى صبح يوم ، وردت إشارة تليفونية إلى « موشا » من الدكتور « جودمان » يستدعينى فيها للقائه فى « ديروط » ، فوافيته فى استراحة الحكومة هناك ، فأخبرنى باشتداد الحالة ، وطلب منى أن أعمل معه . وأفرد لسكناى حجرة طيبة فى « الاستراحة » ، ولكن لا خادم ولا طباخ . فلم أجد بدًّا من أن أكنس حجرتى ، وأرتب فراشى ، وأعالج – ما استطعت – إعداد وجبات الطعام . وقد ألفت ذلك على ما أقاسيه من عناء ، وآثرت أن أتولى بنفسى إعداد مأكلى وإغلاء ماء الشرب ووضعه فى زجاجات محكمة السدّ ، تفاديا من خطر التعرض للعدوى بطعام مجلوب من الخارج ، أو موكل به خادم أو طباخ .

وظللت مع سائر الأطباء نكافح الوباء ، حتّى نجحنا فى وقف سيره بعد أسبوع . وفى هذه الفترة تعرفت بمعاون الشرطة ، فأنس بى وأنست به ، وكان أحيانا يكلف ساعيه الخاص أن يتولى عنى تنظيف الحجرة ، وشراء ما أحتاج إليه من بيض ولبن ونحوه . وليلة زارنى المعاون ، وكانت الصحبة بيننا قد توطدت ، وطفق يشكو لى أن ترقيته تأخرت ظلما ، لوشاية بلغت سمع المفتش الإنجليزى بأنه يهمل واجبه ، ويسرف فى الشراب .

وقال لى : « أنا لا أشرب إلا كأسين أو غايته ثلاثة . ولكن تقول إيه فى أولاد الحرام ؟ »

وبينما نحن فى الحديث ، والساعة قد جاوزت التاسعة مساء ، إذ وردت إشارة تليفونية من بلدة تسمى « مسارة » بأن « الكوليرا » ظهرت فيها ، فبحثنا عن « جودمان » و « راونترى » لإبلاغهما الإشارة ، فعلمنا أنهما سافرا للتفتيش منذ الصباح ، ولم يعودا بعد . فاتفقنا على أن نتخذ ما يلزم ، دون انتظار عودتهما . وسألنى المعاون : « هل تحسن ركوب الخيل ؟ » فأجبت : « لا ، ولا الحمير ! » فضحك ، وزين لى أن أصطحب نصف الممرضين والممرضات الموجودين بديروط ، وأن آخذ كل ما يلزم من المطهرات والأدوية ، وأن نمضى على الفور راكبين ظهور الخيل ، قاصدين « مسارة » التى تبعد أكثر من ثلاث ساعات . وأشار علينا بأن نسير ببطء ، وهو الأصوب لمن ليست له دربة الركوب . وما هى إلا أن أنفذنا ذلك ، ولاحت لنا « مسارة » مع الفجر ، فإذا العمدة وشيخ البلد والخفراء فى الانتظار . وكان المعاون فطناً هماماً ، فأمر بإقامة ست حجرات فى الحال . فأحضر العمدة عدداً كبيراً من العمال أنجزوها فى نحو أربع ساعات ، وقد أقاموا جوانبها « بالبشريد » الذى جلبوه من الحياض ، وهو قوالب من الطمى المتجمد المتخلف عن الفيضان ، واتخذوا السقوف من سعف النخل .

وفيما كان العمال يبنون الحجرات ، قمت بتفتيش المنازل ، وعزلت المصابين ، وجعلت على الترعة خفراء يمنعون الأهلين أن يلقوا شيئا فيها . وصنعنا فى طرفى الترعة موردتين ، إحداهما فى مدخل القرية يستقى منها الناس ، والأخرى فى نهايتها لسقيا الماشية .

وما كادت الساعة تبلغ الثانية عشرة ظهراً ، حتى كنا قد فرغنا من مهمتنا ،

فعدنا أدراجنا ، وكنت قد مرنت بعض المرانة على ركوب الخيل ، فأسرعنا فى السير ، حتى وصلنا إلى « ديروط » فى الساعة الخامسة بعد الظهر . فألفينا « جودمان » ومفتش وزارة الداخلية الإنجليزي — وهو من أصدقاء « جودمان » — فى انتظارنا على أحر من الجمر . وبادرنى « جودمان » بقوله إنه بحث عنى بلا جدوى عند عودته إلى ديروط فى العاشرة صباحاً ، وإن إشارة تليفونية وردت اليوم بظهور « الكوليرا » فى بلدة مسارة ، وعلىّ أن أسارع إلى السفر إليها . فتبسمت وتبسم المعاون معى ، وقصصنا ما قمنا به .

وبعد ذلك طلب منى « جودمان » والمفتش الإنجليزي واسمه مستر « ميتشل » أن أصطحبهما إلى حجرتى فى الاستراحة ليستطيعا أن يشربا من الماء المغلى الذى كنت أعبئه لنفسى فى زجاجات محكمة السد . ثم قصصت عليهما تفاصيل ما قمنا بعمله، وقلت إن الفضل فى كل ما عمل يرجع إلى الجهود الجبارة التى قام بها « محمود أفندى » المعاون ، فقال ميتشل: « هذا غريب . إن التقارير التى تصل إلىّ تختلف عما تقول ! » فأجبته : « إنى لم أقل غير الحق . إنه قد أتم فى خمس ساعات ما لا يستطيعه غيره فى أسبوع » .فقال المفتش : «هذا عظيم جداً» . ولما قابلت المعاون قلت له : « جاي لك خير نهار الاثنين، جول إن شاء الله » فقال لى : « لا بد أنك قلت كلمة خير فى حقى للمفتش . اسمع يا محفوظ ، بكرة الأيام حتوريك أن كلمة الخير ما فيهاش خير ، وأن كلمة الشر فيها كل شر . وزيادة عن كدا ميتشل ابن كلب وبيكرهنى لله فى لله » . وكم كانت دهشتنا عظيمة حين بلغنا بعد ذلك أن المعاون نال الترقية التى أبطأت عنه ، وأخذ الدرجة التى كان يائساً من الحصول عليها .

وبعد خمسة أيام كان « جودمان » فى « المنيا » فجاءته فى المساء رسالة مفادها أن إصابة بالطاعون ظهرت فى إحدى القري بمديرية أسيوط ، فأبرق

إلى مفتش صحة « أسيوط » يقول : « أرسلوا الأدوية والأدوات اللازمة ومعها نجيب محفوظ بقطار البضاعة الذى يصل إلى القرية الموبوءة بالطاعون فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ».فأنفذت ذلك ، واتخذت مكانى مع الأدوية والأدوات فى المركبة التى بها « العواقة » وتسمى « السبنسة » . وكان قطار البضاعة يقف فى بعض المحطات نحو الساعة . ولما وصلنا وجدت العمدة ينتظرنى ، ودعانى إلى المبيت فى منزله ، فألقيت نظرة على فراش السرير ، فهالنى ما يمرح من الحشرات على الوسادة ، ففضلت أن أنام على المصطبة خارج المنزل . ولم تكن بى حاجة إلى غطاء ، فالحر شديد ، فاتخذت من سترتى وسادة لرأسى ، ورقدت إلى الصباح . ثم نهضت مبكرا أجرى ما ينبغى من الاحتياطات ، وفيما أنا واقف بجانب أحد المنازل التى طهرناها ، إذا بقفة من الكناسة تسقط على رأسى ، فاتسخت ثيابى ، وملأ الغبار خياشيمى . ولم يمض يومان حتى أصابتنى « دوستاريا » ، فاضطررت أن أستأذن رئيسى فى العودة إلى القاهرة، فأذن لى .

وذهبت بعد الإبلال من المرض إلى « مصلحة الصحة » ، ولاقيت « السير هوراس بنشنج » فقال لى : « نُمى إلىّ ما قمت بعمله فى (موشا) ، ولم يخطىء ظنى بك » . وأمر بإرسالى إلى « حلوان » لمعاونة مفتش الصحة هناك . وكان ذلك شبه إجازة ، فالعمل فى « حلوان » لا يتطلب من جهد . وخرجت من مكتب « بنشنج » للقاء « فهمى » ابن شقيقى بمكتبه فى المصلحة ، وحدثته بعملى فى مكافحة الوباء ، فقال لى : « علمنا ذلك كله ، وسأريك خريطة القرية التى صنعتها ، والرسم البيانى الذى أجريته لمعرفة سير الوباء ، فقد تضمنهما التقرير الذى ورد المصلحة» . وأحضر التقرير ، فما راعنى إلا أن إمضائى محى من الأوراق ، وحل محله إمضاء « جودمان » . وصغر الرجل فى عينى يومئذ ، ولكن سرنى منه بعد ذلك ما أخبرنى به صديقى العزيز الدكتور

« إسكندر جرجاوى » وكان من طلبة السنة الثالثة المجندين لكفاح « الكوليرا » ، إذ قال لى : « إن " جودمان " صارح الأطباء المجندين جميعاً بجهدك فى صنع خريطة القرية والرسم البيانى ، وأقر بفضلك فى اكتشاف البئر الموبوءة » . فذهب عنى ما كنت قد شعرت به من الاستياء .

٣ – فى « حلوان »

أقمت بحلوان فى حجرة طيبة من « بنسيون » جميل ، وقد تكفلت « مصلحة الصحة » بنفقة إقامتى ، تقديرا لما قمت به من كفاح الكوليرا فى « موشا » وغيرها من بلاد الصعيد .

وفى حلوان تعرفت بكثير من السياح ، معظمهم من « الألمان » ، جاءوا للاستشفاء بجوّ الضاحية البديع ، وحماماتها المعدنية المفيدة .

وكانت حلوان لذلك العهد مسكناً للأثرياء من الطبقة الأرستقراطية ، وهم أبناء الأسر التركية والشركسية ومن إليهم من سلالة المماليك الذين حكموا مصر حقبة مديدة . وكان بالضاحية فنادق رفيعة ، ومنتدى كبير « كازينو » . وفى فندق « جراند أوتيل » و « فندق الحياة » كانت الجوقات الموسيقية تعزف ألحانها كل يوم .

وكان « الخديو توفيق » يمضى هو وحرمه معظم الأيام فى « حلوان » . وبينما هو بها فى أواخر أيام حكمه . أصيب بالتهاب كلوى على أثر « أنفلونزا » شديدة ، فقام بعلاجه « الدكتور سالم (باشا) » . ولما اشتد به المرض ، استعين « بالدكتور كومانوس (باشا) » الطبيب الخاص للحرم الخديوى ، مع أربعة من كبار الأطباء الأجانب ، ولكن القدر المحتوم وافاه بعد احتباس البول ثلاثة أيام . وعلى أثر وفاته قامت فى الصحف الفرنسية المحلية حملة على « الدكتور سالم (باشا) » إذ رماه الأطباء الأجانب بالجهل ، واتهموه بأنه أهمل فى علاج « الخديو » إهمالا أدى إلى التعجيل بوفاته ، فإنه لم يتابع تحليل بوله كل يوم . ولم تملك الحكومة إلا أن أجرت فى ذلك تحقيقا أسفر عن سلامة التصرف ،

فقد كان البول يحلل يوميًّا مرتين ؛ إلا أن الحملة الصحفية ، وبخاصة حملة الصحف الأجنبية ، أساءت إلى سمعة « الدكتور سالم (باشا) » ، وأثرت فى مكانته الطبية تأثيرا غير حميد .

وكان شقيقى وأصدقاؤه يحضرون أحياناً إلى « حلوان » لزيارتى ، وكنت واسطة التعارف بينهم وبين « مفتش الصحة » ، فألفوا أن يمضوا السهرة فى « الكازينو » معه ، إذ تأكدت صلتهم به .

وفى غضون الأسبوعين اللذين قضيتهما فى « حلوان » لم تظهر إصابة بـ « الكوليرا » ، ولكن حدث اشتباه مرتين .

فالمرة الأولى كانت موت رجل فى قرية «المعصرة» القريبة من «طرة» بعد أن أصيب بقىء شديد ، فشك حلاق الصحة فى الأمر ، وأبلغ مفتش الصحة ، فانتدبتُ لتحقيق سبب الوفاة ، ولتبخير منزل المتوفى ومنازل مخالطيه . وأقلنى القطار إلى « المعصرة » ، وقمت بفحص الجثة ، ومعرفة تاريخ المرض ، فاتضح لى أن الرجل مات مسموما بالزرنيخ ، فأبيت التصريح بالدفن . وتداول الناس أن للعمدة يداً فى هذه الجريمة ، وأنه قدم إلى حلاق الصحة رشوة ليقنعنى بأن الوفاة بسبب الإصابة « بالكوليرا » . ولما علم العمدة بأنى أبيت التصريح بالدفن أثار ضجة كبيرة قام بها أعوانه ، وهددونى بالقتل ، فتلطفت بهم ، ورغبت إليهم أن يصاحبونى إلى المحطة لإمضاء التصريح ، وكانت على مسافة من القرية . وما إن وصلت إلى المحطة حتى أنهيت إلى ناظرها الأمر ، وطلبت منه أن يدبر لى حيلة للسفر إلى « حلوان » فى خفية من القوم ، فأركبنى قطار بضاعة كان بالمحطة على وشك القيام لحلوان ، ولم يكن القوم يراقبونه ولا يتوقعون أن أركبه . وعند وصولى إلى « حلوان» وجدت مفتش الصحة وشقيقى وأصدقاءه فى «الكازينو» . وكان حلاق الصحة قد أرسل إلى المفتش إشارة تلفونية بأنى لم أصرح بدفن

المتوفى ، ولم أقم بتطهير المنازل . فلما رآنى المفتش أبدى امتعاضه الشديد ، فأسررت إليه أن المتوفى مات مسموماً بالزرنيخ . فقال لى : إنى أخطأت بهذا التصرف ، وعرضت حياتى للخطر بلا موجب ، وكان فى مكنتى التصريح بالدفن ، وإبلاغ النيابة بعد ذلك عند رجوعى ، لتتصرف هى بحسب المتبع . وقد ظهر بعد ذلك أن المتوفى كان مسموما حقاً ، وتقرر وقف العمدة ، ولا أعلم ماذا كان من الأمر بعد .

والمرة الأخرى كانت بلاغاً بأن إصابة « بالكوليرا » حدثت فى « عزبة التبانة » التابعة « لحلوان » ، انتهت بالوفاة . فكلفنى المفتش أن أنتقل إلى « عزبة التبانة » لتحقيق البلاغ ، ولم يكن لى إليها طريق برّى ، فانتقلت فى قارب على النيل . وبينما القارب وسط النهر ، إذ انثقب ، وغمره الماء ، وأيقنت بالغرق . ولكن أنقذنى مركب شراعى خفّ للنجدة ، وكان على بعد بضعة أمتار . ووصلت إلى « العزبة » ، وأسفر التحقيق عن أن الأمر لا يعدو اشتباهاً .

وفى تلك الأيام كادت « الكوليرا » تنقطع عن البلاد ، فيما عدا مدينة « الإسكندرية » . وكانت الصحف الفرنسية المحلية قد شنت غارة شعواء على مصلحة الصحة . واتهمت القائمين عليها من الإنجليز بالتواكل والإهمال . فنشط جمع من كبار المديرين الإنجليز فى المصلحة للعمل ، وسافروا إلى « الإسكندرية » . وتلقيت دعوة من الدكتور « جودمان » للقائه ، فوافيته ، فأرادنى على أن أسافر إلى « الإسكندرية » لمساعدة « الدكتور جارنر Garner » مدير قسم مكافحة الأوبئة ، فأعددت عدة الرحيل إلى هذا الثغر الجميل ، ولم تكن عيناى قد اكتحلت برؤيته من قبل .

٤ – فى « الإسكندرية »

ذهبت – إثر وصولى إلى « الإسكندرية » – للقاء « الدكتور جارنر » ، فأفهمنى بأن العلة فى بقاء «الكوليرا » فى المدينة هي تواصل العدوي من القادمين من قرية « الدخيلة » بالقرب من « المكس» ، وأطلق لى الحرية فيما أتخذ من الوسائل لسد هذه الثغرة .وطلب منى أن تكون الصلة بينى وبينه مباشرة بلا وسيط. فركبت « الترام » إلى « المكس » ثم اكتريت حماراً إلى « الدخيلة » ، وفيها لاقيت « شيخ البلد » وعرفته مهمتى ، وفى يومى نفسه بدأت العمل .

وتبين لى أن سكان القرية زهاء ألف، وأنهم يستقون من ستة آبار محفورة بالقرب من شاطئ البحر ، تستمد من رشح الأمطار ماءها الذي لا يخلو من ملوحة قليلة . فبدأت بتفتيش المنازل ، واستغرق ذلك التفتيش ثلاثة أيام ، فلم أجد إصابات جديدة ؛ وكان هناك جمع غفير من الناقهين من « الكوليرا » ، فعزلتهم فى المستشفى الحكومى .

وبعد ذلك أنشأت ٢٠ مضخة « طلمبة » من النوع المسمى « الحبشى » ؛ لا يزيد عمق الواحدة منها على عشرة أمتار . وطهرت الآبار المكشوفة ، وأقمت عليها خفراء يمنعون استقاء الأهلين منها ، واطمأننت إلى أن الماء المستخرج من المضخات الحبشية فيه كفاية القرية .

وكنت أعود فى المساء إلى « الإسكندرية » ، لأبيت فى مبنى للحكومة ذى أربع طبقات ، فى حى من المدينة يسمونه « قسم أول » على مقربة من شارع سوق الحيط . وشاركنى فى الإقامة يومئذ « الدكتور عبد المجيد محمود »،

لكلٍّ منا حجرة ، وكنا نؤدى أجراً لخفير العمارة ، كى يكنس لنا الحجرتين .

وبعد سبعة أيام من عملى فى الدخيلة ، وبينما أنا واقف أراقب نزح المياه من إحدى الآبار المكشوفة ، والساعة الثالثة بعد الظهر ، إذ أقبل رجل ألمانى السحنة ، جهم الملامح ، وانبرى يسألنى عن سنى ووظيفتى ، وهل أجازت لى وزارة الصحة أن أعمل هنا . فلم أقابل خشونته فى لهجته بمثلها ، وأجبته فى تأدب عما سأل . فقال لى باستصغار : « هل استوثقت من أن ماء المضخات الحبشية كاف لسقيا الأهلين وحاجتهم من الاستحمام وغسل الثياب ؟ وهل تعلم مقدار ما يلزم من الماء لكل شخص؟ » فعجبت لما فى قوله من التحدى، وواجهته بقولى: « وحضرتك من تكون ؟ » فقال : « ألا تعرفنى ؟ » فقلت : « لم أتشرف بمعرفتك بعد » فقال : « ألا تعرف كوتشليخ » Kutchlich مدير صحة الإسكندرية ؟ فإن كنت لا تعرفه فهو معك الآن . وأنا آمرك بأن تتخلى عن العمل ، لأنك لا تصلح له ، وسأعين من هو أولى منك . اترك العمل وارجع إلى الإسكندرية » . وطلب إلى العمال أن يمسكوا عن نزح الآبار ، فأدرت للرجل ظهرى ، وقلت للعمال : « إنى لن أؤدى أجرا لمن يقف عن العمل دقيقة واحدة » . فانصرف الرجل عنى ، وركب حماره وهو يقول : « سوف تندم على ما فعلت أيها الشاب! » وفى آخر النهار قصدت على الفور « جارنر » وأخبرته بما جرى ، فقال : « امض فى عملك » . وبعد يومين دعانى إلى تناول الشاى معه ، فلما لبيت دعوته وجدت « كوتشليخ » بين ضيوفه . ولابد أن « جارنر » تحدث إليه فى شأنى قبل حضورى ، فإن الرجل استقبلنى استقبالا حسناً أزال به ما كان بيننا من سوء التفاهم فى اللقاء الأول .

وأخذت « الكوليرا » تخف وطأتها عن « الإسكندرية » ، ولكنها بقيت متفشية فى « قسم رابع » . وكان مفتش صحته يومئذ « رأفت (بك) » — وهو من أرق من عرفت من الأطباء — وكنت قد أصبحت تابعاً فى العمل للدكتور

« كوتشليخ »، فقدمني « لرأفت (بك) » وأوصاه بي خيراً، فعملنا معا . ومما لاحظته في عملي أن من بين المنازل التي قمت بتبخيرها منزلاً كبيراً تعاقبت الإصابات « بالكوليرا » بين سكانه ، على الرغم مما اتخذ من أسباب التوقي . فصاحبني « كوتشليخ » إليه ، وأعدنا تطهيره ، ولكن الإصابات لم تنقطع ، فقلت « لكوتشليخ » : « ألا يمكن أن يكون الطباخ الذي سبقت إصابته بالكوليرا حاملا « للميكروب » بعد شفائه من إصابته السابقة بالمرض ؟ » وذكرت له أن الدكتور (ساندويث) أستاذ الأمراض الباطنية بمدرسة الطب ، حاضرنا في شأن وباء « الحمى التيفوئيدية » الذي تفشى بين الجنود الإنجليز في « القلعة » واستمرت الإصابات به ، ولم تنقطع حتى عنّ لهم أن يعزلوا الطباخ . فلما فعلوا انقطعت الإصابات . فعقب « كوتشليخ » على ما ذكرته له بأن ذلك غير معقول حدوثه في « الكوليرا » . واتفق بعد محادثتي له بأسبوع أن توفي الطباخ ، فإذا الإصابات تنقطع . ولو أن « كوتشليخ » — وهو بكتريولوجي قدير — طامن من كبريائه، وبحث الأمر على هديِ ما أشرت إليه، لاستبان له ما وصل إليه العلم بعد ذلك بزمن ليس بالقصير ، من إمكان بقاء « مكروبات » بعض الأمراض المعدية كامنة في أجسام من شفوا منها دون أن تظهر عليهم أعراض المرض ، فيصبح هؤلاء الناس منبعا لعدوى الآخرين .

وثمة حادثان كانت « الإسكندرية » مسرحهما أثناء الشهرين اللذين أمضيتهما فيها ، وإني لذاكرهما لما كان لهما في نفسي من أثر غير عابر .

أما الحادث الأول ففيه سر تخصصي في أمراض النساء والولادة . وتفصيل ذلك أنه اتفق لي أن تعرفت بالدكتور « شكري (بك) » وكيل المستشفى الحكومي وهو رجل تركي الأصل ، على جانب كبير من الظرف ، وكان هو والدكتور « عبد المجيد (بك) » يتناولان وجباتهما في مطعم « نيكيتا » في مكان «أتينيوس»

الآن ، وكان مواجها للبحر ، فلم يكن « الكورنيش » قد عمل . وحدث أن دعانى الدكتور «عبد المجيد» لتناول الغداء بهذا المطعم، وفى أثناء تناولنا الطعام أقبل المسيو « نيكيتا » صاحب المطعم فعرفنى « عبد المجيد » به . فلما سمع اسمى قال لى : «ألك صلة بالمرحوم الخواجة ميخائيل محفوظ » ؟ فقلت : « أنا ابنه» . فقال : « يسرنى جداً أن أعلم ذلك ، فقد كان لأبيك أعظم فضل علىّ، لما كنت بالمنصورة . فقد كنت أملك قهوة على شاطئ النيل ، ولأمر ما ساءت أحوالى ، وكنت على وشك الإفلاس لولا معونة أسداها إلىّ » . ثم سألنى : « أين تتناول طعامك فى الإسكندرية ؟ » فقلت : «فى محل (مدام بونار) » . فقال : «وماذا تؤدى ثمنا للوجبة ؟» فقلت: « عشرة قروش » فقال : « هل تسمح بأن تتناول وجباتك عندي بهذا الثمن؟ » قلت : « ذلك يسرنى » فكنت أنا و « عبد المجيد» و « شكرى (بك) » نتناول طعامنا معا فى مطعمه ، ولا يؤدى كل منا إلا عشرة قروش ، على حين أن ثمن الوجبة كان ٢٥ قرشا . وحدث ذات يوم أن تخلف « شكرى (بك) » عن حضور وجبة الغداء ، ولكنه عاد فى المساء وهو مشغول البال ، وسألنى : «هل تساعدنى يا "محفوظ" فى عملية ولادة ؟». فقلت : « إن هذا يطيب لى ، فإنى لم أشاهد حالة ولادة طبيعية أو عسرة حتى اليوم ! » فقال : « أنت تعطى البنج ،وسأقوم أنا بالتوليد » . قلت : « أرجو أن أوفق ». ومضيت معه إلى عيادته ، فوجدت على منضدة العمليات سيدة يظهر أنهم سبق أن حاولوا توليدها « بالجفت » دون مخدّر فلم يوفقوا، فشرعت فى تخديرها ، وطمأنتها ، فقالت : « إنى بين يديك لا أخشى شيئا ، فإن وجهك يبشر بالخير » ؛ وبدأت عملية التوليد ووضع « الجفت » . واستمرت محاولة جذب الرأس ساعتين بلا جدوى، فاستقر الرأي على إجراء التحويل . فطلب منى « شكرى (بك) » أن أتولى أنا البحث عن القدم لإخراجها لأن يدى وذراعى نحيفتان ؛ فاعتذرت بجهلى بالتوليد . فبحث هو وأعوانه عن القدم ، وجذبوها ، فخرج

جسم الجنين ، دون الرأس . فلبثوا ساعة يجذبون الجسم حتى انفصل عند العنق ، وبقى الرأس فى الرحم . فاستقر الرأى على إرسال السيدة إلى المستشفى الحكومى ، وسألتهم : « لماذا لا يدعون طبيباً مختصاً بالولادة للمساعدة ؟ » فأجابوا بأن ليس بين أطباء الإسكندرية الوطنيين أو الأجانب من هو اختصاصى فى الولادة . وفى غد سألت « شكرى (بك) » عن حال السيدة ، فأجابنى بأنها ماتت وفى بطنها رأس الجنين . فكان لهذا النبأ فى نفسى أسوأ الوقع ، لم أتناول فى يومى طعاماً ، ولم أذق فى ليلى نوماً . ووصفوا لى منوماً فتعاطيته ، ولكنى لم أنم . وكانت صورة الجنين المقطوع الرأس تتراءى أمامى لا أستطيع أن أزيحها عن عينى . وأمضيت يومين لا يقر لى فيهما قرار . وفى اليوم الثالث ركعت على ركبتى ، وضرعت إلى الله بحرارة وإيمان أن يذهب عنى ما بى من الكرب ، وأن يوفقنى إلى أن أخصص حياتى لإنقاذ المتعسرات فى الولادة . ولما فرغت من صلاتى أحسست بأن حالتى العصبية عاودها الهدوء ، ونمت ليلتى نوماً عميقاً . فقطعت منذ ذلك اليوم على نفسى عهداً ألا أدخر جهداً فى دراسة الولادة ، وأن أتفرغ لها ما حييت .

وأما الحادث الآخر فهو تجربة قاسية تعرضت لها ، كادت تستدرجنى إلى انزلاق خلقى ، ولكنى نجوت منها بفضل من الله ونعمة .

وذلك أنى كنت عندما ينتهى عملى فى «قسم رابع» أتناول العشاء بمطعم « نيكيتا » ثم أعود إلى المنزل الذى كنا نبيت فيه ، ولكن «عبد المجيد» كان من عادته أن يذهب مع أصدقائه إلى نادى « البارادیزو » Café du Paradis وبعد انتهاء الموسيقى والرقص يعود إلى المنزل نحو الثانية بعد منتصف الليل . وكنت أضطر إلى مغادرة الفراش حين أسمع رنين الجرس ، وأنزل إلى الباب لأفتحه له . وكان ذلك يضايقنى أشد مضايقة . فزين لى « عبد المجيد » أن أذهب معه كل ليلة إلى نادى « البارادیزو » لسماع الموسيقى ، وأنتظر بعد انتهائها فى حجرة المائدة الخضراء حتى

أعود معه . فاستجبت له على كره ، وعلى الأخص لأن بعض اللاعبين كان يقترض منى جنيهين أو ثلاثة ، وقلما رد أحد ما اقترض . وحدث أن سيدة حسناء اشتركت مرة فى اللعب معهم ، وأخذت تجاذبنى حديثها الخلاب . فبعد عودتنا للمنزل سألت « عبد المجيد » عن هذه السيدة ، فأجابنى بأنها فرنسية ، وزوجها من تجار « الإسكندرية » المعروفين ، وأن سمعتها الأخلاقية ليست فوق الشبهة — وفى الليلة التالية تمادت تلك السيدة فى ملاطفتى على نحو جعل الشك يدب فى نفسى ، ووجدتنى أستظرف حديثها ، وأسعى إليه . فتذكرت مثلا كان خالى رحمة الله عليه يردده ، وهو : ابعد عن الشر وقنّى له» أى (اصنع له قناة ينصرف منها) . وهذا المثل شائع بتحريف فيه ، فيقال : « ابعد عن الشر وغنى له » والتعبير الأول أدق دلالة وأوضح مفهوماً . وكانت ملاطفة هذه السيدة حافزاً لى على ألا أرافق « عبد المجيد » فى ذلك النادى ، وآثرت أن أصحو فى الثانية صباحا لأفتح الباب حين يعود رفيقى فى الإقامة ، على أن أتعرض لتجربة خلقية لا أدري مدى احتمالى لها ، ومصيرى فيها . واستفدت من انقطاعى عن النادى أنى لم أعد أفقد نقودى فى مائدة اللعب دون أن ألعب ؛ إذ كان يقترضها منى اللاعبون ولا يؤدونها من بعد .

وبانتهاء « الكوليرا » فى « الإسكندرية » استغنى عن خدمتنا فيها ، فرجعت إلى «القاهرة». وقبيل رجوعى عرفنى الدكتور «عبد المجيد» بالمرحوم الدكتور «عبد السيد (باشا) » ، وكان من مشاهير الأطباء فى الثغر ، فأولم لنا وليمة عظيمة فى منزله بالرمل ، وتوكدت بينى وبينه صداقة كنت كثير الاعتزاز بها .

عام فى "مستشفى السويس"

ما عدت من « الإسكندرية » حتى ذهبت إلى «مصلحة الصحة» وقدمت إلى السير « هوراس بنشنج "Sir Horace Pinching"، » تقريراً فى شأن مهمتى بذلك الثغر .

وكان موعد الامتحان النهائى « لمدرسة الطب » قد أزف ، فمضيت إلى المدرسة واتخذت للامتحان أهبته ، حتى أديته بسلام .

ولما ظهرت النتيجة ، وكنت أول الناجحين ، قيل لنا إن « مصلحة الصحة » ستستدعينا للقاء السير « بنشنج » والاتفاق على الأماكن التى يعين بها كل منا .

على أن الضرورة دعتنى أن أعجل بالسفر « المنصورة » لاتمام عقد البيع لما بقى لنا من الفدادين التى ورثناها . وكانت «مصلحة الصحة» فى أثناء ذلك قد بعثت إلى الناجحين رسائل تدعوهم فيها لمقابلة ولاة الأمور ، فلم أتسلم رسالتى إلا بعد عودتى من «المنصورة»، فتأخرت عن الذهاب إلى المصلحة. ولكنى بمجرد تسلمى الرسالة بادرت بالذهاب فوراً حيث قابلت السير «هوراس » ، فسألنى : « لماذا أبطأت فى الحضور ؟ » فذكرت له السبب ، فقال : « إنى شديد الأسف ، فقد شغلت الأماكن الممتازة بمن حضروا قبلك . وكان بودّى أن أختار لك أحسنها . فأنصح لك أن تنتظر قليلا » . وسكت هنيهة ، ثم قال : « بين يدىّ الآن مكان ما زال شاغراً ، هو الطبيب الثانى (لمستشفى السويس) ، وليس هذا المكان مرغوباً عند الأطباء ، لأن الدكتور "كرزويل Creswell" كبير أطباء المستشفى معروف بالشدة فى معاملة مساعديه ، وفى السنوات الماضية لم يسلم أحد ممن عملوا معه من جزاء أوقعه عليه ، فسجل فى

ملف خدمته » فسارعت أقول : « إنى أرحب بقبول هذا المكان ، بل إنى أوثره على سواه . والسبب فى ذلك أن ميناء السويس طريق للسفن والبواخر الذاهبة إلى الشرق الأقصى أو الآيبة منه ، ولا بد أن ينزل « بالسويس » من ركاب هذه البواخر والسفن من هم مرضى بأمراض نادرة لانعهدها فى « مصر » ، فتتاح لى فرصة الفحص والمشاهدة . كما أن على مقربة من « السويس » مدينة « الاسماعيلية » التى تكثر فيها الإصابة «بالملاريا» ، وبى رغبة فى دراسة هذا المرض». فقال : « إذن تعين فى هذا المكان » . وكتب رسالة إلى « كرزويل » لأقدمها إليه عند وصولى إلى السويس . فأخذت الرسالة منه ، شاكراً له ، وخرجت أطلب من «فهمى» ابن شقيقتى أن يستعين « بوهبة (بك) » فى تعجيل إجراءات التعيين . فلم يمض أسبوع حتى تمت الإجراءات ، واتخذت طريقى مسافراً إلى السويس .

ومدينة «السويس» تقوم على رأس الخليج المسمى باسمها، يفصلها عن شاطئ الخليج متسع كبير من الفضاء . وقد أقامت «شركة قناة السويس» فى مدخل القناة مدينة صغيرة سموها « بورتوفيق » ، أو « تربلين » — الأرض المنبسطة—"terre pleine". ويصل بين «السويس» وهذا الميناء سكة حديدية تسير عليها القطارات مرة كل ثلاث ساعات . والأرض التى أقيمت عليها «بورتوفيق» مرصوفة كلها « بالأسمنت » وتمتد منها إلى داخل الخليج أرصفة عريضة جداً تتسع لإقامة منازل وإنشاء شارع عريض . وعلى ضفتى القناة أقامت الشركة رصيفين عظيمين . وغرست على حافات الأرصفة أشجار « اللبخ » ، وهى تخرج الزهرة الصفراء المسماة « ذقن الباشا » ، فإذا دنا الربيع تساقط زهرها فكسا الأرض ببساط بهيج تفوح منه رائحة زكية .

وقد بنت الشركة على تلك الأرصفة جملة منازل لسكنى موظفيها وجمهور المرشدين الذين يتولون قيادة السفن والبواخر أثناء عبورها القناة . ومعظم هؤلاء

من الأجانب المختلفى الجنسيات . وكان لهم ناد كبير لا يؤذن لغيرهم فى ارتياده .

وكان هنالك يومئذ فندقان، يسمى أحدهما «فندق الكونتننتال» وهو فندق صغير يديره رجل يونانى، وبه مطعم لا بأس به . وفى هذا الفندق يسكن على نفقة الحكومة من يعمل بمستشفى السويس من الأطباء، فاتخذت فيه سكناً لى .

والظاهرة الغريبة فى « السويس » هى ظاهرة المد والجزر ، فى أوان المد يتدفق الماء من فوهة واسعة صنعتها الشركة إلى الأرض الفضاء بين السويس والتر بلين ، فتصبح هذه الأرض بحيرة يمكن أن تسير فيها القوارب ، ويسمع للماء خرير عال أثناء تدفقه بالمد فى اتجاه السويس ، وأثناء انحساره بالجزر راجعاً إلى البحر .

ولما وصلت إلى السويس كان المد يغمر البحيرة ، فنزلت أول الأمر فى فندق « بلفيدير » والماء يحيط به من كل جانب ، إلا ممراً صغيراً لدخول النزلاء وخروجهم . وحين دخلت حجرتى وأطللت من شباكها رأيت الماء يحيط بالفندق وعليه بعض القوارب . وكان القمر ينعكس نوره الفضى البهى على المياه المحيطة بالفندق ؛ ولما استيقظت فى الصباح دهشت جداً إذ وجدت أن الماء قد نضب، وأن القوارب قابعة على الرمل . فلما أحضر الخادم الفطور سألته عن السر فى نضوب الماء بهذا الشكل، فقال لى : « إن السبب فى ذلك هو المد والجزر ، ففى الأسبوعين الأولين للشهر القمرى تغمر الأرض مياه المد فى النهار ، وتنحسر عنها فى الليل ، وفى الأسبوعين الأخيرين يحدث العكس » . وزاد على ذلك قوله : « فى هذه البحيرة غرق جيش فرعون ؛ لما تعقب « بنى إسرائيل » فى خروجهم من مصر ؛ وكان الإسرائيليون قد مروا من هذه الأرض أثناء الجزر . فلما حاول جيش فرعون أن يمر كما مرّوا ، فاجأه المد، وهو فى وسط الأرض ، فأدركه الغرق » .

ولما بلغت الساعة الثامنة صباحاً ، ذهبت إلى المستشفى أنتظر مجىء « كرزويل » ، فلما حضر قدمت إليه رسالة « بنشنج » ، فشرع يشرح لى ما يجب علىّ . وكان فيما قاله إنه قد استؤجرت لى حجرة فى فندق « الكونتيننتال » وإن الحكومة متكفلة بنفقة إقامتى بها مبيتاً وإطعاماً ، وإن عملى غير مقصور على المستشفى ، وإنما يتعداه إلى فحص الركاب الذين ينزلون من السفن التى ترسو فى السويس ، وكذلك من يعودون من محجر السويس فى شبه جزيرة سينا ، وإن هذا هو السبب فى اختيار فندق « الكونتيننتال » لإقامتى ، فهو فى «التربلين » القريبة من الحجر الصحى . وأعلمنى أن فى التربلين مكتباً حكومياً يقوم عليه كاتب اسمه « رشدى » لتسجيل أسماء الداخلين إلى الأراضى المصرية والخارجين منها .

وبدأت العمل بالمستشفى ، فلاحظت أنه لا تكتب للمرضى مشاهدات ، ولا يدوّن سير المرض فى أوراق المشاهدات ، فقمت بسد هذا النقص . ولاحظت أيضاً أن تغييرات العلاج تؤدى شفوياً لـ « مس أربثنوت » Miss Arbuthnot رئيسة التمريض ، وكذلك لـ «طه» كبير الممرضين ، فقمت بتدوينها فى تذاكر المرضى أولا بأول .

وحدث أن كتب « كرزويل » فى ورقة علاج أحد المرضى أن يعطى تحت الجلد لتر محاول ملحى طبيعى ، وأرسلت المذكرة إلى الصيدلية ، ولم يكن بها صيدلى قانونى وإنما كان يقوم بالعمل « ميكانيكى » من الجبل الأسود Montnegro له بعض الخبرة بالصيدلة ، وهو رجل طيب القلب ، يعتز بأنه يتقاضى اثنى عشر جنيهاً فى الشهر ، على حين يتقاضى ملك الجبل الأسود فى الشهر عشرة جنيهات فقط . فمرتبه إذن أكبر من مرتب الملك ! وقرأ الرجل

التذكرة ، فاشتبه عليه الأمر فى تركيب محلول الملح الطبيعى ، فعمد إلى دفتر كان فى جيبه ، فعثر فى الفصل الخاص بالمطهرات على تركيب يسمى المحلول الطبيعى ، فظنه التركيب المقصود ، ولم يفطن إلى أن هذا التركيب هو محلول سليمانى ، واحد فى الألف ، وليس محلول الملح الطبيعى . فأعد لتراً من ذلك المحلول وأرسله إلى غرفة المريض . وطُلب منى أن أقوم بحقن هذا المحلول تحت الجلد ، فتأملت المحلول ، ورأيت أنه ملون بلون أحمر شاحب ، وهو احتياط يتخذونه لتمييز المحاليل المطهرة . فلم أحقن به المريض . وبعد قليل مرّت الرئيسة ، وسألتْ : « هل حُقن المريض بالمحلول ؟ » فأجابها « طه » كبير الممرضين بأنى لم أفعل ، فأرغت وأزبدت . واتفق دخولى حينئذ ، فنبهتنى إلى أن حالة المريض خطرة ، وأن من الواجب الإسراع بعمل الحقنة . ثم أمسكت هى بالحقنة فملأتها بالمحلول ، وهمت أن تحقن المريض . فنبهتها إلى أن السائل محلول السليمانى ، فلم تصدق ، فقلت لها : « إذا مات هذا المريض فإن النيابة سوف تتدخل فى الأمر » فأمسكت عن إعطاء الحقنة ، ونزلت إلى الصيدلى ، وتأكد لها أن السائل محلول السليمانى . فهدأت ثائرتها ، ولم تعد تتدخل فى شئونى بعد ذلك .

وبعد أيام استدعانى « كرزويل » وأخبرنى بأنه على أثر خلاف بين « مصلحة الحجر الصحى » و« مصلحة الصحة » حول اختصاصات كل من المصلحتين قررت الحكومة أن كل قادم من المحجر ولو كان المدير العام نفسه لا مناص له من أن يمر بمكتب الصحة فى « التربلين » ويسجل اسمه فى الدفتر الخاص ، ويعرض نفسه على طبيب الصحة للفحص . ثم قال لى « كرزويل » : سيعود مدير المحجر « السير أرماند روفر » Sir Armand Ruffer فجر غد من محجر سينا ، ولا بد أن يذعن لما يقتضيه القرار الحكومى . وعليك أن تتولى التنفيذ » . فلما صلت السفينة المقلة لمدير المحجر ، ركبتُ زورقاً وذهبت لاستقباله ، ولما قابلته حييته التحية اللائقة بعالم بكتريولوجى مثله شغل وظيفة الأستاذية « بمدرسة

الطب » . ورغبت إليه فى أن يتفضل بزيارتى فى الفندق ، إلى أن يحين موعد ركوبه قطار الصباح . فقبل الدعوة ، وقدمت له فطوراً فاخراً ، وأحضرت الدفتر الخاص بمكتب الصحة ، ليقيد فيه اسمه ، ففعل . ثم رافقته إلى المحطة ، ولبثت معه حتى أذّن القطار بالمسير . وكنت أثناء الفطور طلبت منه أن يحدّثنى عن بحث كان قد أجراه عن بويضات البلهارسيا وعن المكروب السبحى والعنقودى — « الاستريبتوكوك » و « الستافيلوكوك » فى الموميات المصرية ، فسُرَّ كثيراً بأنى اطلعت على هذه البحوث . ولما عدت إلى المستشفى لم يسألنى « كرزويل » عما فعلته ، لأنه كان فى قرارة نفسه لا يقر تعسف مصلحة الصحة . ولكنه سأل الكاتب عما اتخذته من إجراء ، فاطمأن بانتهاء الأمر على هذا الوضع . وقد لاحظت بعد ذلك أن مكانتى عند « كرزويل » قد زادت عما كانت من قبل .

وبعد شهر أو نحوه قلت « لكرزويل » وكانت قد توطدت الصداقة بيننا : « إنى ألاحظ أن المرضى بالرمد لا يعالجون بالمستشفى على الإطلاق مع أنه مستشفى عام » ، فعلّل ذلك بأنه لا يعرف فى الرمد قليلا ولا كثيراً . فاستأذنته فى أن نخصص يومين فى الأسبوع لعيادة خارجية رمدية ، وأن أتولى أنا الفحص والعلاج ، فأذن لى فى ذلك . فلم يمض أسبوع حتى اشتد الإقبال على عيادة الرمد . ومن حسن حظى أنى كنت قد اكتسبت مرانة حسنة فى عمليات الرمد بفضل أستاذى الدكتور « فيشر » عند ما كنت ملتحقاً بقسم الرمد فى قصر العينى . فشرعت أدخل المرضى فى المستشفى ، وأجرى لهم العمليات . وكان كثير منهم مصاباً بالشعرة ، وأجرى له الحلاقون العملية الفظيعة التى كانوا يقومون بها ، وهى وضع جلد الجفن العلوى بين شقّىْ غابة مشقوقة فى الوسط إلى أن يسقط الجلد ، وينقلب الجفن إلى الخارج انقلاباً يشوّه وجه المريض . فجربت فى علاج

مثل هذه الأحوال أن أزيل أثرة الالتحام من الحاجب وأبعد بين حافتى الجرح الإبعاد الكافى لإزالة انقلاب الجفن ، ثم أجرى الجراحة الخاصة بالشعرة على طريقة انجناستاكى Anagnastaki . ومتى تم ذلك أرقع الجرح المتسع الذى تعرّى بشريحة رقيقة من الجلد أنتزعها من ساق المريض. وكانت النتائج مرضية .

فسرّ « كرزويل » جدا ، ورأى ألا يحرم مرضى الرمد خارج المستشفى من العلاج ، فأذن لى فى معالجة مرضى الرمد خارج المستشفى بأجر . وبعد قليل من الزمن طلبت من « كرزويل » أن أعاونه فى عمله الخارجى بلا مقابل ، فوافق بعد تردد . وكانت موافقته فرصة طيبة ، أتاحت لى التدريب على العمل الحر فى منازل المرضى ، وأغلبهم من الإنجليز والفرنسيين والطليان ، وهو أمر فى غاية الأهمية للطبيب المبتدئ .

وبعد فترة اضطر « كرزويل » أن يغيب شهراً فى إجازة ، فترك لى القيام بعمله الخارجى بين الجالية الإنجليزية أثناء غيبته . وكانت هذه الجالية مؤلفة من مائة أسرة ، يعمل أربابها فى « شركة البرقيات الشرقية » ، وعلى رأسهم مستر باين Mr. Payne وكان متزوجاً سيدة سورية متمصرة على جانب عظيم من الثقافة ومكارم الأخلاق ، وهى كريمة « سابا (باشا) » المدير العام للبريد . وكانت تتحدث عن نفسها بأنها مصرية قبطية أرثوذكسية . ومرض الطفل الأكبر لهذه الأسرة ، فعزّ على مستر « باين » أن يستدعينى ، واستدعى طبيب المستشفى الفرنسى ، فأخذ فى علاجه على أنه مصاب بالتهاب الغدة النكفية، فلم يأت الصباح حتى ساءت حالته ، فاستدعتنى والدته دون علم زوجها ، ففحصت الطفل ، وتبين لى أنه مصاب « بالدفتريا » ، فعالجته حتى شفى فى يومين . فكان من أثر ذلك أن أشار مستر « باين » على جميع موظفيه بأن يستدعونى لمرضاهم بدل « كرزويل » أثناء غيابه . وكان « كرزويل » يتقاضى من هذه الشركة ألف جنيه سنويا .

وما مضى أسبوع على غياب « كرزويل » حتى أرسلت مصلحة الصحة الدكتور « هوايت » White لينوب منابه ، وكان شديد التعجرف ، فلم يطب له أن يعهد « كرزويل » إلىّ فى القيام بعمله الخارجي . على أن « هوايت » لم يلبث أن أصيب بالدفتريا ، فاستُدعى له من «القاهرة» أطباء لعلاجه ، وظهر أنه مصاب بتسمم فى الدم فضلا عن الدفتريا ، فتوفى برغم ما بذل الأطباء وما بذلت معهم من عناية . وكانت له شقيقة تعمل رئيسة تمريض بقصر العينى ، فأهدت إلىّ كتاب «الطب الباطنى » تأليف البوت Albutt's System of Medicine رمز تقدير لما عرفته هى من عنايتى بشقيقها الفقيد .

ومما أذكره أنه ، أثناء مقامي فى السويس ، مرت باخرة من بواخر P & O وكان بين ركابها ابن عم للملك الأنجليز ، وكان مصاباً بمرض لا يرجى شفاؤه ، فتوفى والباخرة راسية بالميناء ، فأحضرت جثته إلى المستشفى ، وطلب منى تحنيطها. وقد كنت تعلمت تحنيط الجثث «بالفورمالين» من مصطفى النخاس فراش التشريح بمدرسة الطب ، فقمت بتحنيط الجثة خير قيام ، ووصلت إلى « لندن » فى حالة جيدة . وحين عاد «كرزويل » من إجازته طلب من الجهات المختصة خمسمائة جنيه تضاف إلى حساب المستشفى نظير التحنيط ، وعرض علىّ منها خمسين جنيهاً ، فتأبيت ؛ فاقترح أن يشترى لى بها كتباً ، فرغبت أن تكون هذه الكتب فى الولادة وأمراض النساء ، مما طبع فى « إنجلترا » و« أمريكا ». ولا أنسى أن تلك الكتب كانت أكبر معوان لى فى تكوينى العلمى فيما بعد .

وكذلك أذكر أنه كان من نزلاء فندق « الكونتننتال » الذى أقيم فيه رجل أرلندى هو المستر «أوجستوس وايلد» Augustus Wilde شقيق «أوسكار وايلد» Oscar Wilde الكاتب الإرلندى المعروف . وكان هذا الرجل قنصلا «لإنجلترا» فى البحر الأحمر ، وقد ألف كتاباً ضخماً تناول فيه بلاد « الحبشة » هو إلى

اليوم من أهم المراجع . فلما بلغ السن القانونية وأحيل إلى المعاش ،استقر به المقام فى السويس . وكان يحتسى زجاجة « ويسكى » على الأقل كل يوم ، دون أن تظهر عليه أعراض السكر.فإذا نصح له صديق بالاكتفاء بما شرب، رفع الكأس فى يده ، وقال : « هذه هى الكأس الأولى يا صديقى » ، وربما كانت هى الكأس العشرين . . . . . . وقد طاب لى الجلوس إلى هذا الرجل ، واستمتعت بحديثه ، واستفدت من غزير علمه ، ومن شرح كل شاردة وواردة يصعب علىّ فهمها فى الصحف الإنجليزية .

وبين مَن مروا بالسويس ونزلوا بفندق الكونتننتال طبيب إنجليزى، هو كبير الأطباء لإحدى شركات البواخر ، وكان ضخم الجسم، غريب الأطوار. وقد عرفنى به مستر « وايلد ».وبعد أن مكث بالفندق بضعة أيام قابلنى على حدة ، وقال : إن المستر « وايلد » أثنى على أخلاقى الثناء المستطاب ، وهو لذلك يعرض علىّ أن أتولى القيام بشراء كل ما يلزم لبواخر الشركة من الأدوية والمطهرات ، وأشياء أخرى ذكرها، وأعلمنى أنه هو المكلف أن يزوّد البواخر بها ، وأن قيمة ما يشترى منها يبلغ بضعة آلاف من الجنيهات فى السنة . وعرض علىّ أن أورد هذه الأشياء كلما مرت باخرة بالسويس . أما قوائم الحساب التى أقدمها له ثمناً للمشتريات — وهذه هى بيت القصيد — فعلىّ أن أضاعف الثمن فيها لكل شىء أشتريه، على أن تكون هذه الزيادة مقسومة بينى وبينه كل شهر. فساءنى ذلك منه إلى أبعد حد ، وأبيت أن أذعن له ، فوقع اختياره على غيرى للقيام بهذه المهمة . وانقضت ستة أشهر على هذا الحديث ، وإذا بى أعلم أن تحقيقاً أجرى مع هذا الطبيب فى شأن مشترياته من الأدوية والمطهرات وغيرها، فثبتت عليه التهمة هو وطبيب أجنبى ، أمسك عن ذكر اسمه ، كان يعمل فى « بورسعيد » . .

وبين ما أذكره من أحداث « السويس » ، أن مفتش صحة المدينة غاب

أسبوعاً فى إجازة ، وأنابنى منابه فى علاج مريضين ، أحدهما رجل من العربان ، متوسط الحال ، مصاب بحروق ، فعالجته بمادة كنا نستعملها فى قصر العينى ، وما لبثت الجروح أن التأمت . فلما عاد مفتش الصحة من إجازته ، أديت إليه ما تقاضيت من أجر علاج المريضين ، وهو ستة جنيهات ، فبادر بسؤالى : « ماذا صنعت فى غيار العربى المصاب بحروق ؟ » فأجبت بأنه شفى ولله الحمد . فرفع صوته يقول : « كيف شفى؟ لقد أسأت إلىّ إساءة بالغة ، وأضعت علىّ عشرين جنيهاً على الأقل كان لا بد أن أتقاضاها . أتشفى جروحه بغيار واحد ؟ » فلم يسمع منى جواباً . ونشأ بينى وبينه نفور ؛ وبعد أسبوعين نشرت جريدة « مصر » سطوراً فى مدحى لا أدرى من كتبها من مرضاى الذين كنت أعالجهم بالمجان ، فلم يرق هذا المدح لمفتش الصحة ،واستند إليه فى مؤاخذتى بأنى أعالج مرضى خارج المستشفى ، وشكانى إلى « كرزويل » مطالباً بمجازاتى وتأنيبى . وقرأ « كرزويل » ترجمة السطور التى نشرتها الجريدة ، فلم يجد بها ما يستوجب المؤاخذة ، فأغلظ لمفتش الصحة فى الرد ، مما دعا المفتش أن يسعى فى طلب المصالحة ، ويعتذر مما فرط منه ، وكان وسيطه فى ذلك رجلا ظريفاً هو « برسوم (بك) » كبير كتاب التفتيش ، فقبلت اعتذاره .

وقبل أن أنهى فى مستشفى السويس سنة الامتياز التى يقضيها الأطباء المتخرجون مثلى ، أفضيت إلى « كرزويل » بحاجتى إلى السعى بكل وسيلة ، كى أعمل فى مستشفى قصر العينى ، وإن كان عملى فيه بدون مرتب . فأنا راغب أشد الرغبة فى مواصلة البحث العلمى ، فوعدنى ببذل العون . واتفق أن سافر إلى « القاهرة » بعد قليل ، فانتهز فرصة اجتماعه بالسير « بنشنج » وفاتحه فى أمرى ، فقال له « بنشنج » : « إن " محفوظ " يستحق ترقية استثنائية ،وسأعينه الطبيب الأول لمستشفى بنى سويف » . فحمل إلىّ « كرزويل » ما حسبه بشرى تسرنى ، وأدهشه أنى استقبلتها بعلائم الحزن وخيبة الأمل . واضطررت أن أفضى

إليه بالعهد الذى قطعته على نفسى ، وبنيت عزمى عليه ، وأنا فى « الإسكندرية » من تخصيص حياتى لإنقاذ المتعسرات فى الولادة ، وأن اختيارى كتب الولادة وأمراض النساء التى تفضل بإهدائها إلىّ لم يكن إلا بغية الإعداد لتحقيق ذلك الغرض ، وأظهرت له أسفى لاضطرارى أن أعتذر عن قبول تلك الترقية الاستثنائية التى يعرضها سير «هوراس بنشنج » ، وأنى أوثر عليها العمل فى « مدرسة الطب » على أى نحو يكون ، فذلك هو السلم الذى أرقى به إلى ما أصبو إليه من التخصص فى الولادة . فقال لى « كرزويل » : « وماذا أنت صانع إن أبى « بنشنج " أن يحقق لك مرادك ؟ » فقلت على الفور : « سأستقيل من خدمة الحكومة على كره » . فسكت لحظات ، ثم قال : « هل تخذلنى إذا صارحت « بنشنج" » بما تقول ؟ » فأجبته : « إن أردت أن تحمل كتاب استقالتى إليه ، كتبته لك الآن » .

فقال : « لا داعى لذلك » . وسافر « كرزويل » إلى القاهرة خاصة لهذا الغرض ، وكلم « بنشنج » فيما رغبت فيه ، فوعده خيراً . وبعد ذلك أرسل « كرزويل» رسالة للسير « بنشنج » يستحثه على سرعة نقلى إلى مستشفى قصر العينى ، وأطرانى فى تلك الرسالة أحسن إطراء . ووقعت هذه الرسالة فى يد « فهمى» ابن شقيقتى ، وكان سكرتيراً لأحد المفتشين الإنجليز بمصلحة الصحة — فكتب إلى يقول إن « كرزويل » أثنى علىّ فى رسالته ثناء مستطاباً ، ولكنه (أى فهمى) يعجب كل العجب لأن « كرزويل» ختم الرسالة بجملة لا تتفق مع ما ذكره من المدح ؛ ومفاد الجملة أنه لا يستطيع أن يمتدح أخلاقى وكفايتى فى العمل امتداحاً كبيراً ؛ فعجبت لذلك وطلبت إلى « فهمى » أن يوافينى بنص الرسالة ، فلما وردتنى ظهر لى أن فهمى أخطأ فى فهم ما كتبه « كرزويل» فالمقصود بجملته : “Of Mahfouz’s character, capacity and usefulness, I cannot speak too highly”

أنه « مهما أطنبت فى وصف أخلاق محفوظ وكفايته فى العمل فلن أوفيه حقه » ولكن التبس على «فهمى» ابن أختى الفرق بين too highly, very highly. ولو أن «كرزويل» قال فى كتابه very highly لكان « فهمى » على حق ، ولكنه قال too highly وهذا يغير المعنى تماماً.

ومما أذكره « لكرزويل » أنه بعد سفرى من السويس استقدم ابن أخته لمساعدته فى عمله الخارجى ، وهو طبيب قدير ، وكان متزوجاً. وحدث بعد أربع سنوات أن وضعت زوجته ، وأصابتها حمى نفاس ، وساءت حالتها ، فاتصل بى « كرزويل » تليفونيا لاستطلاع رأيى ، فقلت له : « إنى قادم إلى السويس فى أول قطار » . وتوجهت على الفور ، وبقيت هناك أربعة أيام حتى زال الخطر عن المريضة .

وفى ختام حديثى عن « السويس » أسرد قصة حدثت بعد عشرين سنة من مغادرتى لها . ولهذه القصة علاقة بالكاتب الذى كان يعمل معى فى « بور توفيق » . وهى تؤيد صحة المثل القائل : « افتكرنا القط جانا ينط » ، وكذلك صحة ما يذكرونه فى شأن انتقال الأفكار . حدث أنى لما كنت فى « السويس » استدعيت مرة لفحص نوتى من سفينة رست فى الميناء ، وكان هذا النوتى قد أصيب فى اليوم السابق بقىء وإسهال ، فأقصوه عن الركاب خشية أن يكون مريضاً بالكوليرا . وطلبوا منا عزله فى مستشفى الأمراض المعدية . ففعلنا ذلك . وبعد فحصه أخذتُ عينات من المواد البرازية ، ووضعتها فى حرز متين ، وكلّفت « رشدى » الكاتب الذى يعمل فى مكتب الصحة أن يسافر إلى « القاهرة » ومعه « العينات » ليحملها إلى معمل الصحة لتحليلها .
وكان « رشدى » هذا شابا فى العشرين من عمره ، به شىء من البساطة ، ولم يبارح « السويس » قط ؛ فسره أن يقوم بهذه المهمة ، إذ تتاح له فرصة ظل يحلم بها ، وهى أن يشاهد القاهرة التى سمع بها ولم يرها . وسافر « رشدى »

بقطار الصباح ومعه العينات، ولبثنا ننتظر أن يعود ومعه تقرير (معمل الصحة) فى المساء . وقد عاد وبيده الحرز كما سلمته له ، فسألناه عن التقرير ، فأجاب : Hi ! Ho! تقرير إيه؟ دا حصل فى مصر حكاية فظيعة. فتولانا العجب ثم قال: « هو أنتم ما عرفتوش بالثورة اللى حصلت فى مصر؟ » فقلنا : « ماعلمنا ولا سمعنا » ، فقال : « على كل حال الحمد لله إنى رجعت لأهلى بالسلامة » . وشرع يقص علينا ما كان من أمره حين وصل القطار إلى محطة القاهرة . فقال : « لم يكد الركاب ينزلون من القطار حتى هجم عليه عدد هائل من الناس، وكلٌّ منهم يحمل متاعه . وظل الناس يدفع بعضهم بعضاً ، حتى احتلوا أمكنة القطار جميعاً . فأدركت أن ثورة حدثت ، ما فى ذلك شك ، وأن الناس هاربون يلتمسون النجاة . وأيقنت أن النزول من القطار مجازفة ، فلبدت فى مكانى . وسألت عن القطار العائد إلى السويس ، فقيل لى : إذا كانت معك تذكرة إياب فالزم مكانك ، وهأنذا قد عدت ونجوت بجلدى ! »فاكتفيت بأن أنبته على ما فعل ، وسألته : « لماذا لم تستفسر من عامل التذاكر فى القطار أو من غيره عن حقيقة الأمر ؟ » فأجاب : « قدّرت أن كل من أسأله سينكر ، خشية انتقام الحكومة ، فكل امرىء مشغول بنفسه ! » . ومن حسن الحظ أنه كان قد اتضح بعد سفر « رشدى » فى قطار الصباح أن الإصابة لم تكن بسبب مرض معد ، وإنما كانت بسبب طعام فاسد .

وبعد عشرين سنة من هذا الحادث، وبينما أنا جالس فى عيادتى أستريح بين فحص مريضة وأخرى ، حامت فى ذاكرتى تلك الأيام الخالية بأحداثها وشخصياتها، فقلت لنفسى : « ترى ماذا جرى « لرشدى »؟ أأصبح عاقلا رشيداً أم لازمته سذاجته ؟ وسنحت على فمى ابتسامة، وإذا الممرض يفتح باب الحجرة، ويقول : إن شخصاً اسمه (رشدى) يطلب المقابلة بإلحاح . فقلت له : « دعه يدخل» فأقبل علىّ مبتسماً وهو يقول : « فاكر رشدى وفاكر عينات الكوليرا ؟ فاكر الثورة » فضحكنا

وقلت له : « يا رشدي من العجيب أني كنت أفكر فيك ، في الدقيقة التي دخلت فيها العيادة » . وبعد ذلك أخذ « رشدى » يشرح لى سبب قدومه ، فقال : إن ابنه نال الشهادة الثانوية ، ولم يقبل فى « مدرسة الطب » . فوعدته بأن أعمل على تحقيق رغبته ، ووفِّقت فى تحقيقها له .

ولما انتهى عملى فى « السويس » ، ونقلت إلى « القاهرة » ودّعت أصدقائى ومعارفى ، وبعض من سبق لى علاجهم من المرضى . ومما سرنى أن كثيراً ممن عالجتهم امتدت علاقتهم بى من بعد ، فكانوا يحضرون إلى « القاهرة » خاصة لزيارتى إذا عرض لهم من الأمر ما يتطلب العون .

وفى أثناء مقامى « بالسويس » تعرفت إلى طائفة من « البمبوطية » وهم الذين يتاجرون مع بحارة السفن والبواخر ، يذهبون إليهم فى قوارب صغيرة ، فيبيعون لهم المصنوعات المصرية نظير صناديق فيها « أطقم » أكواب الشاى المصنوعة من الصينى الفاخر . فاشتريت ممن أعرف من هؤلاء « البمبوطية » عشرة « أطقم » بعشرة جنيهات ، كل طقم ٢٤ قطعة ، وكذلك اشتريت عشر علب من المربيات بثمن زهيد ، وسلتين كبيرتين ملوءهما « أبو جلمبو » مشوى من نوع ممتاز ، بستين قرشاً . وحملت معى هذه البضاعة فى قطار الصباح إلى « القاهرة » فتقاسمها أعضاء الأسرة ، وكانوا بها مسرورين . وتقول المنظومة الدارجة على ألسنة العامة :

ادخُل بِشى تنتشى يبقى لكْ فى الدار مقام .
ادخل بلاش [1] تبقى كلاش [2] يستخسروا فيك الكلام .

---

(١) بلاش : بلاشى .
(٢) كلاش : كلا شئ .

فى "مكتب الصحة"

بين « مركز تلا » و « باب الشعرية »

رجعت إلى « القاهرة » ، وكانت تنتظرنى فيها رسالة من « مصلحة الصحة » تنبئنى بأن الوظيفة التى سأعين بها فى « قصر العينى » هى وظيفة « مبنج » أعنى : طبيب تخدير ، وهى وظيفة لا تخلو إلا بعد شهرين ، بإحالة شاغلها الدكتور « أمين نسيم » إلى المعاش . وفى خلال هذين الشهرين أعمل « طبيب بدل » بمصلحة الصحة . وطلب منى أن أسافر على الفور إلى « مركز تلا » لأحل محل « مفتش الصحة » الذى سيغيب أسبوعاً فى إجازة . فقمت فى الحال إلى مركز « تلا » . ولما وصلت إلى « مكتب الصحة » وجدت الكاتب ومعاون الشرطة يصحبان رجلا كسرت ساقه فى عراك بينه وبين جاره ، فطلب منى المعاون أن أفحص المجنى عليه ، وأكتب تقريراً فى حالته . فقمت بفحصه وتجبير ساقه ووضعها فى الجبس ، وكتبت التقرير وذكرت فيه أنه يلزم للمريض علاج شهر ونصف شهر . فقال المعاون : « هذه المدة لا تكفى ، ويجب أن يكون العلاج شهرين على الأقل ، وذلك لمصلحة القضية » . فوافقت على زيادة المدة بحسن نية ، ولكنى علمت من بعد أن مقصد المعاون هو أن تأخذ القضية مجرى خاصا لطول العلاج ، وذلك لمصلحة المجنى عليه . وفى غد قال لى الكاتب إنه تسلم من الرجل أربعين جنيهاً ، حصتى منها عشرة جنيهات نظير وضع الجبس ، والثلاثون الباقية قسمة بين مفتش الصحة والمعاون ووكيل النيابة . وسيتولى المفتش التوزيع عند عودته . وحين عاد مفتش الصحة شرح لى العرف المتبع فى ذلك الوقت ، وقال لى : « إن مركز تلا ياحبيبى يدر على طبيب الصحة ثلاثمائة جنيه كل شهر . وهم بأن

يعطيني الجنيهات العشرة ، فقلت له : « إن وضع الجبس لا يستحق أكثر من خمسة » . فقال : « هذا صحيح ، والخمسة الأخرى نظير الزيادة فى مدة العلاج » . فقلت : « حسبي أجر وضع الجبس » فلم يبد اعتراضاً .

وودعت الطبيب والكاتب ، ورجعت إلى « القاهرة » . وبعد وصولى بثلاثة أيام وردنى كتاب من مصلحة الصحة بتكليفى العمل فى « مكتب الصحة » بقسم باب الشعرية مدة شهر . فتوجهت إلى مكتب الصحة ؛ وبدأت العمل . وكنت فى أوقات الفراغ أعمد إلى الأوامر الإدارية ، فأدرسها درساً دقيقاً . وتعلمت فى هذا الشهر كيف تسير الأعمال فى « مكاتب الصحة » . وحقا إنها كانت فى ذلك العهد تمرح فى فوضى ضاربة الأطناب . وما أكثر ما صادفنى من الغرائب أثناء العمل فى « مكتب صحة باب الشعرية » ، ولكنى مقتصر على وصف ما جرى يوم تلقيت أمراً من « المصلحة » بأن أتولى معاينة محل « بوظة » ، وهى ذلك الشراب المتخذ من عجين الحنطة المخبوز ، تمهيداً للترخيص بأن يزاول المحل عمله .

كان محل « البوظة » فى حى « الواسعة » ، وهو المقر المعيَّن للمومسات ، فشعرت بأشد الاشمئزاز ، لاضطرارى أن أجوز بذلك الحى الفاسد المهين .

ولكنى لم أجد من الإذعان للأمر مناصاً ؛ فطلبت من الكاتب لائحة المواصفات اللازم توافرها لمحلات « البوظة » واطلعت عليها : ثم استدعيت مركبة خيل ، فحضرتْ مركبة مضعضعة ، يجرها حصانان هزيلان ، كأن كلا منهما هيكل عظمى ، وقد اعتلاها حوذى حطمته السنون . فأخذت مكانى فيها ، ورغبت إلى الكاتب أن يجلس بجانبي ، فاستحى ، وأبى إلا أن يجلس على الكرسى أمامى . وركب الساعى فى ردائه الحكومى بجانب الحوذى متأبطاً محفظة من الجلد . وسارت بنا المركبة فى بطء . وملكنى الشعور بأننا

نطأ أرضاً نجسة ، فزوَّرت سرّتى . وجلست على طرف المعقد ، وأنا عابس الوجه ، مقطب الجبين . ولم نكد نشارف « الواسعة » حتّى لمحت على جانبى الشارع بعض النسوة اللواتى يحترفن البغاء ، وقد أفرطن فى التبرج ،وأسرفن فى تلطيخ وجوههن بالأحمر والأبيض ، وكحّلن أعينهن على نحو ظاهر . ولبسن من الثياب ما لا يكاد يستر من أجسادهن إلا القليل . ومنهن من يفترشن عتبات المنازل أو يجلسن على كراسى فى الطريق .

ويظهر أن علائم الاستياء كانت ظاهرة على وجهى بشكل ملحوظ ، مما دعا إحدى هؤلاء النساء عند ما مرت المركبة بالقرب منها أن تصفق بيديها وتقول : « عينى يا عينى يا رسمى » . فضحك من حولها من النسوة مصفقات . وبعد قليل سمعت أخرى تضحك بصوت عال وتقول : « كدا كدا يا مكشّر ؟ » وظلت هذه المناوشات تلاحقنا حتّى وصلنا إلى المنزل الذى فيه محل « البوظة » ؛ فاستقبلنى عند الباب رجلان من وسطاء السوء . فعرّفهما الكاتب بالمهمة التى قدمنا من أجلها ، فقال أحدهما : « يجب أن تقابل السيدة " العايقة " أولا لتتم المعاينة بحضورها » . أما « العايقة » أو « الباترونة » فهى السيدة التى تتولى رياسة العمل لجماعة من المومسات . ودخلنا المنزل ، ووقفنا عند حجرة « الباترونة » وكانت مقفلة ؛ ورأيت مكتوباً على بابها : « وزيّناها للناظرين » . وبعد قليل فُتحَ لنا الباب ، فإذا سيدة أمام مرآة تستكمل زينتها ، وتصل بين حاجبيها بخطوط ، هى مسحوق أسود ، فيبدو شكلها بشعاً . ورافقتنا هذه السيدة فى طوافنا بسائر أنحاء « البوظة » . ورأيت فى طريقى « دولابا » صوانا مقفلا مكتوباً عليه : « وما ننزّله إلا بقدر معلوم » . فرابنى أمر هذا (الدولاب) وقدّرت أنه مستودع لأنواع المخدرات من الحشيش والأفيون والمعاجين ، فقلت : « افتحوه » ، فتصدّت لى السيدة تقول : « لامؤاخذة يامون شير (يا عزيزى) .. هل عند سعادتك أمر من النيابة بالتفتيش ؟ » فقلت : « لا » . فقالت :

« إذن فمهمتك مقصورة على تبين المواصفات فى محل البوظة ». وهمس الكاتب فى أذنى بأن ما تقوله السيدة هو التعليمات القانونية . وتمت المعاينة ، ورجعت أدراجى فى المركبة مشيعاً من النسوة فى الطريق بمثل ما استقبلت به من تعليقات شنيعة يعفّ عن ذكرها اللسان .

وفى مكتب الصحة أعددت التقرير ، ذاكراً أوجه النقص التى تبينتها خلال المعاينة . فقال لى الكاتب : « أتظن أن المصلحة ستمتنع عن إعطاء الترخيص حين يصل إليها تقريرك ؟ » فقلت : « وهل فى ذلك شك ؟ » قال : « سترى » وما مضى يومان ، حتى ورد الترخيص فى طى كتاب تطلب فيه المصلحة تنبيه أصحاب « البوظة » إلى القيام بتنفيذ الملاحظات . فقال لى الكاتب : « ألم نكن نحن أولى بالجنيهات العشرة التى أعطاها أصحاب المحل لإدارة التراخيص ، لكى يظفروا بموافقتها ، مهما تكن حال المواصفات ؟ »

من هذا الحادث وأمثاله ، عرفت كيف تسير الأمور فى مصلحة الصحة ، وأى فساد كان يتفشى فيها وقتئذ . وأيقنت أنى ما كنت أصلح لمسايرة تلك الأحوال ، فأمضيت أيامى فى « مكتب الصحة » على كره . وما حضر « المفتش » بعد انتهاء إجازته ، حتى أسلمت إليه ما كان فى عهدتى من العمل ، وحمدت الله على أن يسر لى الالتحاق بمستشفى قصر العينى

وبعد سنة أو نحوها زارنى فى المستشفى « مفتش الصحة » فى مكتب باب الشعرية ، طلباً لمساعدتى فى قبول إحدى المريضات بالمستشفى . وهو رجل طروب ، عرف الدنيا وعرف كيف يساير الأمور . وفيما نحن نتحدث قال لى : « أتذكر يا محفوظ حكاية محل (البوظة) ؟ » فقلت : « أذكر » وضحكنا . فقال : « لقد حضرت إلى المكتب السيدة صاحبة المحل لتتسلم الترخيص ، فنبهتها إلى ما يجب إنفاذه من المواصفات ، وسلمتها الترخيص ، وقلت لها : « إن

الطبيب الذى عاين المحل استاء من كتابة الآيات القرآنية . فهذا وضعٌ لها فى غير موضعها اللائق بها » فشهقت وقالت : « والنبى يا سيدى هو بردو قال لى كده يوميها ، وكان كلامه زى فتافيت السكر ، وطالع حلو من فمه . والنبى أنا كنت ناويه أقدم له كأس كونياك (.V.S.O.P) أو ويسكى من أبوقطارة ، لكن خفت منه ، حاكم لقيته لسّه خام، ولا دخلش دنيا » !

عود إلى «قصر العينى»

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

نعم ، عدت إلى قصر العينى ، وبهذا التلاقى ، بدأت حياتى العلمية التى كانت حلمى السعيد .

وعلى أثر وصولى لاقيت الدكتور « كيتنج » ، فإذا هو مستاء أشد الاستياء لأن مصلحة الصحة ألحقتنى بوظيفة « مبنج » — طبيب تخدير — دون أن تستطلع رأيه ؛ فاعتذرت بأنه لا ذنب لى فى ذلك . فقال : « هذا صحيح ، ولكن كيف تأبى ما عرضه عليك "بنشنج" ، وهو منصب الطبيب الأول فى مستشفى (بنى سويف) ، وتؤثر على ذلك وظيفة (مبنج) ، وستبقى بها طول عمرك ، كما بقى أمين نسيم قبلك» وتخرج بمعاش عشرة جنيهات ! »
فقلت : « إن السر فى تفضيلى العمل بمستشفى « قصر العينى » هو أن أكون على اتصال بأساتذتى فى « مدرسة الطب » ، فأزداد علماً وخبرة ، وذلك خير من أن أدفن نفسى فى مصلحة الصحة » . فضحك ، وقال : « قدم نفسك إلى "مادن "و " ملتون" » وانبسطت لى أساريره وهو يودعنى ، وقد بدا منه أنه استشعر نحوى شيئاً من الرضا والارتياح .

وإنى لأحمل أجمل الذكرى لهاتين السنتين اللتين أمضيتهما فى وظيفة طبيب التخدير ، فقد اكتسبت خلالهما من المعلومات ما كان لى خير معين فيما بعد . ولم أجد فى عملى صعوبة منذ بدأته ، فإنى كنت قد أتقنت التخدير فى مستشفى السويس ، وكانت طريقتى تقع موقع الرضا من « مادن »

و « ملتون » . وفى أثناء مراقبتى للجراحات التى تجرى أمامى استفدت كثيراً مما عرفته من الأخطاء التى كان يسقط فيها الجراحون البادئون .

وبعد بضعة أشهر من مقامى فى مستشفى قصر العينى طلب منى كل من « مادن » و « ملتون » على حدة ، أن أكون مساعده فى عيادته الخاصة . وقدمنى « ملتون لشقيقه «هربرت ملتون » — الجراح الشهير — فرغب إلى أن أريه كيفية التخدير بحقن «الستوفايين » فى النخاع الشوكى ،وكنت أنا أسبق من زاولها فى مصر . فسر بها ، لسهولتها ، ولطول المدة التى يبقى المريض بها مخدراً ، ولأنها لا تنجم عنها مضاعفات أثناء فترة النقه إذا أحسن استعمالها . ولقد أفادتنى أعظم الفائدة مساعدتى « لملتون » و « مادن » فى عيادتيهما الخاصتين ، وكنت أبذل أكبر الجهد لإرضائهما ، وأتولى عمل الغيارات للمرضى فى منازلهم بعد إجراء الجراحات ؛ فاستوثقت بينى وبين الرجلين صداقة .

وذات يوم دعانى « مادن » إلى العشاء فى منزله ، وقدمنى إلى زوجته . ومما يسرنى ذكره أنه كان من حظى بعد خمس عشرة سنة أن أقوم بعمل جراحة كبيرة لتلك السيدة كللت بالنجاح . وقد كتب لى «مادن» يومئذ رسالة شكر أرسلها لى مع صينية من الفضة قال فيها : « إنى لم أكن أدرى وأنا ألقنك مبادئ الجراحة أنى سأحظى شخصيا بنتيجة ما علمتك » . وبعد تناول ذلك العشاء مع « مادن » أمضيت معه سهرة تشعب بنا الحديث فيها ، فسألته : « لماذا لا تجرون عمليات لأمراض النساء أو الولادة فى قصر العينى » ؟ فأجاب : « لأن المصريين لا يبيحون لأنفسهم أن يدخلوا نساءهم فى مستشفى يعمل فيه طلبة وأطباء من الشبان لإجراء هذه العمليات » . فقلت له : « هل بذلت محاولة ؟ » فأجاب : « إنه منذ تأسيس مدرسة الطب بذلت محاولات جمة كانت تنتهى دائماً بالإخفاق ، وقد سبق لنا أن خصصنا حجرة لأمراض النساء وأخرى للولادة ، فلم

تدخل كلتا الحجرتين مريضة واحدة . فلم نملك إلا إغلاقهما مرة بعد مرة » .
فسألته : « ولماذا لا تُنشأ عيادة خارجية لأمراض النساء ؟» فأجاب : « جرّبنا ذلك أيضاً ، فأخفقنا » . وسكتنا مليا ؛ ثم قلت فى استحياء : « خطر ببالى أن أجرّب إنشاء عيادة خارجية لأمراض النساء فى قصر العينى ، وإنى مستعد أن أعمل بها ساعة فى الصباح ، بين الثامنة والتاسعة ، ثم أقوم بعملى فى التخدير . ولن يكون فى ذلك تعطيل ، فالعمليات لا تبدأ إلا فى التاسعة » . فقال : « أخشى ألاّ يوافق "كيتنج" ، ولكنى أعدك ببذل الجهد » . ومضى على هذا الحديث أسبوع ، ودعانى « كيتنج » إلى مكتبه ، وأنبأنى بأنه يأذن لى فى إنشاء عيادة خارجية لأمراض النساء ، مدة شهرين ، على سبيل التجربة ، فإن لم يظهر الإقبال عليها فستُغلق . فقلت له : « إنى واثق أن الله سيأخذ بيدى » . فقال : « سنرى » . وما لبث أن نادى « عبد البارى » معاون المستشفى ، وطلب إليه اتخاذ الإجراءات اللازمة . وفى غد فتحت العيادة . وقد تبين لى أنى كنت والنجاح على ميعاد ، فما انقضى الشهران اللذان حددهما « كيتنج » ، حتى اكتظت العيادة بالوافدات عليها من المريضات ، فزارنى فيها « كيتنج » وقال لى : « أهنئك يا محفوظ بالنجاح . لا تصعد إلى قاعة العمليات حتى تنجز عملك فى هذه العيادة ، وليحل محلك فى التخدير أحد أطباء الامتياز إلى أن تفرغ » .

وفى هذه المدة كنت قد أتممت دراسة الكتب التى اشتراها لى « كرزويل » فى أمراض النساء والولادة ، فجعلت أطبق العلم على العمل . وشرعت المريضات بأمراض نسوية يطلبن دخول المستشفى لإجراء الجراحات ، فاقتضى ذلك تخصيص حجرتين للولادة وأمراض النساء . وكانت الأسرّة فيهما قسمة بين « مادن » و « ملتون » ، وكانا — كشأن أهل الحرفة الواحدة — يتظاهران بالمودة ، وينطويان

على عداء ، فعانيت أشد العناء فى تقسيم الجراحات بينهما ، وبخاصة جراحات شق البطن .

وتطور عملى فى المستشفى أثناء قيامى بوظيفة التخدير ، فإن « مادن » كان له مساعد رسمى هو الدكتور « فرنسيس بادير » ، و « ملتون » كان مساعده الرسمى الدكتور « على (بك) لبيب » ، فطلب « مادن » و « ملتون » أن أعمل فى قسميهما مساعداً ثانياً لكل منهما ، إذ أن المريضات بأمراض نسوية يتكاثر وفودهن على المستشفى . فأذن « كيتنج » بذلك . وعلى أثر قيامى بعمل المساعد ، أحيلت علىّ الجراحات البسيطة بادىء بدء . ثم أحيلت علىّ جراحات البطن لأقوم بإجرائها وحدى ، فمارست الكثير من جراحات تفتيت الحصيات وسائر الجراحات العامة . وكان لذلك أثر بالغ فى تكوينى . وإن اشتغالى بالعمل مع « مادن » و « ملتون » لم يعلّمنى الجراحة فحسب ، وإنما علمنى فوق ذلك تقدير المسئوليات ، والإقدام على تحمُّلها ، كما أتاح لى أن أقوم بتدريب الطلاب فى قسمىْ الجراحة .

وفى هاتين السنتين أتقنت عمليات الولادة العسرة . وكنت قبل إجراء كل عملية أطالع بعناية ما جاء فى وصفها فى كتب الولادة وأمراض النساء ، وأطبق ما قرأته على ما أشاهده بدقة . وكثير من الفضل فيما نلت من خبرة بشئون الولادة ، مردُّه إلى أنى اتفقت مع مفتشى صحة أقسام القاهرة أن يستدعونى فى الولادات العسرة التى يُدْعون لها ، إذا أرادوا ، على ألا أطالبهم نظير ذلك بأجر ، حتى بدل الانتقال . فرحبوا بذلك كل الترحيب . وقد واظبت على هذا خمس عشرة سنة ، أجريت خلالها نحو ألفى ولادة فى المنازل ، ولست أغالى حين أقول إنى لم أكن أبيت فى منزلى أثناء تلك الحقبة أكثر من يومين فى الأسبوع . وقد تحدثت عن هذا الموضوع فى فصل آخر من هذه المذكرات ، لأنى أعتبره حجر الزاوية الذى بنيت عليه ما أحرزته فى الولادات العسرة من نجاح .

وفى أعقاب السنة الثانية من عملى فى المستشفى ، عنّ لى أن أكتب إلى مجلة «اللانست» The Lancet وهى أشهر المجلات الطبية الإنجليزية ، مقالا عنوانه : « عامان فى الولادة وأمراض النساء بمصر » . وقد أعاننى « مادن » فى تحريره عوناً كريماً .

وفى هذا المقال شرحت ما صادفنى من الحالات النادرة ، ونوهت بما يتعلق منها بالمناطق الحارة ، وذكرت أن عدد الجراحات النسوية والولادة بلغ مائة فى السنة الأولى ، ومائتين وخمسين فى السنة الثانية . فلما نُشر ملخص مقالى فى تلك المجلة ، ظفر بتقدير طيب ممن اطلعوا عليه .

وفوجئت بأن « كيتنج » يدعونى إلى مكتبه . وحين دخلت عليه وقف لى ، وهز يدى وهو يصافحنى هزاً شديداً ، وقال : « إنك وفقت أكبر التوفيق فيما أخفق فيه غيرك من إنشاء قسم للولادة وأمراض النساء بمستشفى قصر العينى » . فشكرت له ، فقال : « سأكلفك تدريس أمراض النساء والولادة » فظهر السرور على وجهى ، وكررت له شكرى ، وقلت : « سأطلب منك شيئاً يهمنى » فظن أنى سأطلب زيادة مرتبى ، فقال : « سأعمل على تحقيق ما تريد » وشد ما كانت دهشته حين سمعنى أقول له : « إنى أشعر بنقص فى إتقان الولادة ، ومرجع ذلك إلى شيئين : الأول : أنى لم أتلق أصولها من أساتذة مختصين ، والآخر أنى لم أشاهد مستشفيات الولادة فى أوربا ، ولم أعرف الطرق المتبعة فيها . ولا بد من سفرى فى بعثة طويلة لتدارك ذلك النقص » . فقال : « إن سفرك يهدد قسم الولادة الذى أفلحت فى إنشائه بالاضمحلال . ولا تضمن أن يساعدك الحظ فى إعادته كما هو الآن بعد رجوعك من السفر » . فقلت : « لا مناص إذن من تعيين أحد كبار المختصين أستاذاً للولادة ، كى أتلقى عنه الطرق الحديثة » . فأطرق لحظة ، ثم رفع رأسه يقول : « سأعرض

الأمر على مجلس مدرسة الطب » . ودعا المجلس إلى الانعقاد ، وعرض عليه الاقتراح على أنه اقتراحه هو ، فلم يذكر اسمى ، وقد عارض فيه « مادن » و « ملتون » كما كنت أتوقع ، فهما يخشيان ما يكون لذلك من أثر سيئ فى عملهما فى البيئة الأوروبية فى القاهرة . ولكن الاقتراح ظفر بموافقة المجلس ، ونشر إعلان الوظيفة فى ثلاث من المجلات العلمية الإنجليزية ، فاطلع عليه الدكتور « روى دوبين » Roy Dobbin ، وهو يومئذ مساعد العميد فى « مستشفى الروتندا » Rotunda فى « دبلن » ، وهو أشهر معاهد الولادة فى العالم . وكان « دوبين » قد قرأ مقالتى فى مجلة « اللانست » فرأى أن فى قبول تلك الوظيفة مجالا واسعاً للقيام بعمل عظيم . ومن الطريف أن اسمى كتب فى آخر المقالة محرفاً من « محفوظ » إلى « ماليفورز » لخطأ فى هجاء الحروف ، فلما حضر « دوبين » ، ولاقيته ، حيانى بهذا الاسم المحرَّف الذى قرأه فى ذيل المقال ، فضحكت !

وبمجىء « دوبين » انقطعت صلتى بالتخدير وبقسمى الجراحة كل الانقطاع . وشرع الرجل يُدخل على قسم الولادة وأمراض النساء ضروباً من التنظيم والتحسين . وما عمد إليه فى هذا القسم عمَّ نفعه أقسام المستشفى الأخرى ، فهو الذى بدأ استعمال القفازات فى الجراحات ، وهو الذى ألزم باتخاذ القناع فى الجراحات والولادات الطبيعية والعسرة على السواء ، ولم يكن يأذن للممرضين والممرضات فى دخول قاعة الولادة أو قاعة الجراحات إلا إذا كانوا ملثَّمين . وقد أصرَّ على أن يخلع الجراحون ملابسهم ويرتدوا ثياباً معقمة . وكان يبدأ العمل فى العيادة الخارجية من الثامنة صباحاً إلى الواحدة بعد الظهر ، وكان يلازم العيادة وأنا معه طول هذه المدة ، وكذلك ألزم بكتابة المشاهدات للمريضات فى العيادة الخارجية . واتخذ وسائل شتى لحفظ النظام ، وتوفير الراحة ، فكان يدخل العيادة الخارجية من الباب الخلفى للمستشفى ، وهو الباب الذى تدخل منه المريضات ، فيرتبهن فى صفوف طولية ، ويمنع العسكر من ضربهن عند

الازدحام . وخصص لهن فى حجر الانتظار مقاعد كافية . وجعل دخولهن للكشف بالترتيب ؛ وحظر أن يصرف الدواء فى زجاجة بغير سدادة .

وانقضى شهران ، دون أن يحضر «دوبين» الولادات العسرة فى المستشفى ، فقد كنت أنفرد بالقيام بها . فلما حضر لمشاهدة إحدى الحالات قال بمسمع من الطلبة : « إنى أعتبرك أكفأ فى عمليات الولادة العسرة من كل مولد فى مستشفى الروتندا » . وعلمت أنه كرر مثل هذا القول فى مجلس المدرسة .

وقد تعلمت من « دوبين » الشيء الكثير فيما يتعلق بالولادة الطبيعية ، ومن ذلك ألا أفحص من تدخل للولادة إلا مرتين : مرة عند دخولها ، والأخرى عند انفجار كيس المياه ، وألا أضجر بمضى الوقت فى الانتظار ، فأساس النجاح الصبر وهدوء البال .

وكان « دوبين » يشيع فى مجلس المدرسة أنى جراح موهوب ، وكان يُسمى العملية الخاصة التى كنت أزاولها بشد الأربطة المبرومة لمعالجة ميل الرحم إلى الوراء : « عملية نجيب محفوظ » . وكذلك سمى العملية التى كنت أزاولها فى علاج التمزق التام للعجان : « عملية نجيب محفوظ لخياطة العجان » وكان يكتب كلا من هاتين العمليتين بهذه التسمية فى القائمة التى تعلق بباب قاعة العمليات .

وغرضى الأول من ذكر هذا كله أن أوجه أنظار رؤساء الأقسام إلى ما يجب عليهم نحو مساعديهم من ضروب العون والتشجيع .

وفيما أذكره من تشجيع « دوبين » لى ، وأنا بعد شاب فى أول الطريق ، أننا عندما بدأنا العمل معاً ، كانت النواسير البولية كثيرة الحدوث ، ومعظمها من الأنواع التى ينعدم فيها جزء كبير من المثانة والمهبل . وكانت النتائج أول الأمر غير مرضية بحال . وقد ترك لى « دوبين » كل عمليات النواسير ، ولكنه

حرص على أن يكتب هو تاريخ المرض والطريقة التى أتبعها فى الجراحات ، والنتائج التى تنتهى إليها ، وذلك بخطه فى دفاتر خاصة ، لاتزال محفوظة فى قسم الولادة إلى اليوم، وعلى غلاف كل دفتر رسم ساخر « كاريكاتورى » لى . وكان يحسن هذا النوع من الرسم . وفى أحد هذه الدفاتر وقد أهداه إلىّ جعل صورتى فى هيئة فارس مدجج بالسلاح ، شاهر سيفه ، على ظهر جواد ، وتحت الصورة مكتوب : « نجيب محفوظ يعلن الحرب على النواسير البولية » ! .

وفى الوقت الذى بدأت فيه بممارسة جراحة النواسير البولية ، كان الجراحون فى أوربا وأمريكا لا يحصلون على نتائج مرضية فى الجراحات التى يقومون بها لشفاء هذه النواسير ، مما دعا جراحاً من أكبر جراحى إنجلترا أن يقول فى كتاب ألفه : إن شفاء ناسور بولى عند امرأة بجراحة يعد من الحوادث النادرة الحصول .

ولكننا فى مصر مع المرانة وابتكار الأساليب الجراحية الموفقة تسنى لنا الحصول على نتائج باهرة . وفى ألف جراحة قمت بإجرائها بقصر العينى حصلت على شفاء تام فيها كلها . وقد عملت أفلاماً ملونة لجراحات هذه النواسير ، وعرضتها فى جامعات : لندن وأكسفورد وأدنبرة وفينا وجنيف وفريبورج واوزان. وحضر إلى القاهرة ذات مرة أكبر جراح نسوى فى « فرنسا » فدعاه « دوبين » لزيارة المستشفى ، وكان بصحبتهما سير « هيوليت » Sir Hugh Lett نائب عميد كلية الجراحين بإنجلترا . وكنت أنا أبحث ناسورين ، أحدهما انعدمت فيه قبوة المهبل وقاع المثانة ، والآخر حالبى مهبلى محوط بأنسجة ندبية ، فطلبا منى أن يشتركا فى فحص المريضتين ، وسألانى بعد الفحص : « هل تقصد حقا إجراء جراحة لشفاء هذين الناسورين ؟ » فأجاب الدكتور « دوبين » بالنيابة عنى ، قائلاً : « نعم ، ومن طريق المهبل أيضاً » ، فضحكا ، وقالا :

« ذلك محال » . فعرض عليهما « دوبين » أن يحضرا إجراء الجراحتين ، فحضرا ، وشفيت المريضتان .

ولما أعلنت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ ، تطوع « دوبين » فى الجيش ، وفى غيبته عملت على أن يكون ملجأ اللقطاء الذى بُنى لذكرى « اللادى كرومر » مستشفى للولادة ، وأنشأت فيه قسماً للتوليد الخارجى ورعاية الأطفال . وسأفرد لذلك فصلا خاصا من هذه المذكرات .

الرحلة الأولى إلى أوربا

كانت بى رغبة شديدة فى السفر إلى « أوربا » ، كى أشاهد ما قرأت من وصف معالمها ، ولكى أزور مستشفياتها ، وأتعرف إلى الأساتذة الأعلام الذين كنا نطالع كتبهم . ولكن كان يعوزنى المال لتحقيق تلك الرغبة . وفى سنة ١٩٠٨ بعد أربع سنوات من التحاقى بقصر العينى كنت قد ادخرت مائة وعشرين جنيهاً من مرتبى الصغير وعملى الخارجى الضئيل ، فأزمعت السفر ، وأسعدنى الحظ بالحصول على إجازة شهرين .

وكان أول ما عملته أن اتخذت الوسيلة لتسهيل اتصالى بكبار الأطباء الأوربيين . فطفت بالمشاهير من الأطباء الأجانب الذين تعمر بهم مستشفيات الجاليات الأجنبية ، وبأساتذتى الإنجليز بمدرسة الطب ، فتزودت من هؤلاء وهؤلاء برسائل توصية بى إلى من يعرفون من أطباء « أوربا » الأعلام . وقد كتب هذه الرسائل المستر «مادن» Madden أستاذ الجراحة ، و«هربرت ملتون» Herbert Milton الجراح الإنجليزى الشهير ، والدكتور «بروسار» Brossard كبير أطباء المستشفى الفرنسى الذى أتحفنى برسالتين واحدة إلى « بوتزى » Pozzi والأخرى إلى « فور » Faure ، وممن كتبوا يوصون بى إلى أطباء النمسا الدكتور « فون دتيل » Von Dittel نجل الجراح النمسوى المشهور بهذا الاسم ، وكان من الأطباء الذين استدعاهم « الخديو عباس » للعمل فى المستشفى الذى أنشأه قريباً من قصر « عابدين » وأطلق عليه اسمه . أما توصيته بى فقد تضمنتها رسالتان واحدة إلى « ڤرتايم » Wertheim والثانية إلى « شاوتا » Chauta وكل منهما رئيس مستشفى للولادة فى « فيينا » ..

ولكى أكون على بينة من المشاهد الأوربية الهامة ، اشتريت الكتب السياحية التى كان يصدرها « بديكر » Baedeker ، ويضمنها معلومات وافية فيما يتعلق بالمتاحف والمستشفيات والفنادق والمواصلات ، فدرستها دراسة وافية ، حتى كدت أحفظ ما فيها عن ظهر قلب . ثم اتصلت بشركة « كوك » Cook ، للوقوف على نفقات السفر والإقامة ، فتبين لى أن المال الذى ادخرته فيه كفاية ، بل إن فيه فضلة لارتياد دور التمثيل وما إليها من ضروب الملاهى . فانتويت أن أجعل فترة الصباح لزيارة المستشفيات ، وما بعد الظهر لزيارة المتاحف وما إليها . وساعات السهرة لارتياد المسارح . وحددت مواعيدى يوماً فيوماً ، بل ساعة فساعة .

وبعد أن عينت يوم سفرى ، حدث أمر لم يكن فى حسبانى ، أخر سفرى أسبوعين ، وإنى لذاكره لطرافته . وبيان ذلك أنى فى الليلة السابقة ليوم السفر كنت أنا واثنان من رفاقى الأطباء جلوساً فى قاعة الاستقبال بمستشفى قصر العينى ، فدار بيننا الحديث حول السفر ، فقلت : « إنى ماض غداً إلى »بورسعيد« لأبحر منها على إحدى بواخر شركة P. &O. وإنى قد حددت مواعيد زياراتى للمستشفيات ومعالم البلاد الأوربية التى أحل بها بغاية الدقة » فقال لى أحد رفاقى : « نرجو ألا يكون هناك ما يعوقك » فقلت : « لا أخشى أن يعوقنى شيء ». فقال : « ربما طرأ ما يعطلك » . فقلت : « لا يعطلنى إلا أن تنكسر رجلى أو يفاجئنى مرض » . وسكت قليلا . ثم تابعت قولى ضاحكاً : « أو أن تأتينى أوامر عليا للبقاء لعلاج الحرم الخديوى المصون » . فقهقهنا جميعاً . وقال أحد الرفيقين : « يا حبيبى القصر محرم على المصريين ، وعشمك فيه عشم إبليس فى الجنة ! » .

وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث ، سمعنا جلبة بباب القاعة التى كنا فيها ، فقمت أستوضح السبب ، فألفيت على الأرض مريضة تفوح منها

الرائحة الكريهة التى تصعد من المصابات بالنواسير البولية ، فسألت البواب ، وكان رجلا طيب القلب : « ما خطب هذه السيدة ؟ » فأجاب بأنها قدمت على البوابة ، وقالت إنها من أهل «قنا » ، وقد أصيبت على أثر الولادة بناسور بولى ، فذهبت إلى المستشفى الأميرى ، فبعث بها إلى أسيوط . وأجريت لها ثلاث جراحات دون جدوى ، فأخرجوها ، وقالوا لها : اذهبى إلى القاهرة عند " نجيب محفوظ " » فى قصر العينى » ، إذ بلغ أسماعهم أن لى مرانة بجراحة النواسير . فقطعت المرأة الطريق مشياً على قدميها تستجدى من المارة ما يمسك رمقها ، حتى وصلت إلى المنيا ، وقصدت المستشفى الأميرى ، فلما فحصها الأطباء قالوا لها : « اذهبى إلى قصر العينى بالقاهرة ، فواصلت سيرها أربعة أشهر ، حتى بلغت باب قصر العينى ، وسألت البواب عنى ، فقال لها : « إنه مسافر غداً » . فوقفت تندب سوء بختها ، وجعلت تنتحب حتى سقطت على الأرض مغمى عليها . ولما أتم البواب قوله ، حملتُ السيدة المريضة معه حتى وضعناها على النقالة ، وأدخلناها « قسم الحريم » ، ثم ذهبت إلى التليفون ، واستدعيت السيدة « زينب جباره » الحكيمة ، وطلبت منها إعداد هذه المريضة للفحص ؛ ولما فحصتها وجدتها صالحة للعملية فطلبت تحضيرها للجراحة غداً ، ثم نزلت إلى رفيقىّ الطبيبين اللذين كانا معى فى قاعة الاستقبال ، فسألانى : « ماذا فعلت ؟ » فقلت : « سأؤجل سفرى أسبوعين لأجرى الجراحة لهذه السيدة المسكينة ، فقد أشفقت عليها ، لما لقيتْه من مشقة فى وصولها إلى المستشفى » فقالا لى : « هذه غفلة منك . لماذا لا تترك المريضة فى المستشفى تأكل وتشرب ، حتى تعود من سفرك فتجرى لها الجراحة ؟ » فقلت لهما : « لا تطاوعنى نفسى أن أطيل انتظارها » . ثم ذهبت إلى شركة « كوك » Cook لتغيير موعد السفر ، فلم تمانع .

وفى الغد قمت بإجراء الجراحة ، وبقيت أسبوعين حتى أرفع الغرز بنفسى

واتضح لى بعد رفعها أن المريضة تم لها الشفاء . وقبل سفرى بيوم كنت أمرّ بالمرضى ، فسمعت تلك المريضة تقول للحكيمة : « مش تدلونى على الحكيم اللى عمل لى العملية علشان أقول له : « كتّر الله خيرك » ؛ فقالت لها الحكيمة : « ما هو هو اللى بيفوت عليك كل يوم » . فقالت : « بقى هوَّ الشاب الصغير اللى شنبه لسه ما خطّش ؟ » فأجابتها : « أيوه هوَّ » فقالت : « انتو فاكرينى عبيطة ؟ » فقالوا : « لأ هو حقيقى اللى عمل لك العملية » . فلما وقفتُ عندها فى اليوم التالى حدقت فى وجهى باستغراب وقالت : « ما اسم الكريم ؟ » : فقلت « اسمى نجيب » . فقالت : « وما اسم والدتك يا سيدى ؟ » فقلت : « مريم » فقالت : « روح يا نجيب يا ابن مريم ، ربنا يكافئك عنى ، حادعى لك دعوة مستجابة إن شاء الله : « ربنا يجعل فى وشك جوهرة ، وفى فمك سكرة» . فسرتنى هذه الدعوة سروراً عظيماً ، واغرورقت عينى بالدموع ، وحرصت طول حياتى على أن يكون وجهى طلقاً ولسانى حلواً فى مخاطبة الناس ، تحقيقاً لدعوة تلك السيدة المسكينة التى عبرت بدعوتها تلك عن شعور الرضا وعرفان الجميل .

وبعد ذلك سافرت إلى « فيينا » ، وتوجهت إلى مستشفى النساء الذى يعمل فيه «ڤرتايم» Wertheim ، وقدمت إلى « سكرتيرته » رسالة التوصية التى أعطانيها « فون ديتل » Von Dittel ، فقالت لى : «إن "ڤرتايم" كان فى إجازة مدة شهر ، وقد حضر اليوم لحسن حظك . وسأطلعه على الرسالة . ولك أن تحضر غداً ، فسيجرى جراحته الخاصة ، ويمكنك أن تشاهده وهو يجريها » . فحمدت لله أن ساق لى هذه السيدة المريضة التى أخرت سفرى أسبوعين ، ولولا ذلك لفاتنى أهم غرض للسفر إلى « فيينا » ، وهو مشاهدة الجراحة الخاصة التى يقوم بها « ڤرتايم » ، إذ كان خلال هذين الأسبوعين فى إجازته .

ولا مندوحة لى من القول بأنى وجدت « ڤرتايم » مع أنه من النوابغ المبتكرين

أقل مهارة فى قيامه بالجراحات من كثير من مساعديه . وقد كانت أخلاقه فى معاملة المرضى ظاهرة الشذوذ ، أما « شاوتا » Schauta فقد شهدته مرحاً ظريفاً . والعجيب أنه مع سمنته المفرطة وقصر أصابعه كان فائق المهارة ، وبخاصة فى جراحته لاستئصال الرحم من المهبل فى أحوال سرطان العنق .

وفى « فرنسا » حقق « بوتزى » Pozzi ظنى به، وإن كانت قاعة الجراحة التى يعمل بها قاعة ضيقة فى الطبقة الأرضية، لاتليق بجراح عظيم مثله . أما « فور » Faure و «تيسيه» Tessier فقد كانا فى غاية البراعة والكفاية، ولكنى لاحظت عليهما أنهما يتسرعان فى إجراء الجراحات تسرعاً لا يناسب حالة المريضات . وقد تعلمت كثيراً مما شاهدته .

وقبل أن أسافر إلى « لندرة » عرجت على مدينة « نابولى » لما سمعته من جمال الخليج الذى يقع عليه ميناؤها ، ولأتبين صحة التناقض الذى جاء فى المثل الإنجليزى المشهور : « شاهد خليج نابولى ثم مت » ، ذلك المثل الذى أضاف إليه بعضهم : « ثم مت من الروائح الكريهة » . والحق أنى شهدت منظراً خلاباً لم تقع على مثله عينى من قبل حين شارفت السفينة التى كنت مسافراً بها « خليج نابولى » ، وكنت على ظهر السفينة أرقب الخليج فى استمتاع . ولما حللت بالمدينة ، قصدت فى المساء مسرح الأوبرا ، سيراً على قدمى ، فمررت فى طريقى بسوق السمك ، فزكمت أنفى رائحة كريهة جعلتنى أعدو حتى أبارح السوق ، فأدركت مغزى الجملة التى أضيفت إلى المثل الإنجليزى .

وفى الليلة التالية ، كنت بالفندق أتناول عشائى ، فمر بى أحد السياح ، وسألنى : « هل ترغب فى الصعود إلى قمة بركان « فيزوف ؟ » Vesovus فإن عدداً كبيراً من نزلاء الفندق اتفقوا مع شركة « كوك » على القيام بهذه الرحلة نظير جنيه واحد من كل مشترك » . فقبلت الاشتراك ، وكانت الرفقة خمسة

وعشرين ، فركبنا السيارة الحافلة « الأوتوبوس » ، ثم ركبنا القطار الجبلى إلى منتصف الارتفاع ، فأخبرنا الدليل بأن نصف الارتفاع الباقى نصعده على ظهور الخيل ، فامتنع من الرفقة كثير . وكنت مع الصاعدين . وكان الطريق ضيقاً لا يتسع إلا لراكب صاعد وآخر هابط . وأمام كل جواد دليل من الأمام ودليل من الخلف . وعلى مقربة من القمة نزلنا عن ظهور الخيل ، وقيل لنا : إن بيننا وبين القمة عشرين متراً نصعدها جذباً بالحبال ، فلم يقبل ذلك إلا اثنان ، كنت أحدهما ، والثانى طبيب من جنوب أمريكا ، فارتبطنا بحبال يجذبها أناس واقفون على القمة . ثم سرنا بعد ذلك على الأقدام فى أرض مرحلة . ولما بلغنا قمة « فيزوف » لم نجد ما يستحق الذكر ، إلا تلك الغازات الكبريتية التى تنبعث من الفوهة ، وهبطنا على نحو ما صعدنا ، وكانت الخيل فى هبوطها أسرع منها فى صعودها ، لا تكاد تطيع الدليل .

وفى غد أقلتنا السفينة إلى « مرسيليا » . وكان محدداً لقيام الباخرة الساعة الثامنة مساء ، ولكننا صعدنا إليها فى الساعة الخامسة ؛ وبعد صعودنا بقليل بدأ بركان « فيزوف » ثورته العارمة التى انهارت فيها فوهته بتمامها ، ومات بسببها ثمانون ألفاً من السكان . وكان دوى البركان قويا مفزعاً ؛ وساد الظلام بما غشى الجو من الدخان والتراب ؛ وكانت الحمم المصهورة التى يقذف بها البركان ، تصعد إلى علو شاهق وينعكس ضوؤها على مياه الخليج التى صارت أشبه بكتلة من النيران المتأججة ، وثارت أمواج البحر ثوراناً شديداً ، ولكن الباخرة استطاعت أن تجتاز الميناء بسلام . وقد أرقت فى تلك الليلة أرقاً شديداً، لما أحسست به من الانزعاج . ولما واتانى النوم كانت أحلامى مفزعة . وفى اليوم التالى أقيمت فى قاعة الاستقبال فى السفينة حفلة شكر لله على سلامتنا من ثورة ذلك البركان ، وعلى أن تلك الثورة لم تحدث ونحن على قمته ، أو عند صعودنا إليها ، أو نزولنا منها .

أما الفترة التى أمضيتها فى مستشفيات « إنجلترا » فكانت ممتعة حقاً ، وقد أفدت منها أيما إفادة . والجراح الذى استرعى نظرى بوجه خاص هو «بلاندساتون» Bland Sutton ، وقد دعانى أن أساعده فى جراحة كان هو الوحيد الذى يقوم بها فى ذلك العهد ، وهى جراحة الاستئصال غير الكامل للرحم المصاب بأورام ليفية . ولم نكن فى تلك الأيام نضع قناعاً يحجب الأنف والفم بل نكتفى بأن نغطى الرأس بقلنسوة ، فلما شق « بلاند ساتون » البطن واستخرج الرحم ، بدت على وجهى أمارات التردد ، فسألنى فى ذلك ، فقلت : « لا شىء » فقال : « يظهر لى أنك تضمر شيئاً » . فقلت : « يلوح لى أنه بجانب الأورام الليفية التى يستأصل الرحم بسببها حمل فى الشهر الأول أو الثانى » فقال : « أشك فى ذلك » وأعاد الفحص ، وأخيراً قال : « الأوفق ألا نستأصل الرحم من قبيل الاحتياط ، لنُعطى المريضة فرصة الشك فى التشخيص » ، وخاط البطن .

وبعد أربع وعشرين سنة — أعنى سنة ١٩٣٢ — أقام الاتحاد البريطانى الطبى حفلا عظيماً لمرور مائة سنة على تأسيسه . وأرسلت الإدارة إلى كلية الطب فى مصر تطلب منها اشتراكى بإلقاء محاضرة من المحاضرات الرئيسية الثلاث التى تقرر أن تلقى فى قسم أمراض النساء ، وهى تدعونى أن أنزل ضيفاً عليها . فلما عرض الأمر علىّ استجبت له ، وعددت ذلك شرفاً يجب ألا يفوت كليتنا المصرية . وبذلت جهداً جباراً فى إعداد محاضرة موضوعها تمزق الرحم الحامل . وسافرت بها إلى « لندرة » وألقيتها ، فلقيت من التقدير حظا عظيماً . وقد نشرتها مجلة أمراض النساء Journal of Gynrecology & Obstetrics فى صفحتها الرئيسية ، واقتبست منها بعض المجلات الإنجليزية . ولما ظهرت الكتب الطبية فى أمراض النساء فى تلك السنة نقلت بعض محتوياتها ، واستعانت ببعض الصور التى كانت قد نشرتها تلك المجلة . وقد أخبرنى الدكتور « دوبين » Dobbin

بعد عودته من إجازته السنوية أن هذه المحاضرة كانت حديث البيئات الطبية فى « لندرة » مدة شهر كامل .

وبعد انتهاء الجلسة التى ألقيت فيها المحاضرة ، توجهت مع الدكتور « على (باشا) إبراهيم » — وكان مندوب « الجامعة المصرية» فى ذلك الاحتفال—إلى الفندق الذى نزلنا فيه . وبينما نحن جالسان أقبل وفد من المصريات اللاتى يتعلمن فى « إنجلترا » ، وعلى رأسهن « الآنسة حبيبة عويس » فهنأننى بما لقيته المحاضرة من استحسان. وقلن إنDame Louise Mac Illroy رئيسة المعهد الطبي الذى يدرسن به قالت لهن تعقيباً على المحاضرة: « يجب أن تذهبالطالبات الإنجليزيات إلى مصر للدراسة ، لا أن تحضر المصريات إلى معاهد « لندرة » . . . »

ولما أقام الدكتور « حافظ (باشا) عفيفى » سفير مصر هنالك حفل تكريم لى دعا إليه أساطين الطب الإنجليز ، شاء أن يزيد فى الحفاوة بى ، فقال للضيوف : « إن للدكتور محفوظ فضلا علىّ، فقد كنت أعمل طبيب امتياز عنده فى قسم الولادة بمصر » .

وبمناسبة هذه المحاضرة أقام « السيركومينز باركلى» Sir Comyns Berkeley رئيس قسم أمراض النساء فى المؤتمر حفل عشاء دعا إليه كبار أطباء أمراض النساء ، وكنت ضيف الشرف فيه ، فأخبرنى يومئذ « السير كومينز » بأن السير «بلاند ساتون» Bland Sutton شيخ جراحى إنجلترا طلب أن ترسل إليه الدعوة لحضور حفل العشاء ، على الرغم من أنه فى الخامسة والثمانين ، ولا يقبل دعوات للعشاء، وقد حضر . وبعد انتهاء الحفل ، خرجت مع « السير كومينز »، و « السير بلاند ساتون » إلى الشرفة ، فقال « ساتون » موجها الحديث إلى « السير كومينز » Sir Comyns :

« منذ أربعة وعشرين عاماً حضر” محفوظ“ إلى (لندرة) لزيارة مستشفياتها

وزارنى فى المستشفى ، وقدم لى رسالة توصية من تلميذى " ملتون" الجراح الشهير بمصر ، يطلب منى أن أسمح لمحفوظ بمشاهدة جراحاتى . ولإكراماً " لملتون" طلبت من" محفوظ " أن يساعدنى فى الجراحات التى أجريها مدة إقامته . وبينما كان معى فى جراحة استئصال لرحم مصاب بأورام ليفية ، لاحظ هو وجود حمل فى الشهر الأول أو الثانى بجانب الأورام الليفية ، ووجه نظرى إلى ذلك، فامتنعت عن استئصال الرحم. ويسرنى أن أذكر أن هذه السيدة المريضة وضعت مولوداً ذكراً بعد سبعة شهور ، وأن الأورام الليفية تلاشت فى مدة النفاس. وكثيراً ما كنت أذكر ذلك فى محاضراتى للطلبة ، إذ كانت هذه أول حالة صادفت فيها ضمور الأورام الليفية بل زوالها أحيانا مدة النفاس » .

ولم يبق مما أذكره أثناء سفرتى الأولى إلى البلاد الأوربية ، إلا أننى بعد أن زرت « باريس » وترددت على مستشفياتها ، أزمعت العودة إلى « مصر » . وقبل السفر بيومين هاجمتنى حمى ، وبلغت درجة حرارتى ٤١ ، ولم يكن معى من النقود إلا أجرة الفندق ومصاريف السفر إلى مرسيليا ، للعودة منها إلى الوطن بتذكرة السفر التى اشتريتها قبلا من شركة البواخر . فحرت فى أمرى ، وتذكرت قول الشاعر :

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد   كالسيف عرى متناه عن الخلل

ولكن فضل الله غمرنى ، فقد انقشعت عنى الحمى فى المساء ، وعجلت بالسفر إلى «مرسيليا» وزرت «شاتو ديف» Château d' If الذى سجن فيه «إدمون دانت» Edmond Dante فى رواية « الكونت دى مونت كريستو » التى كتبها «ألكسندر ديماس» Alexandre Dumas .

ثم أقلتنى الباخرة إلى الوطن العزيز .

في ميدان العمل الحر

ربما سبق إلى ظن الذين يعيشون في العصر الحاضر أننا حين خرجنا إلى ميدان العمل الحر ، بعد أن نلنا إجازة الطب ، وجدنا مجال العمل منفسحاً أمامنا ، وأن الشهرة هطلت علينا من حيث لا نحتسب . وليس لهذا الظن نصيب من الحق ، فالواقع أن الأمر كان على العكس . ولا أنسى حكمة قالها لى فى تلك الأيام زميلى الجراح الكبير «(على باشا) إبراهيم» ، وهى : «الجو قاتم يا "محفوظ"، وعلينا أن نشق طريقنا بأيدينا، وإلاّ ضعنا» . ففى العهد الذى تخرجنا فيه ، لم يكن المصرى يثق بأخيه المصرى ، أو يؤمن بكفايته فى العمل ، وكان الطبيب الأجنبي موثوقاً به ، مرموقاً بعين الاحترام ، مهما تكن درجته من الكفاية ، ما دامت جنسيته غير مصرية .

والبيئة الراقية كانت يومئذ تتألف من طوائف ثلاث : طائفة الجاليات من البلاد الغربية ، وطائفة المتمصرين الذين نزحوا من البلاد الشرقية ، وبخاصة لبنان ، وقد احتل هؤلاء معظم المناصب الكبيرة فى المصالح الحكومية ، وطائفة الأثرياء من أصحاب الضياع ، وأغلبهم من سلالة الأتراك والجركس والأكراد والمماليك الذين حكموا «مصر» زمناً مديداً ، وأذاقوا أهلها الويل ، واستولوا على خيراتها ومرافقها . فلم يبق فى أيدى المواطنين المصريين من أرضهم إلا ما اشتراه بعضهم من الحكومة عند تصفية «الدائرة السنية» . وهذه الطوائف الثلاث كانت تنظر إلى المصريين نظرة ازدراء ، ولا تراهم أهلا لغير التافه من الأعمال .

وقد حدثني الدكتور « سعد (بك) الخادم » ، أنه كان يعالج سيدة مثرية تقطن « حلوان » ، فتحسنت صحتها على يديه ، ويوماً زارتها سيدة تركية ، فقالت لها : « كيف تكونين مريضة يا حبيبتي ، ولا تستدعين الدكتور " فوكيه " ؟ Fouquet فقالت : « طيب نندهله » . ولما حضر الدكتور « سعد (بك) الخادم » رغبت إليه أن يشترك معه الدكتور « فوكيه » في الفحص ، فاستدعاه لها . ولما حضر طلب من السيدة خلع ثيابها ، فترددت قليلا ، فنزع عنها الثياب في عنف ، وأسمعها توبيخاً قارصاً ، وقدموا له قدحاً من القهوة ، فرده باشمئزاز . وفي أثناء عودته بقطار حلوان انهال عليه الدكتور « الخادم » سبّا ولعناً باللغة الفرنسية ، وكان يتقنها . فما كان جواب الدكتور «فوكيه » إلا أن قال له : « أنت شاب ، لا تفهم عقلية هذه البيئة ، وسترى غداً أن أهل المريضة يكفّرن عن دعوتك . ويطلبرن مني أن أتولى العلاج » . وقد تحقق ما توقعه الدكتور « فوكيه » ، فلم يُستدع الدكتور « الخادم » لعلاج تلك السيدة من بعد .

ولم يكن عدد الأطباء الأجانب في تلك الأيام بالقليل ، وكان بينهم أطباء مهرة أكفاء ، ولكن أغلبهم كانوا من الجهل بمكان ، ومنهم كثرة من المتطببين الذين يمارسون المهنة دون أن تكون بيدهم مؤهلات رسمية ، وكانت الامتيازات الأجنبية تحميهم ، وتشل سلطة الحكومة إذا أرادت منعهم من العمل .

وأذكر أني يوم قصدت « مصلحة الصحة » أستخرج تصريحاً لي بمزاولة العمل الحر ، دخلت مكتب «الدكتور جودمان» Goodman فرحب بي ، وتحدث معي فيما سبق لي الاشتراك فيه من مكافحة الكوليرا . وبينما نحن نتحدث دخل المكتب رجل يوناني بصحبة « القواس » الساعي الرسمي لقنصلية « اليونان » ، وطلب تصريحاً بالعمل : وقدم شهادة من جامعة أمريكية محترمة ، فأجلسه الدكتور « جودمان » وشرع يكلمه بالإنجليزية ، فإذا هو لا يفهم كلمة واحدة

فامتنع « جودمان » من إعطاء التصريح ، وأيقن أن الشهادة مزورة ، وفيما بعد علمت أن القنصلية اليونانية تدخلت فى الأمر ، واضطرت « مصلحة الصحة » أن تعطى التصريح لذلك الرجل ، على الرغم من يقينها أنه ليس بطبيب يطمأن إليه .

وهنالك سبب رئيسى لتدهور سمعة الطبيب المصرى فى الوقت الذى تخرجنا فيه ، وذلك أنه لما أسست « مدرسة الطب » سنة ١٨٢٧ كانت هناك عقبة كبيرة ، هى لغة التعليم . فالأساتذة كلهم أجانب ، والطلبة من أبناء « الأزهر » فلم يكن بد من الاستعانة بالمترجمين ليقوموا بالقاء المحاضرات باللغة العربية . وكان متولى الترجمة « عنحورى » تُترجم له المحاضرات من الفرنسية إلى الطليانية التى كان يتقنها ، ثم يقوم هو بترجمتها إلى اللغة العربية .

وقد تكونت من هؤلاء الطلبة نواة طيبة من العلماء ، أرسلوا فى بعثات علمية إلى فرنسا ورجعوا منها وقد نالوا من العلم حظاً وافراً ، ونبغ من بينهم عدد كبير تولوا التعليم فى المدرسة ، منهم « محمد على (بك) البقلى » و « أحمد (بك) الرشيدى » و « محمد (بك) الشافعى » و « النبراوى (بك) » و « الهراوى » و « السكرى (بك) » و « السبكى (بك) » و « عيسى (باشا) حمدى » و « محمد (باشا) الدرى » و « عثمان (باشا) غالب » و « إبراهيم (باشا) حسن » و « شكرى (باشا) » و « طلعت (باشا) » ، ومعهم جمع من مشاهير العلماء الأجانب ، مثل « جريسنجر » Gressenger مكتشف دودة الأنكلستوما ، و « بلهارس » Bilharz الذى اكتشف دودة البلهارسيا سنة ١٨٥١ ، وكانت مدة الدراسة ست سنوات . وظهرت عشرات من الكتب الطبية باللغة العربية ، ولكن معظمها لم يتعد الطبعة الأولى ، وصدرت مجلة باللغة العربية اسمها « اليعسوب الطبى » لبثت بضع سنين . وتخرج فى المدرسة أفواج من الأطباء خلال سبعين سنة . ولكن عدد النوابغ من الأطباء أخذ يتناقص على الأيام ، منهم من يتوفى ومنهم من يبلغ سن التقاعد ، ولم يخلفهم من يستطيع الاضطلاع بمهمة التعليم ، لانقطاع

البعثات العلمية . ولم يكن المتخرجون يتقنون لغة أجنبية تتيح لهم أن يتابعوا التقدم العلمى ، حتى إن إجراءات التخدير ومضادات العفونة ووسائل التعقيم لم تتبع فى المستشفى إلا بعد سنين طوال . فانحدرت المدرسة وقل فيها عدد الطلبة حتى كاد أمرها ينتهى إلى الإغلاق .

لهذا كله فقد الأهلون ثقتهم بالطبيب المصرى ، فكان علينا نحن النشء الجديد من الأطباء أن نعمل على كسب ثقة الجمهور ، وأن يكافح كل منا كفاحاً مريراً فى مجال تخصصه . وقد نجح الكثير منا فيما سعوا إليه ، ووفقوا أكبر توفيق ، ومنهم من بلغ القمة .

ولقد اضطررت عند ما بدأت العمل الحر أن أنشئ عيادة فى حى وطنى ، هو « باب البحر » ، وأن أجعل عملى فيها مجاناً . ولبثت أعمل ستة أشهر لا أتقاضى شيئاً يذكر . وأكثر من كن يتوافدن على عيادتى بادئ بدء من طبقة الخدم ، فكن ينقلن أنباء نجاحى فى علاجهن إلى الأسر التى يخدمنها . وعلى مر الأيام أخذت عيادتى تستقبل المريضات من الأسر الميسورة .

ولا أنكر أن حسن الحظ كان له — إلى جانب الجهد واليقظة — أثر كبير فيما أصبت من نجاح .

* * *

والنقص الكبير الذى كنا نشعر به نحن الأطباء الناشئين أن « القاهرة » و « الإسكندرية » كانتا خاليتين تماماً من المستشفيات الأهلية غير الحكومية ، على حين كانت الجاليات كلها تتمتع بامتياز كبير ، هو أنه كان لمعظمها مستشفيات عظيمة يديرها أطباء أجانب ، ويقوم بالتمريض بها ممرضات أجنبيات حائزات للمؤهل الفنى . فكان هناك المستشفى الفرنسى ، والمستشفى الإيطالى ،

والمستشفى اليونانى ، والمستشفى الألمانى (دياكونيس) والمستشفى النمساوى (كتشنر فيما بعد) وغير ذلك كثير من المستشفيات الخاصة .

فلجأت أنا والمرحومان : الدكتور «إبراهيم فهمى المنياوى (باشا) » والدكتور « إسكندر فهمى (بك) جرجاوى إلى الجمعية الخيرية القبطية ، وكان يرأسها فى ذلك الحين » جرجس (باشا) أنطون ». وبينّا له النقص الذى يعانيه المرضى المصريون عند ما يصابون بأمراض تستوجب الإقامة بمستشفى ، وذلك لعدم وجود مستشفى وطنى . ولما عرض الأمر على مجلس الجمعية قررت بناء مستشفى كبير . وأظهر جرجس (باشا) ومعاونوه من أعضاء الجمعية همة مشكورة ، وقاموا ببناء المستشفى القبطى . وقد حمد الناس للجمعية أن جعلت لهذا المستشفى صفة قومية ، لا تفرقة فيها بين فقير وفقير ، فعالجت المرضى على اختلاف نحلهم وتعدد أجناسهم ومللهم . وكما قال رئيس الجمعية فى حفل افتتاحه إن المستشفى خيرى عام ، وإن تسميته بالمستشفى القبطى ، لم تكن إلا نسبة للجمعية التى أنشأته . وقد تم بناؤه وإعداده فى سنة ١٩٢٦ ، وبلغت نفقات بنائه وتأثيثه سبعين ألف جنيه . ثم أضيف إليه طبقتان أخريان ، وأنشئ قسم للولادة منفصل عن بقية الأقسام بلغت تكاليف بنائه ثلاثين ألف جنيه ، وبلغ عدة الأسرّة ٢٥٠ سريراً موزعة بين الدرجات الأولى ، والثانية ، والثالثة التى يعالج المرضى بها مجاناً .

وبعد افتتاح المستشفى القبطى بسنوات عدة بدأت تظهر مستشفيات وطنية أخرى بمصر والإسكندرية ، مثل مستشفى المواساة بالإسكندرية ومستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية بالعجوزة ، وتلتهما مستشفيات أخرى عامة وخاصة .

* * *

وسأسرد بعض ما وعت الذاكرة من حوادث فى ميدان الكفاح :

الحادثة الأولى تتعلق براقصة مصرية اشتهرت بفنها وجمالها ، ومما يحكى فى شأنها ، أنها كانت تخرج للنزهة فى الجزيرة كل يوم ، فى مركبة خيل رمادية اللون. والحوذى يلبس حلة رمادية ، وهى أيضاً فى ثوب رمادى ، وعند قدميها كلب مصبوغ بذلك اللون . وكانت تبدل اللون الموحد بين حين وحين . وقد مرضت هذه السيدة بالسيلان ، وامتدت العدوى إلى البرقَين ، وكونت خراجاً فى « البريتون الحوضى » فدخلت المستشفى الفرنسى ، ففتحوا لها خراج الحوض من المهبل ، فأصابوا المستقيم خطأً بثقب فى الجدار الخلفى ، حدث منه ناسور شرجى مهبلى . وحاولوا أن يفتحوا البوقين من المهبل أيضاً ، فأصيبت المثانة ، وتكون ناسور مثانى مهبلى . وبعد أن أنفقت السيدة نصف ثروتها ، خرجت من المستشفى الفرنسى ، ودخلت المستشفى الإيطالى ، فحاولوا سد الناسور البولى ، واستعملوا خيوطاً من أمعاء دود القز . الذى لا يمتص . ومن الغريب أنهم قطعوا الغرز فى مستوى الجرح المهبلى ، وتركوا العُقَد . وبدلا من أن تشفى المريضة حدث التهاب بريتونى عام استوجب شق البطن . ولسوء حظ المريضة كان الشق فوق جزء من الأمعاء ملتصق بجدار البطن ، فنشأ عنه ناسور بين الأمعاء والبطن . وفى هذه الأثناء كانت السيدة قد فقدت كل ما كانت تدخر ، لانقطاعها عن العمل ، فباعت أثاث منزلها لتحصل على القوت ، ولم يعد لها ما كانت مشهورة به من جمال وأخيراً طردت من مسكنها لعجزها عن أداء كرائه ، وارتمت بين الحياة والموت على الطريق ، فلما عثر بها شرطى الدورية أرسلها إلى المحافظة ، فنقلت منها إلى قصر العينى . وهنالك فحصتها ، وفحصها معى الدكتور « دوبين » فقال : « ما رأيك يا محفوظ ؟ » قلت : « نعالج التسمم الدموى أولا ، وبعد ذلك نرى ما يمكن عمله للنواسير الثلاثة » . ولما تحسنت حالها وأمكن فحصها جيداً بالمنظار المهبلى وجدنا أن أطراف غرز دودة القز قصيرة جدا ،

وليس من السهل استخراجها بسبب تغطية أطرافها بالأزرار الحبيبية ، ولا يتيسر العثور على الأطراف إلا باللمس بالأصابع ، وفى ذلك خطر وخز الأنامل . وما عسى أن يحدثه من نقل عدوى التسمم . فسألنى « دوبين » : « هل تتطوع بالقيام بذلك مع ما فيه من الخطر؟ » وكنت أنا الوحيد فى القسم الذى يعمل فى جراحة النواسير . فقلت : « بكل سرور » . فتفرس فى وجهى معجباً . وبدأت العمل ، فقمت أولا باستخراج العقد ، ولقيت ما لقيت من مشقة . ودنا اليوم الذى قررنا إجراء الجراحة فيه ، فذهبنا إلى سرير المريضة ، وجلس « دوبين » على كرسى بجوارها ، وأوضح لها الخطر الذى يتعرض له الطبيب حين يجرى لها الجراحة ، وقال : « إن مساعدى الدكتور محفوظ تطوع بإجرائها ، ولكن له عليك شرطاً » فقالت : « وما الشرط؟ » فأجابها : « ألا تعودى سيرتك الأولى » فقالت : « فهمت . وأنا أعاهده أن أسلك طريق الاستقامة . والله وكيلى » . واستوجب الأمر إجراء أربع جراحات تبلغ الدرجة القصوى من الصعوبة ، وتم شفاؤها بعد ستة شهور قضتها فى المستشفى .

وبعد سنوات أربع ، وكنت قد تزوجت ، طلبت إجازة شهرين أقضيهما فى الخارج ، ونشرت جريدة « المقطم » موعد سفرى ، واجتمع فى المحطة بعض الأصدقاء للتوديع ، وبينهم الدكتور « دويين » . وقبيل قيام القطار أقبلت سيدة على وجهها اللثام الأبيض « اليشمك » التركى ، ومرقت بين المودعين ، حتى وصلت إلى مكان زوجتى فصافحتها وتركت فى يدها طاقة من الزهور النادرة ، فشكرتها . واتجهت السيدة نحوى فصافحتنى وانحنت على يدى تقبلها ، وقام القطار قبل أن أعرف من تكون هذه السيدة . ولم تبد زوجتى ضيقاً بما صنعت معى . ولكنها كانت مفاجأة ثقيلة أن يسافر زوج مع زوجته لتمضية « شهر العسل » فتعترض طريقهما سيدة لا تكتفى بمصافحة الزوج بل تقبل يده ، مما يثير بعض الظنون . وبعد قيام القطار بنحو دقيقة دخل زميل لى هو كبير

الأطباء فى مستشفى مدينة على الطريق بين القاهرة والإسكندرية ، وكان مسافراً إلى مقر عمله ، وسلم علىّ ؛ فعرفته بزوجتى ، وما لبث أن قال لى : « ألم تعرف السيدة التى قبلت يدك ؟ » فقلت : « لا أذكر أنى رأيتها من قبل » . فقال : « كيف؟ ألا تذكر المريضة رقم $\frac{1}{2}$ ٥ [1] فى الحجرة رقم ٨ ؟» فقلت : لا أذكر . وتابع قوله : « إنى كنت وقتئذ طبيب امتياز تابعاً لك فى العمل ، وهذه السيدة هى الراقصة التى وُجدَت ملقاة على الطريق بين الموت والحياة . أنسيت أنك أجريت لها أربع جراحات ، على حين أن "دوبين" خشى أن تمسها أنامله ، حذراً من العدوى ؟ » . فقلت : « لقد تذكرت الآن . ولكن الدكتور " دوبين" لم يمتنع عن إجراء الجراحة ، حذر العدوى ، وإنما كان يكل إجراء عمليات النواسير لى » فقال : « إن الدكتور "دوبين" هو الذى قال لنا ذلك أثناء الدرس » . فقلت : « لعله قصد بذلك التنويه بى ، وذلك نبل منه ، وأما الخشية من العدوى فما تمنعه من إجراء جراحة . وطالما عرضت له جراحات فيها خطر عليه ، فأجراها دون تردد ». فاستأنف الطبيب حديثه عن السيدة قائلا : « لقد خرجت هذه المريضة من المستشفى ، بعد استكمال شفائها ، والتحقت بخدمة بيت فى القاهرة اتخذه عمدة إحدى المدن لأولاده الذين يتعلمون فى مدارس العاصمة . وكانت تقيم معهم أمهم المريضة بالقلب ، فأحسنت السيدة خدمة هذه الأسرة . وماتت الأم ، فطلب الأولاد إلى أبيهم أن يتزوج خادمتهم ، ففعل . وفى نهاية العام الدراسى نجح الأولاد فى امتحاناتهم ، فنقل العمدة أسرته إلى بلده ، وبفضل نشاط هذه السيدة وتدبيرها تحسنت أحوال العمدة المالية » . وسكت محدثى قليلا ثم استرسل يقول : « أتعرف ماذا صنعت هذه السيدة فى ذلك البلد

---

(١) السرير رقم $\frac{1}{2}$ ٥ هو سرير إضافى وضع بين السرير رقم ٥ والسرير رقم ٦ لازدحام القاعة بالمريضات .

الذى استقرت فيه ؟ لقد أنشأت ملجأ للفتيات اللواتى دفعتهن الضرورة إلى الانحراف ، فأصبحن مشردات . وزوجت منهن نحو اثنتى عشرة . وذاع صيتها فى الأعمال الخيرية . وإنى بحكم وظيفتى أزور ذلك الملجأ الذى أنشأته للتفتيش بين حين وحين » . وكان القطار قد وصل إلى محطة البلد الذى يعمل فيه محدثى كبيراً لأطباء المستشفى ، فصافحنا مودعاً. وبعد نزوله قالت لى زوجتى : « إن هذه السيدة جديرة بكل احترام » .

* * *

وثمة حادثة أثرت فى عملى الخارجى تأثيراً حسناً قبل قدوم الدكتور « دوبين » إلى مصر . كان لشقيقى « فريد (بك) محفوظ » مدير حسابات وزارة الأشغال صديق هو أحد كبار المهندسين بالوزارة . ويوماً صادفه شقيقى بالوزارة وعلى وجهه اكتئاب ، فسأله عن حاله ، فأجابه : « لقد قرر "ملتون" Milton و « جاليو » Gaglio كبير الجراحين فى المستشفى الإيطالى أن زوجتى مصابة بسرطان فى الأمعاء ، وأنه لا أمل فى شفائها ، ولذلك عولت على أن أستدعى لها لجنة فحص « كونسلتو » مؤلفة من « هيس (بك) » Hess Bey . و « كومانوس (باشا) » Comanos Pacha و « فوكيه » Fouquet أطباء الأمراض الباطنية ، و « ملتون » و « جاليو » Gaglio و « بروسار » Brossard الجراحين ، وموعد الفحص الساعة الرابعة بعد الظهر . وقد جئت أرجو أن يحضر شقيقك معهم من جانبنا لنعرف منه حقيقة ما ينتهى إليه الرأى . فأخبرنى بذلك شقيقى ، وطلب منى الاستجابة لرجاء صديقه العزيز ؛ وقبل الموعد بنصف ساعة ذهبت إلى العوامة « الذهبية » التى كانت تقيم بها أسرة المهندس الكبير . فطلبت منى السيدة المريضة أن أفحصها ، ففعلت ، وسألت عن الأعراض تفصيلا ، وتاريخ ظهور كل عرض منها ، فعلمت أن الحيض تأخر شهرين ، وحدث ألم شديد فى الجنب الأيمن . وفى أحد الأيام شحب

لونها ، حتى حسب أهلها أنها ماتت . وهى الآن تشكو من آلام عنيفة فى الحوض ، ومنذ أربعة أيام أخذت تعانى المغص والإمساك، وقالت إنها فضلا عن ذلك تشكو من بواسير داخلية سببت لها نزفاً من الخلف مع التبرز . ولما أتممت الفحص وضح لى أن السيدة مصابة بحمل خارج الرحم ، وأن نوبة الهبوط التى أصابتها كانت بسبب انفجار البرق الحامل ، وأن الدم الذى انسكب فى البطن تجمع خلف الرحم ، فلما تجلط ضغط على المستقيم ، فسبب الإمساك المستعصى الذى تشكو منه . كما أن هذا التجمع الدموى ضغط على المستقيم وسبب احتقان البواسير ، فأحدث ذلك نزفاً من المستقيم .

وجاءت لجنة الفحص ، وتولت عملها ، وما كان لى أن أشترك فيه . وقرر الأطباء أن المريضة مصابة بسرطان متقدم فى الأمعاء ، ولن تعيش . وأخيراً انتبه لوجودى « هربرت ملترن » — شقيق « فرانك ملترن » الجراح بقصر العينى — وكان يحبنى ويقدرنى ، فقال : « كان علينا أن نعرف رأى أصغرنا سنا أولا » فضحك بعض الأطباء ، وسألونى عن اسمى ، فأخبرتهم ، فقالوا : « وما رأيك ؟ ». فترددت فى الجواب قليلا ، ثم قلت : « يخيل إلى أن هذه حالة حمل خارج الرحم ، مع تجمع دموى خلف الرحم ضاغط على المستقيم ، وهذا الضغط هو الذى سبب الإمساك المستعصى . أما النزف من المستقيم. فسببه احتقان حدث فى البواسير بسبب ضغط الدم المتجمد الذى ملأ تجويف الحوض» . وكان الدكتور « فوكيه » واقفاً على بعد ، فلم يسمع ما قلت ، فسأل الدكتور « ملترن » أن يذكره له . فلما أعاده عليه قال بصوت منخفض : « يا لها من صفاقة ! » ، ولم تبلغ أذنى كلمته حين تفوه بها ، ولو أنى سمعتها لرددت عليه بما يجب . وكان هذا الطبيب معروفاً باحتقار المصريين والتهوين من شأن أطبائهم . ولما سمع « ملترن » منه قوله احتقن وجهه ، وقال للجنة الفحص : « نحن حكمنا على

هذه السيدة بالموت ، وهناك رأى يحتمل الخطأ والصواب ، ولكنه يعطى السيدة أمل الحياة . فأنا سأدخلها المستشفى عندى ، وأجرى لها جراحة استقصائية غداً فى التاسعة صباحاً . وأدعوكم جميعاً للحضور ، فإن لم تتبين إصابتها بالسرطان قام الدكتور " محفوظ " بإجراء جراحة الحمل خارج الرحم » . فاتفقوا على ذلك جميعاً ، ونقلت المريضة إلى المستشفى . وخاصم النوم عينى تلك الليلة ؛ وفى الصباح حضرت لجنة الفحص ، وشرع « ملترن » يجرى جراحة شق البطن ، وكنت مساعده ، فظهر أن المرض حمل خارجى ، فأخلى لى « ملترن » مكانه ، وأجريت الجراحة ، وكانت غاية فى الصعوبة ، بسبب الالتصاقات مع الثرب omentum والأمعاء ، وبسبب بدانة المريضة بدانة مفرطة على الأخص . ولاحظتنى العناية الإلهية ، فتمت الجراحة بنجاح . ولما شرعت أخيط جدر البطن ، قال « فوكيه » : « ألا يحسن أن توضع أنبوبة درنغة (تصريف) فى الجرح ؟ » فأجاب « ملترن » : « متى كان لأطباء الأمراض الباطنية أن يوجهوا الجراحين فى عملهم ؟ » وكانت لهجته فى الرد خشنة ارتاحت لها رئيسات التمريض اللائى كن فى قاعة الجراحة ، وكن قد سمعن بقصة السيدة المريضة ، والجملة البذيئة التى قالها « فوكيه » .

وبعد الفراغ من إجراء الجراحة بساعات ثلاث ، نال منى التعب كل منال ، فشعرت بهبوط شديد ، اضطرنى أن ألازم الفراش . فزارنى « ملترن » وأشار على أن أمضى إجازة أسبوع فى فندق « سان استيفانو » بالإسكندرية . ولما شفيت المريضة ، أخذ زوجها منى ست بطاقات باسمى ، وتركها مع بطاقات باسمه للشكر فى عيادات الأطباء الذين تولوا الفحص ، مصحوبة بمكافأة مالية لكل منهم . وكان الزوج فيما بعد مواظباً على أن يلاطفنى بهداياه ، ومن هذه الهدايا البلح الأخضر الذى ينتج من نخلة وحيدة فى الفيوم ، طول البلحة منه يبلغ عشرة سنتيمترات ، وهو من أحلى أنواع البلح على الإطلاق ؛ وكان حمل

تلك النخلة يهدى نصفه للجالس على عرش مصر ، فى تلك الأيام ، ونصفه الآخر يهدى لمفتش الرى ..

وقد كان لهذه الحادثة دوى كبير بين الناس ، وبعدها بشهر دعانى الدكتور « هيس (بك) أحد أعضاء لجنة الفحص فى تلك الحادثة لتوليد زوجة ابنه « هيس الصغير[1] » فولدت بنتاً هى الآن مديرة مصرف كبير .

* * *

ومن طريف ما أذكر من الحادثات أنه كان لى صديق صيدلى ، يدعى الدكتور « الودينى » ، من عادته أن يزورنى فى الأعياد ، ولم أره إلا مرتدياً الحلة الرسمية « الردنجوت » . وكان يقدم لى بطاقة كبيرة فيها تهنئة شعرية ، فإن لم يجلنى تركها لى . وآخر ما هنأنى به فى أحد الأعياد قصيدة مطلعها «(نجيبٌ) أنت (محفوظٌ) بقلبى » . ويوماً طلب منى أن أشترك فى فحص شقيقته المتعسرة فى الولادة ، وكانت فى مستشفى الدكتور « محمد كامل سامى (بك) » وكان قد قرر أن يكون توليدها بالجراحة القيصرية . فلما ذهبتُ إلى المستشفى اتفقت مع « الدكتور سامى (بك) » على أن نتريث قليلا ؛ ووضعت السيدة مولودها وضعاً طبيعيا بعد ساعات ثلاث . وأراد الدكتور « الودينى » أن يكافئنى مالياً على الاشتراك فى الفحص ، فأبيت . ومضت بضعة أشهر ، وجاء عيد الميلاد ، فحضر الدكتور « الودينى » ليزورنى فى الثامنة صباحاً . ولم يقنع بترك البطاقة وفيها قصيدة التهنئة ، وإنما رغب فى لقائى ، فنزلت إليه فى بهو المنزل ، وكان معه زوج شقيقته التى كانت متعسرة فى الولادة ، فعرفنى به ، وقال : « السيد فلان رئيس أحد الأقلام بوزارة الأوقاف ، وقد حضر ليقدم لك الشكر » . وبعد قليل قال لى : « ألا تلاحظ شيئاً فيه ؟ » فترددت ، ثم أجبت : « إن

---

(١) عاش هيس الصغير حتى سنة ١٩٥٤ وقد بلغ من العمر خمسة وثمانين عاماً ، ومع ذلك ظل الناس يسمونه « هيس الصغير » طوال حياته !

طربوشه طويل جداً » . فقال « الوديني » : « ارفع الطربوش عن رأسك يا فلان »
فأطاع . فقال « الوديني » : « ألا تلاحظ شيئاً في شكل الرأس » ؟ وكان
على شكل قمع السكر ، وفي أعلى القمع أثرة التحام عريضة لا شعر فيها .
فتبسمت ، فقال « الوديني » : « بماذا يذكرك هذا الرأس ؟ » فتبسمت ،
فقال : « لا تكتم عنا » . فقلت : « إنه أشبه شيء بالرأس الذي يرسمونه في
كتب الولادة بعد إجراء التفتيت للجمجمة » فقال : « هذا هو الواقع » .
وشرع يسرد الحكاية التالية . قال : « منذ ثلاثين سنة ، كنتَ أنت طبيباً
حديث التخرج ، وطارت لك شهرة عند مفتشي أقسام الصحة في الولادات
العسرة . وحدث أن والدة السيد فلان هذا – وهي من سكان « شبرا » – تعسرت
في ولادتها ، فاستدعوا لها الدكتور « سرج ڤورونوف » Serge Voronoff
وشقيقه « جورج » – وكان من المشتغلين بالولادة – ورأيا تفتيت رأس الجنين .
فأدخلا الثاقب في قبوة الرأس ، ثم أخرجاه وركبا « جفت » التفتيت ، وفي هذه
اللحظة وصلت أم الوالدة ، وكانت سيدة قوية العضلات ، فأمسكت بذراعي
« جورج » ومنعته من أن يمضي في تفتيت الرأس . وهددته بتفتيت دماغه
بالقبقاب إن حرك يده ، وقالت : « لا يتولى توليدها إلا نجيب محفوظ » .
ونزلت السيدة مسرعة فركبت سيارة إليك ، وأحضرتك . وكنت أنت لبقاً في
تدارك الموقف . وكانت آلة التفتيت ما زالت على الرأس ، فاستأذنت « فورونوف »
في رفعها ، فأذن ، وعندئذ فحصت الرأس ، وقلت إن الحدبة المؤخرية
متجهة إلى الخلف ، ولو أدرنا الرأس إلى الأمام لأمكن أن تتم الولادة » . وبعد
نزع المفتت وتدوير الرأس أتت طلقة قوية ، فنزل الجنين ، وقمت بفحص
رأسه وخياطة فروته ، فضحك الطبيبان ، وقالا : « إن المخ أصيب بالثاقب
والمفتت ، ولا أمل في حياة الطفل » ، فلم تعبأ بقولهما ، وواظبت على الحضور يوميا
للغيار على الرأس ، وكتب الله للطفل عمراً ، ولكن بقي رأسه على الشكل

الذى تراه اليوم . . . » . فتذكرت الحادثة ، وبخاصة لأنها كانت واسطة صداقة بيني وبين « سرج فورونوف » الذى بقى بيننا بضع سنين ، ثم هاجر إلى « باريس » وأنشأ فيها مستشفى لتجديد الشباب ، وقد زرته هنالك ، فأطلعنى على النتائج التى انتهى إليها فى تطعيم خصية المريض الذى يشكو من ضعف تناسلى بخصية قرد . ومعظم الذين يتخذ لهم هذا العلاج من الأمريكيين ، وقد أخبرنى أنه يتقاضى ألف جنيه أجراً لهذا العلاج ، فضلا عن ثمن القرد ، وأنه أصبح مثرياً يعدّ ماله بمئات الألوف من الجنيهات .

* * *

وفيما يلوح فى خاطرى من الذكريات حديث له علاقة باللورد « ألنبى »Allenby الذى عُين مندوباً سامياً لبريطانيا فى « مصر » بعد عودته منتصراً من حملته فى « فلسطين » . أقام اللورد حفل عشاء كبيراً بعد تعيينه فى منصبه الجديد ، وكنت قد دعيت فيمن دعوا من المصريين والأجانب لذلك الحفل . وقبل أن أنقل حديثه إلىّ لا أرى بدا من أن أبسط الموضوعين اللذين أشار إليهما فى ذلك الحديث .

والموضوع الأول هو أن زوجة أحد المستشارين الإنجليز أصابتها حالة مرضية ثقيلة فى البطن ، فاستدعانى الدكتور « فيلبس »Philips أستاذ الأمراض الباطنية بمدرسة الطب للاشتراك فى لجنة فحص (كونسولتو) ، بغية تشخيص الحالة ، بعد أن تعارضت فيها الآراء . وكان الظن أن هناك ورماً مبيضياً ملتوياً على عُنيقه ؛ وقد تبين لى بعد أن فحصت السيدة أن المرض هو اندومتريوزز Endometriosis منتشر فى الحوض ومتغلغل فى الأمعاء . فقال لى الدكتور فيلبس : « إن المستشار يرغب فى إدخال زوجته مستشفى (الأنجلو أمريكان) لتجرى لها الجراحة» . فقلت : « إن هذا المرض يجب أن يعالج بالأشعة السينية فى جلسات متعددة ، وبنسبة من الأشعة منخفضة مع إعطاء حقن خلاصة الخصية بمقادير معينة . فالورم متغلغل فى الأمعاء ،

واستئصاله جراحيا يعرض السيدة للخطر . والعلاج الذى أشير به يحقق الشفاء » . ولم تكن هذه الطريقة التى ذكرتها متداولة وقتئذ بين الأطباء ، ولكن التجارب التى زاولتها فى مثل تلك الحالة أتت بنتائج حسنة . وكنت مستمرا فى مزاولة التجارب ، فلم أبادر بنشر ذلك العلاج فى المجلات الطبية . فاقتنع الدكتور « فيلبس » ومعه زوج السيدة بما رأيت ، وحددنا موعد بدء العلاج ، ولكن منع ذلك أن الحكومة الإنجليزية نقلت الزوج من « مصر » ، وعينته سفيراً لها فى إحدى الدول الكبرى ، فاضطر أن يسافر ومعه زوجته قبل أن تبدأ علاجها .

ذلك أحد الموضوعين ، أما الموضوع الآخر فهو خاص بمجلس مدرسة الطب. وتفصيله أنه خلت وظيفة أستاذ الباثولوجيا فى المدرسة ، فأعلن خلوها فى المجلات الطبية فى الخارج ، وتقدمت لشغلها أسماء عدة ؛ فاجتمع المجلس للنظر فيها ، ولم يكن بين أعضائه من المصريين إلا اثنان : الدكتور « علي (باشا) إبراهيم » وأنا ، والبقية من الأساتذة الإنجليز . فقال لنا « ريتشاردز » Richards رئيس المجلس : « لقد وردتنى توصية من السير ريجينالد باترسون " Sir Reginald Patterson مستشار وزارة المعارف بباثولوجى شهير يرغب فى شغل الوظيفة الشاغرة ، وأرى أن نعمل بتوصية المستشار ، فهو يعرف مقدم الطلب معرفة شخصية » . فاعترضت عليه ، وقلت : « لابد من فحص الطلبات أولا ، واختيار الأفضل منها . ومتى تم ذلك عرضنا الاسم الذى يقترحه « باترسون » ووازنا بينه وبين الاسم الذى اخترناه» . فلم يوافق على ذلك « ريتشاردز» ، فطلبت أن يؤخذ رأى المجلس ، فكانت أغلبية الأصوات فى جانبى . وتولينا الفحص والاختيار ، ثم أجرينا الموازنة ، فلم يفز ذلك الاسم الذى اقترحه « باترسون » بالأفضلية . واضطر « ريتشاردز » أن يكتب إليه معتذراً . ثم خلت من بعد ذلك وظيفة أستاذ البكتريولوجيا . وفى اجتماع المجلس لنظر الطلبات فاجأنا « ريتشاردز » بأن « اللورد ألنبى » أوصى بطبيب

كان يعمل معه فى « فلسطين » . فاعترضت عليه مثل اعتراضى السابق . فقال لى : « إذا أصررت على اعتراضك فسأدونه فى محضر الجلسة » . فقلت : « إنى أوافق على تدوينه ». وحدث فى هذه المرة ما حدث فى المرة السالفة ، واخترنا أستاذاً غير الموصى به .

وما مضى على ذلك نحو شهر ، حتى كان حفل العشاء الذى أقامه « اللورد ألنبي » Allenby ، وكنت أنا والمرحومة زوجتى بين المدعوين . وبعد أن تعشينا جلسنا نتحدث ، وإذا يدان تربتان كتفى ، فنظرت فإذا « باترسون » يحيينى وكان لى صديقاً ، سبق أن عالجت بعض السيدات من أسرته ومعارفه . وما لبث أن قال لى : « إن اللورد ألنبي يسره أن يلقاك أنت والسيدة زوجتك » . فمضينا إليه ، وألفيناه مثلا عالياً للدماثة ولطف المؤانسة . وجعل يحدثنى عن نفسى وعما قمت به من أعمال ، ثم قال : « يطيب لى أن أنقل إليك رسالة كلفنى أداءها سفيرنا فلان ! » ، وهى أنه لو اتبع نصحك ، وعالج زوجته بالطريقة التى أشرت بها قبل سفره إلى الخارج لكتبت لها السلامة ، ولكن الأطباء هناك أشاروا بإجراء جراحة لها انتهت بوفاتها » . وصمت لحظات ، ثم قال : « قصّ على هناك "ريتشاردز" و "باترسون" موقفك فيما يختص بتعيين أستاذ الباثولوجيا ، وأستاذ البكتريولوجيا . وأؤكد لك أنه لو تصرف كل مصرى فى اختصاصه كما تصرفت أنت، لما بقى لبريطانيا مسوغ للبقاء فى مصر أربعاً وعشرين ساعة ! » .

* * *

ولقد صادفنى فى حياتى العملية ما يؤيد المثل القائل : « قيراط بخت ولا فدان شطارة » . فإن النتائج الباهرة التى وصلت إليها فى الحادثة التى سأذكرها لا ترجع إلى مهارة . وتفصيل الحادثة أنى كنت قد أحرزت بين الناس شهرة فى علاج العقم عند السيدات . فحضرت إلى عيادتى ذات يوم سيدة تقدمت بها السن .

مصطحبة زوجها ، وهو يومئذ وكيل وزارة العدل . فأخبرنى بأن السيدة جاوزت سن اليأس . ومنذ سنوات سبع ، انقطعت عنها «عادة النساء» ، ولكنها ترجو أن يتيسر حملها على يديك — فأفهمت السيدة فى لطف أنه لا ينتظر حدوث الحمل بعد انقطاع الحيض طوال هذه السنوات . فقالت : «إن الشافى هو الله ، لا بأس أن تعطينى دواء» فأعطيتها تذكرة كتبت فيها أن تتناول أقراص خلاصة المبيض ٥ قمحات ثلاث مرات فى اليوم بعد الأكل .
ولم تعد السيدة لزيارتى . وبعد سنة من هذا التاريخ، فى يوم ٥ يناير — وهو يوم عيد ميلادى — استدعانى فى الساعة الخامسة صباحاً الدكتور «إبراهيم (بك) حسن» مفتش صحة السيدة زينب لحالة ولادة عسرة ، جرب فيها الجذب «بالجفت» مدة ساعتين بلا جدوى . وعلى الرغم من انهمار المطر وقتئذ ذهبت إلى منزل المريضة ؛ وبعد فحصها ظهر لى أن الحدبة المؤخرة للرأس متجهة إلى الوراء ، فأدرتها إلى الأمام ، فتمت الولادة طبيعية بعد قليل . وأقبلت على السيدة الوالدة أصافحها وأهنئها بالسلامة ؛ وشدّ ما كانت دهشتى حين تبين لى أنها هى السيدة زوجة وكيل وزارة العدل ، تلك التى أعطيتها منذ نحو سنة أقراص خلاصة المبيض .

وبعد مضى عشرين عاماً على هذا الحادث ، وكنت قد بلغت الستين ، سن الإحالة إلى المعاش ، ألقيت على طلبة الفرقة النهائية لكلية الطب محاضرة عن التقاعد أو القعود عند النساء — أى بلوغ سن اليأس من الحمل — وكان فى اختيارى لهذا الموضوع مناسبة بينه وبين انقطاعى عن التدريس لبلوغ السن ! وفيما ذكرته أثناء المحاضرة أنه بعد أن تبلغ النساء سن القعود وينقطع طمثهن ربما تكونت بيضة فى إحدى حويصلات جراف بالمبيض، فإذا انفجرت الحويصلة وخرجت منها البيضة اتجهت نحو البوق ، وربما اتفق وجود حيوان منوى فى تجويفه، فيقابل البيضة ويلقحها ويحدث الحمل . وأيدت هذا الشرح

بحالة السيدة التى قمت بتوليدها بعد بلوغها سن اليأس وانقطاع الحيض مدة سبع سنوات، وكيف عاودها الحيض بعد إعطائها خلاصة المبيض بشهرين ، ثم كان الحمل . وقلت : « إن هذه السيدة كانت عند توليدها فى الثانية والخمسين » . فرفع أحد الطلاب إصبعه يطلب الكلام ، فأذنت له، فقال : « كانت سنها ثلاثاً وخمسين سنة وستة أشهر » فحملق رفاقه فى وجهه ؛ وقالوا له : « وعرفت منين يا محمد ؟ » فأجاب : « إزاى ما اعرفش ، وأنا هو الولد اللى ولدته ! » . وقد كان لولادة هذه السيدة رنة فى بيوت الطبقة الراقية لذلك العهد ، ونسبوا الفضل فى حملها إلى ما أشرت به من علاج . والحق أن المصادفة وحدها لا المعالجة هى التى كان لها الفضل .

زوجـــق

كلٌّ من هو في شرخ شبابه ، وزهرة حياته ، يتخيل فتاة أحلامه على الصفة التي ينشدها ، ويرى فيها مثله الأعلى . وكذلك كان شأني . فقد كانت الزوجة التي أحلم بأن يرشدني الله إليها ، ويجمعني بها ، فتاة لها من الثقافة نصيب ، وللدين على نفسها سلطان ، أوتيتْ حظا من الجمال ، ووهبت عذوبة الحديث ، وهي إلى جانب ذلك سليلة أسرة من كرائم الأسر .

وقد أتاح الله لي ذلك كله ، مستوفى أتم الاستيفاء .

ففي نوفمبر سنة ١٩١١ ، وأنا في التاسعة والعشرين من عمري ، تزوجت الآنسة « فائقة » ، ولم تتخط بعد السادسة عشرة .

وإني لأعدّ زواجي بها طالع سعدي ، ونقطة التحول في مجرى حياتي ، من جهاد لا متعة فيه ، إلى حياة يبعث فيها الأمل والطموح ، ما أنعم به من هناءة وأنس ومتاع . فبهذا الزواج أدركت أن الحياة منحة إلهية غالية . وكنت أجد في منزلي مرفأ أميناً أجنح إليه ، بعد أن ينهكني العمل في مدرسة الطب ومستشفى قصر العيني وعيادتي الخاصة ، فأشعر بأني أجدد ما خار من قواي ، وأغسل عن نفسي متاعب اليوم كله ، وأبث في روحي عزماً وارتياحاً وتفاؤلا . وكثيراً ما كانت تنبهني إلى ضرورة ارتيادي للمنتديات ، والأنس بصحبة الأصدقاء ، وما يخوضون فيه من حديث ، فأجيبها بأني أجد في ظل حياتي المنزلية معها غاية ما أصبو إليه من بهجة وترفيه وإيناس .

وكنت أنعم بحديثها الشائق الرقيق الذي ينم عن سمو خلق ، وعن ذكاء

وفطنة ، وكثيراً ما كانت تتخلله نكات ومفاكهات طيبة تتنزه عن أن تمس شعور أى إنسان بما يتأذى به .

ولم يمض على زواجنا سنة ، حتى تمت أول سفرة لنا معاً إلى « أوربا » فتذوقت متعة السياحة حقا ، وكانت تزيّن لى أن أرتاد معاهد العلم هنالك ، لأزداد معرفة وخبرة ، غير مبالية بأن ذلك يحرمها تفرغنا لارتياد الملاهى ومواطن التسلية . وفى السنة التالية أزمعت الرحلة معها إلى أوربا مرة أخرى ، ولكنها كاشفتنى بأنها غير مطمئنة إلى السفر ، وأصرت على الامتناع ، وخيراً فعلت . فإن الحرب العالمية الأولى نشبت فى الشهر الذى كنت أنتوى الارتحال فيه ؛ ولولا امتناعها لتعرضنا لمتاعب ومصاعب لا ندري مصيرنا فيها .

وإنى لأعترف بأنه كان لعقلها الراجح ، وآرائها الرشيدة ، أثر عميق فيما وفقت إليه من نجاح ، فقد طالما وجهتنى توجيهات أثبتت التجربة سدادها ؛ وأشهد أنى لم أخالف لها نصحاً إلاندمت من بعد على هذه المخالفة ، إذ يظهر لى أنها كانت فيما نصحت به على صواب .

وإذا كنت قد استفاضت لى سمعة طيبة ، فى حياتى العامة ، فإنى أعزو الفضل الأكبر فى ذلك إلى ما كان لزوجتى من نشاط اجتماعى أثار إعجاب الصديقات والأصدقاء ، إذ أصبحت لها مكانة ملحوظة فى نفوس من نعرف من مواطنينا ومن الأجانب على السواء .

وحسبي أن أذكر فى هذا الصدد ما قاله « اللورد دوسن » Lord Dawson of Penn عميد كلية الأطباء الباطنيين فى « إنجلترا » فى حفل أقامته الكلية لتكريمى ، فقد أشار إلى زوجتى فى الكلمة التى ألقاها فى الحفل ، بقوله :

« كنت أسمع ما يرددونه من أن لزوجات الرجال الناجحين فى الحياة أكبر نصيب فيما أصابوا من نجاح ، ولم أكن أدرك صحة ذلك تماماً حتى

تيسر لى حديث طويل مع « مدام محفوظ » جعلنى أومن بصحة هذا القول » .

وكثيرا ما اتصل بسمعى أن الناس من حولنا يعجبون كيف أمضيت مع زوجتى إحدى وأربعين سنة ، وما زال الحب بيننا فى صفائه ونقائه لا يعتريه فتور ، كأنه وليد يوم وليلة . وليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب ، فقد كانت تتجدد فى صحبتنا حلاوة الحياة ، بما لا مطمع معه إلى المزيد .

وإن أنس لا أنس ما أصابنا من محنة قاسية فوق الاحتمال ، تنوء بها الجبال ، فقد ثكلنا ولدنا الوحيد « سامى » ، وحزنا عليه حزنا عنيفا ، فقد كان لنا منبع غبطة وتقدير . وكان لما تحلى به من مواهب وخلال خليقاً أن يفاخر بمثله كل والدين ، مهما يكن المثل الذى يطمحان إليه . وما لبثت يد المنون أن اختطفت ابنة لنا فى ريعان شبابها ، وهبها الله رجاحة العقل ، وروعة الجمال ، وحلاوة الحديث . فقد كانت دماثة أخلاقها وشخصيتها الفائقة المحببة الجذابة تشع السرور على من حولها . فكادت الكارثة بعد الكارثة تقضى على ما بقى فينا من رمق . بيد أن زوجتى استطاعت أن تعلو على نفسها ، وأن تخفى عنى ، حين ترانى ، ما يضنيها من ألم الفجيعة ، وتسبغ على من عطفها ما يبعث السكينة . فكانت هى رسول النعمة الإلهية ، أضفت على قلبى شيئاً من السلام الذى وعد الله به من يستسلمون لحكمه ، ويرضون بقضائه .

ولئن كانت قد سبقتنى إلى جوار الله ، تنعم برضوانه ، منذ سنة ١٩٥٢ وخلفتنى فى غمرة من ذكريات حياتنا معاً ، لقد تركت لى من بناتى العزيزات وأولادهن وأزواجهن ما أجد فيه تعزية وسلوى فيما بقى من أيامى ، فهم شموع تضىء لى طريقى . على حبهم أحيا ، ومن أجل طمأنينتهم وسعادتهم أتجه إلى الله بقلبى كله .

وربما كان من الوفاء لذكرى زوجتى ، طيب الله ثراها ، أن أبسط هنا ما اضطلعت به فى حياتها من مبرات وأعمال ابتغت بها سبيل الخير .

ولكنى أوثر أن أجمل ذلك إجمالاً ، فإنها لم تكن تباهى بما تعمل . وكان الكثير من أعمالها يتم فى خفاء ، حتى إنى أنا شخصيا لم أعلم به إلا بعد أن ذهبت إلى جوار ربها . ويقينى أن روحها لا ترضى أن أنوه أنا به، فيُحمل ذلك منى على معنى المباهاة . على أن أعمالها ما زالت ماثلة نامية، تجد منا كل ما نستطيع القيام به من رعاية وتعهد .

فى سنة ١٩٣٩ خطر لزوجتى أن تنشئ جمعية تدعوها « جمعية صديقات الكتاب المقدس » وما لبثت الفكرة أن اختمرت ، وأصبح للجمعية كيان، فضمت جملة السيدات والأوانس اللواتى يرغبن فى عمل الخير وإسداء البر . وسرعان ما مضت فى همة تؤسس المدارس للبنين والبنات ممن يعجز أهلوهم عن العناية بهم ؛ وفى هذه المدارس توافر لأولئك التلاميذ تعليم وغذاء وكساء ورعاية صحية .

وفكرت زوجتى بعد ذلك فى مصير هؤلاء الأطفال الفقراء بعد أن يجتازوا مرحلة التعليم الابتدائى ، فاعتزمت إقامة مؤسسة للتدريب الحرفى ، تحتضن أولئك الأطفال ، وتوفر لهم كرامتهم الإنسانية ، بتعليمهم حرفاً يستطيعون بها أن يشقوا طريق الحياة الشريفة ، ويصبحوا مواطنين صالحين ؛ ولتحقيق ذلك الغرض قامت بشراء قطعة أرض مساحتها ١٠٠٠ متر مربع بحدائق القبة لتقام المؤسسة عليها .

وبينما هى تعمل جاهدة لإنجازها ، عاجلتها المنية ، قبل أن تقوم ببنائها ، فقامت نخبة من صديقاتها بذلك ، وأطلقن عليها اسم «مؤسسة فائقة محفوظ الصناعية» وتتكون من قسمين أحدهما للبنين ، وهو أربع شعب للنجارة ، والطباعة ، والسجاد ، والآلة الكاتبة ، والآخر للبنات ، وهو أربع شعب للتفصيل ، والخياطة ، والتريكو ، والتطريز .

وأنقل هنا كلمة هى بعض ما تلاه الدكتور « وديع فرج » المحامى القدير والصديق العزيز ، فى حفل أقيم لتأبينها فى مناسبة مرور السنة الأولى على وفاتها . قال :

« إن الراحلة الكريمة السيدة فائقة محفوظ ، وقت أن عقدت عزمها وحزمت أمرها ، على خوض معركة الخير ، جعلت بغيتها غايتين ساميتين ، واتخذت لبلوغهما وسيلة واحدة ، هى جمعية الصديقات .

أما الغاية الأولى فهى إنشاء المدارس لتعليم أبناء وبنات الفقراء وتربيتهم مجاناً ، وتوفير الغذاء والكساء والعناية الصحية لهم وللكثير من ذويهم . هذه الغاية السامية ليست فى حاجة إلى بيان . فالكل يعلم مدى ما بلغته فى إدراكها جهود الراحلة الكريمة ومعاوناتها من أعضاء الجمعية . والكل يقدر أعظم تقدير ذلك النجاح المنقطع النظير الذى أصابته قائدة تلك الجماعة الصغيرة فى هذا المضمار . وإنما الذى قد يدق بل قد يخفى على الكثيرين هو تلك الغاية الأخرى التى ابتغتها فقيدتنا العزيزة من رسالتها السامية ، تلك الغاية التى لم يكن يعلمها سوى ذلك العدد القليل من السيدات والآنسات ، اللائى وضعن أيديهن فى يد قائدتهن رئيسة الجمعية فى كفاحها الشاق . تلك هى غرس حب الخير ، لخدمة الغير ، وتعهد ذلك الغرس حتى يؤتى ثمرته بما تجلبه من لذة سامية وما تضفيه على صاحبه من سعادة حقيقية ... » .

وأخيراً لا يفوتنى أن أوجز القول فى الأسرة التى تنتمى إليها زوجتى ، رضوان الله عليها . وقد عولت فى هذا القول — فوق ما يتناقله ذوو القربى من المرويات — على ما قرأته « للجبرتى » فى كتابه « عجائب الآثار » ، وما أثبته الأستاذ « توفيق أسكاروس » فى كتابه « الأقباط فى القرن التاسع عشر » وما نقله غيره من سجلات قصر عابدين والدفترخانة المصرية . وما أعنى بذلك الإشادة بأمجاد ومفاخر ، وتحقيق نسبتها إلى أسرة زوجتى ، وإنما أعنى إلقاء بعض

الضوء على المنزلة التى أتيحت لها فى أجيال متعاقبة .

كان الجد الأعلى لزوجتى يسمى « المعلم رزق » فى أواخر عهد المماليك. قال عنه الجبرتى : « هو كاتب " على بك الكبير " وكبير مستشاريه ، ومتولى أمور المال والخراج والضرائب فى عهده ، والقائم على دار ضرب النقود ، وقد بلغ معه من العظمة ما لم يبلغه قبطى قبله » . ونمت أسرته فى مديرية الشرقية ، وفى مديرية الدقهلية ، فكثر عددها ، وكان الشقيقان "المعلم غبريال" و المعلم "نسيم" — ولدا " المعلم رزق" — على جانب من رجاحة العقل ، يقيمان فى مسقط رأسيهما بناحية « ميت يعيش » ، فعوّل عليهما الأهالى فى حل المشكلات وفض المنازعات ، وقد أكبر " على بك الكبير" فيهما هذه الميزة ، فولاهما شئون القضاء ، وأصدر بتعيينهما الأمر التالى إلى حاكم منطقة شرق الدلتا :

« قادم لكم الذمى غبريال وأخوه نسيم ، سلموهما الأحكام الشرعية وكل ما يعمل الشرع الشريف ببلدكم جملة كافية » .

أول محرم ١١٨٣ هـ — ختم (على بك الكبير)

وفى عهد « محمد على » نبغ « المعلم رزق غبريال » ، فمنحه لقب « أغا » الذى كان يمنح لكبار الحكام ، وولاه الحكم على جانب من مديرية شرق الدلتا وهو يشمل يومئذ مديرية الدقهلية وبعض مديرية الشرقية ، وكان « رزق أغا » عظيم الصولة قوى الدهاء ، امتد نفوذه إلى أكثر الأقاليم الواقعة وراء فرع دمياط ، وأظهر الكفاية والحزم فى ضبط الأمن ومطاردة الأشرار ، وابتنى فى « ميت يعيش » داراً للضيافة كانت مثابة للقاصدين للتشاور وفض الخلافات . وكثيراً ما استقبلت الدار كبار الوافدين عليه من الأمراء والعظماء . ومما يدل على مكانة « رزق أغا » الأمر التالى الذى أصدره « محمد على » :

« درة الأماجد الكرام رزق أغا غبريال مدير جانب الدقهلية . قد عرض علي مسامعنا طلبكم ثمانون فداناً بحوض أبو بركة والتبالة بكفر رجب، وأصدرنا أمرنا بإعطائكم الثمانون فداناً رزقة بلا مال إلى ما شاء الله على ذمة المضيفة» .

٥ رجب ١٢٤٥ ختم (محمد على)

وفى شهر مارس سنة ١٨٢٢ نزل داره « إبراهيم باشا » و « المعلم غالى » أحد كبار رجال الحكومة وكبير كتابها ، وعقب هذه الزيارة سافرا إلى « ميت غمر ». وحدث أن غضب « إبراهيم باشا » على « المعلم غالى » لانتقاده أمراً أصدره ، فأطلق عليه الرصاص حتى أرداه قتيلا ، وأصر على أن تترك جثته فى الطريق نهباً للطير والوحش ، ولم يجرؤ أحد على دفن الجثة ، فلما علم « رزق أغا » بذلك ركب إلى « زفتى » وتولى تكفين الجثة ومواراتها القبر بجوار الكنيسة القبطية . وفيما قاله «لإبراهيم باشا » فى هذا الصدد : « يا مولاى إن الانتقام لا يكون إلا من الأحياء ! » .

وتوفى « رزق أغا غبريال » تاركاً ولدين هما : «المعلم رزق رزق » و « المعلم يوسف رزق » عضو مجلس شورى القوانين ، وهوجد زوجتى الأسبق .

ومما تتذاكره أسرة زوجتى وأسرتى أنه فى عصر المماليك ، هاجر ثلاثة إخوة من قرية البياضية ، بالقرب من المنيا ، ينتمون إلى أسرة « رزق » ، كان أحدهم من جدود زوجتى الأول، وقد استوطن « ميت يعيش » ، وكان الثانى من جدودى ، وقد استوطن « المنصورة » ، والثالث من عائلة كان عميدها يدعى « يوسف داوود» . ولم يتح للإخوة الثلاثة أن يجتمع شملهم من بعد ، حتى كان اقترانى بزوجتى ، عليها رحمة الله .

ذكريات الحرب العالمية الأولى

١ ــ فجر النهضة

كانت الحرب الطاحنة سنة ١٩١٤ وبالا على العالم كله ، وعلى الرغم مما ذاقته مصر من ويلاتها وأهوالها ، كانت هذه الحرب ومعقباتها فجراً لنهضتنا الحديثة ، وعاملا عميق الأثر فيما ظهر فى البلاد من تطور ، فإن القومية المصرية أخذت تنمو ، والنزعة الوطنية جعلت تتقد . وكان لذلك صداه البعيد فى الناحية الطبية على وجه خاص ، وفى مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية على وجه عام .

ما كادت تلك الحرب العالمية تنشب حتى تطوع فى الجيش الإنجليزى معظم الأساتذة الإنجليز الذين كانوا يعملون فى مدرسة الطب ، حتى الذين تجاوزوا منهم سن الجندية . واقتضى الأمر كذلك إبعاد أساتذة الطب المنتمين إلى دول معادية ، كالألمان ، فترتب على هذا الاستعاضة عنهم بالأطباء المصريين المساعدين الذين كانوا يعملون فى مدرسة الطب ومستشفى قصر العينى ، فأقيموا مقام الأساتذة ، ووكلت إليهم الوظائف ذات المسئولية ، ولم يكونوا يتولونها من قبل . وقد أظهروا من الكفاية والدراية وحسن الإدارة ما أثار الإعجاب والتقدير ، مما شجع ولاة الأمور على الاعتراف بهم ، والشهادة لهم . وكذلك تفتحت أمامهم أبواب العمل الخارجى ، فاتسع نشاطهم ، ولمعت أسماؤهم ، وأدرك المواطنون أن إخوانهم الأطباء المصريين لا يقلون علماً وخبرة عن الأطباء الأجانب الذين كانوا يستأثرون بالعمل فى الميدان أو يكادون .

ومما حدث أيضاً أن أساطين الأطباء الإنجليز المتطوعين فى الجيش كانوا يتوافدون على مصر ، فرأوا بأعينهم ما أبداه الأطباء المصريون من البراعة ،

فارتفعت مكانتهم عندهم ، ولما ضاقت المستشفيات الحربية بالجرحى والمرضى حُوّل مستشفى قصر العينى إلى مستشفى حربى ، وعينت أنا رئيساً لأحد أقسام الجراحة فيه ، وأجريت مختلف الجراحات للجنود الأسترالِيين والإنجليز ولأسرى الحرب من الأتراك .

وفى هذه الفترة طلب منى أن أكون مستشاراً اختصاصيًّا فى الولادة وأمراض النساء لزوجات الضباط الإنجليز ، فقبلت القيام بهذه المهمة تطوعاً بلا أجر بمستشفى الأنجلوأمريكان ، فكنت أجرى الجراحات لزوجات الضباط من أكبر قائد إلى أصغر ضابط . واستمر ذلك خلال سنى الحرب ، مما وثق الصلة بينى وبين كبار الجراحين الإنجليز ، وأتاح لى حسن تقديرهم لما قمت به .

وأذكر أن زوجة طبيب كبير بالجيش الأسترالى كانت تشكو مرضاً مزمناً صاحبها عشر سنوات ، فضلا عن عقمها المطلق ، فأشار عليها الدكتور « كيتنج » أن تدعونى لفحصها ، فأجريت لها جراحة بطنية شفيت على أثرها مما كانت تشكوه . ولما عادت السيدة إلى « أستراليا » تعاقب حملها ، فكان لها ابنان وبنتان . وفى سنة ١٩٣٢ نزلت السيدة وزوجها فى مطار القاهرة ، وكانا فى طريقهما إلى « لندرة » لشهود المؤتمر الذى عقد بمناسبة انقضاء مائة سنة على تكوين الاتحاد الإنجليزى للأطباء ، فقصدا إلى عيادتى ، وفى حجرة الاستقبال علقا على الحائط صورة زيتية لأولادهما الأربعة ، ولم أعلم بما صنعا إلا بعد مغادرتهما العيادة ، ثم لقيتهما بعد ذلك، فأخبرانى بسفرهما لشهود ذلك المؤتمر ، فتواعدنا على اللقاء هنالك ، إذ كنت مدعوا لشهوده ، وترك لى الزوج منظاراً مثانياً ، على سبيل الإهداء ، تعبيراً عن شكره لما قمت به نحو زوجته .

وقد تعددت أمامى جهات العمل أثناء الحرب وبعدها فى مستشفى قصر العينى والمستشفى القبطى ، ومستشفى الأنجلو أمريكان ، إلى جانب عملى مستشاراً لمستشفيات الجيش ، فساءت صحتى . وفى مايو سنة ١٩١٩ ، انتقلت عدوى « التيفوس » إلىّ من سيدة مصابة أجهضت واحتبست فيها المشيمة ، فدخلتْ مستشفى قصر العينى ، وكانت القفازات من المطاط قد انقطع ورودها بسبب الحرب ، فلم أجد بدًّا من إدخال يدى بلا قفاز فى الرحم لاستخراج المشيمة ، فتسربت العدوى من شق فى الظفر لم ألاحظه . وبعد ثلاثة عشر يوماً بدأت أعراض المرض تظهر علىّ ؛ وكانت الإصابة خبيثة نتجت عنها كل المضاعفات التى تلحق بالمصابين بهذا المرض ؛ وقد عالجنى صديقاى الدكتور « سامى صابونجى » والدكتور « إسكندر جرجاوى » . وعقب هبوط الحرارة ببضعة أيام حدث تجلط فى دم الوريد الحرقفى الباطنى وامتد إلى أوعية الساق . فطالت لذلك مدة النقه . وكنت قبل مرضى عالجت زوجة كبير من ضباط الجيش الإنجليزى من عقم بسبب ورم ليفى ، فحملت وبلغت شهرها الثامن ، فلما دهمنى المرض أنبتُ عنى زميلى الدكتور «أحمد (باشا) شفيق» فى رعاية هذه السيدة حتى تم لها الوضع بسلام ، وكان المولود بنتاً قرّت بها عين والديها ، إذ كانا فى سن متقدمة ، وقد انقطع أملهما فى الذرية . وبعد ذلك بنحو عشرين سنة كنت أقضى إجازة قصيرة فى فندق « ميناهاوس » ، وكان بين نزلاء الفندق سيدة فى سن الشيخوخة ترغب أن تستشيرنى فى مرض تشكوه ، وفى زيارتها لى ذكرت أنها شقيقة القائد الإنجليزى الذى أجريت لزوجته جراحة ما لبثت بعدها أن حملت . فلما سألتها عن المولودة أخبرتنى بأنها أصبحت أجمل فتاة فى « لندرة » ، وأنها دمثة الخلق ، لا يؤخذ عليها إلا إفراطها فى الحياء !

وإذا كانت الحرب العالمية قد كان لها هذا التطور الذى أشرت إليه فى

حياتنا الطبية على وجه خاص ، وفى حياتنا على اختلاف مناحيها على وجه عام . فإن ذلك التطور قد كان هو العامل الفعال فى تلك الثورة العارمة التى قامت فجأة فى مصر ، وعمت البلاد قاطبة .

ب ـ ثورة سنة ١٩١٩

ليس من ريب فى أن السبب السياسى لثورة سنة ١٩١٩ هو أن نظام الحكم فى ذلك الوقت لم يكن ليلائم التقدم الذى أحرزته البلاد ، ولم يكن ليساير النزوع إلى الاستقلال التام أو الاستقلال الداخلى على الأقل ، فانتهز المصريون فرصة انتهاء الحرب العالمية ونشر المبادئ الأربعة عشر التى نادى بها ولسون معززاً بها حقوق الإنسان ، ومؤكداً حق كل أمة فى تقرير مصيرها ، وأعلنوا ثورتهم على الحماية الإنجليزية ورغبتهم فى حياة الحرية والكرامة .

على أن السلطات الحاكمة لم تقدر ذلك التطور الاجتماعى والتقدم العلمى حق قدره ، ولم يقع فى حسابها أن نشوب الثورة أمر محتوم إذا وقفت هذه السلطات من الشعور العام موقف الجمود والتهاون والاستخفاف .

ومما أعان على اختمار الثورة فى نفوس الناس أجمعين ، وانفجارها فى كل أرجاء الوطن المصرى من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، ما كانت تشقى به البلاد فى تلك الحقبة من نواح عدة ، فالجنود الأجنبية تمرح فى البلاد طولا وعرضاً ، والواردات الخارجية منقطعة ، وليس فى المصنوعات الداخلية ما يعوض عنها ، والقطن الموفور الذى تعتمد عليه البلاد فى ميزانيتها يتعذر تصديره ، والسلطات الحاكمة تستولى على المواد الغذائية وغير الغذائية ، ولا تترك للمواطنين منها إلا النزر اليسير ، ووطأة الغلاء والحرمان تشتد على

الناس فتملأ نفوسهم ضيقاً . وقد عبرت الأهازيج والأغانى الشعبية عن ذلك الكرب والحرج الذى أخذ بخناق المواطنين فى تلك الأيام ، فكانوا يتغنون بها ، ويجدون فيها تنفيساً وسلوى .

فمن تلك الأهازيج والأغانى قول القائل :

بردون يا « ونجت » بلادنا خربت
خــدتو الشعير وجمــال وحمــير
م القمح كتــير ارحمونا
شوفو المدير ياما لمّ كتير
اعتقونا

ومنهــا :

الجاز الجازِ كوى النازى جننّى يا خالى ام حجازى
دا بقّى اغلى من الكولونيا يا ناس هو جرى إيه فى الدنيا
الرغيف ورقــة سيجاره تنفخه يبقى طيــاره
واللى حداه لمبه بقزازه وانكسرت يعمل له جنازه
دى تنفع شبكه لجوازه بزابيزو بزبز بزبازه
الوابورات ما بنركبهاشى العمــدة بيسافر ماشى
إلخ

وهذه الثورة الوطنية استطاعت أن تجعل من المصريين يداً واحدة ، وأن تقرب ما كان بينهم من التفاوت على اختلاف دواعيه ، فارتفع المصرى فى عين أخيه المصرى ، وأحس نحوه بالوحدة القومية ، والكرامة المشتركة ، وآمن بأن أهل الوطن شركاء فى السراء والضراء ، سواء فى الآمال والآلام .

وعن هذه الروح الجديدة تَرْجمت أهازيج وأغانى ترنم بها الناس كافة ، وهذا مثل منها :

لا تقول لى صولت ولا جرولى
ولا أمريكانى ولا أوربى
ابن البلد وحياة شنبي
أولى بقرشك م الغريب

وهكذا كانت الحرب العالمية بأهوالها وأثقالها وقوداً للثورة ، وفجراً للنهضة ، ورب ضارة نافعة .

وكان أمر هذه الثورة عجباً، ففى أقل من أربع وعشرين ساعة عمت البلاد من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ومن شرقها إلى غربها ، واشترك فيها المواطنون على اختلاف طبقاتهم من مثقفين وعمال وفلاحين وطلبة ، كأنما كانوا على ميعاد . وفى الحق إن المصريين جميعاً كانت تكمن بين جنوبهم روح الثورة ، بفضل الوعى الذى بعثه الرعيل الأول من زعماء الإصلاح ، أمثال جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ولطفى السيد . وكانت هذه الثورة تترقب فرصة الانفجار ، فما إن طارت شرارتها حتى كانت لهباً فى كل مكان . وزاد النار وقوداً وشبوباً ما جرى من القبض على قائد الحركة الوطنية « سعد زغلول » وصحبه ، ونفيهم خارج البلاد . ومما امتازت به الثورة يومئذ أن النساء خلعن الحجاب ، لأول مرة فى تاريخ الشرق الحديث ، واشتركن فعلا فى المظاهرات العامة . وكان الألوف من المتظاهرين يحملون أعلاماً تعانق فيها الهلال والصليب ، ووقف الأئمة يخطبون فى الكنائس خطباً حماسية ، كما وقف القساوسة يخطبون فى الجامع الأزهر خطباً تتأجج حمية ووطنية . ولم يمض شهر حتى اضطرت سلطات الاحتلال أن تفرج عن « سعد زغلول »

وصحبه ، وتعيدهم من منفاهم . وفى سنة ١٩٢٢ أعلن الإنجليز انتهاء الحماية على مصر . وظلت مصر تكافح حتى ظفرت سنة ١٩٣٦ بإلغاء الامتيازات الأجنبية الظالمة المهينة التى كانت تحرم السلطات المصرية الحق فى القبض على المجرمين من الأجانب متلبسين بالجريمة إلا بعد أن يحضر رسول القنصلية التى يتبعها المجرم ،وفى هذا الانتظار فرصة يفلت فيها المجرم ويختفى أثر الجريمة . وبإلغاء الامتيازات خضعت الجاليات الأجنبية للحكم المحلى ، وانتهى الأمر إلى إلغاء المحاكم المختلطة ، وتلا ذلك بعد حين انسحاب جنود الاحتلال إلى قناة السويس .

ولكن الوثبة الكبرى كانت فى ثورة سنة ١٩٥٢ ، التى تولى تدبيرها وقيادتها وتوجيهها محرر مصر وصانع تاريخها الحاضر الرئيس « جمال عبد الناصر » وصحبه الأبرار ، فنالت مصر استقلالها عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ،واسترجعت قناة السويس ، وأنفذت المشروع العظيم « السد العالى » ، واتجهت بكل كفاياتها وطاقاتها للتطور والتعمير والإصلاح فى كل مرافق الحياة .

إنشاء مستشفيات الولادة وأقسام رعاية الأطفال

ذكرت فى فصل سابق كيف وفِّقت إلى أن ينشأ — لأول مرة منذ عهد «كلوت بك» مؤسس مدرسة الطب — قسم بالعيادة الخارجية لأمراض النساء ، وما تلا ذلك من تخصيص عشرة أسرّة بداخل المستشفى للجراحات الخاصة بأمراض النساء والولادات العسرة .

ولم يمض وقت طويل حتّى أخذت الطبقات الفقيرة تدعونى لمن تعسرت ولادتهن فى منازلهن ، فكنت أستجيب لهذه الطلبات بسرور . وكنت أبذل جهداً كبيراً فى دراسة كتب الولادة العسرة مثل كتاب «هرمان» Herman's difficut labour وكتابى «جيليت وإيدن» Jellet & Eden حتّى أطبق العلم على العمل ، فساعدنى ذلك على سد النقص الذى كنت أشعر به من ضعف مرانتى قبل ذلك فى الولادات عسرة كانت أو طبيعية . وما هى إلا أشهر قليلة حتّى بدأ أطباء أقسام العاصمة وحكيماتها ، وهم المكلفون — بمقتضى وظائفهم — إسعاف المتعسرات فى الولادة بمنازلهن ، إذ لم يكن فى البلاد المصرية كلها مستشفى خاص للولادة ، يستدعونى لمساعدتهم ، فكنت أقوم بذلك عن طيب خاطر . وقد تم الاتفاق بينى وبينهم على ألاّ أتقاضى أجراً على قيامى بهذه الولادات العسرة ، وألاّ أطالب بنفقات الانتقال . وساعدنى على القيام بهذه المهمة أنى وفقت منذ أول عملى إلى استخدام ممرض يدعى «حسنين» مرنته على تعقيم آلات الولادة والغيارات . وكذلك اشتريت جهازاً متواضعاً للتعقيم بالبخار ، كما اشتريت الآلات اللازمة للولادة ، ومنضدة عمليات يمكن فصل بعض أجزائها ليسهل حملها وإعادة تركيبها فى منازل المتعسرات . ورأيت لزاماً على

أن أحضر الماء المعقم معى ، فاشتريت لذلك إناء أسطوانياً يسع ١٠ لترات . ونشأت بينى وبين أطباء الأقسام مودة ، فأصبحوا لا يحسون أقل حرج فى استدعائى .

وكنت أبقى آلة التليفون بجانب سريرى ، حتى أستطيع إجابة طلبات الليل . وتفادياً من إضاعة الوقت فى استدعاء الممرض ، وضعت بعيادتى التى كان الممرض يقطن بها وصلة تليفونية ، فمتى وردت لى إشارة من أحد أطباء الأقسام اتصلت بحسنين الممرض ، ليحضر كل الآلات التى كانت تحفظ دائماً جاهزة معقمة وكذلك الماء المعقم فى مركبة ، ويمر بى ، فنذهب معاً إلى منازل المتعسرات .

وقد واصلت العمل على هذا النحو ، حتى وفقت إلى افتتاح مستشفى الولادة الملحق بقصر العينى بعد خمس عشرة سنة ، ولا أذكر أنى استطعت المبيت فى منزلى خلالها أكثر من يومين فى الأسبوع . ومما لاشك فيه أن عملى فى هذه السنين الخمس عشرة كان شاقاً جداً ، ولم يترك لى وقتاً كافياً للعمل فى عيادتى الخاصة ، ولكنى لم أضق به ، بلى كنت أؤديه بارتياح . وبفضله أفدت مرانة فى الولادات العسرة كانت عوناً لى فى تدريس الولادة بالكلية .

أما كيف افتتح قسم للولادة ، فهاك تفصيله :

على أثر وفاة زوجة السفير البريطانى لورد كرومر الأولى ، رأى لفيف من أصدقائها أن يقيموا مبنى للأطفال اللقطاء يطلقون عليه اسم السيدة المتوفاة ، سموه «ملجأ الليدى كرومر» ، وكان هذا المبنى ملاصقاً لمستشفى قصر العينى تابعاً له فى إدارته . ولكنى لاحظت بعد إقامة هذا الملجأ ببضع سنوات أنه لا يؤدى خدمة مفيدة . فاللقطاء كانوا عند دخولهم المستشفى فى حالة صحية سيئة لتعرضهم للأحوال الجوية قبل العثور عليهم ، فكان معظمهم إن لم أقل كلهم يموتون بالالتهاب الرئوى . فقدمت تقريراً إلى مدير المستشفى

المستر « ريتشاردز » فى شأن هذا الملجأ ، وطلبت منه أن يتصل بأعضاء مجلس إدارة ملجأ اللقطاء ويطلعهم على التقرير الذى قدمته ، وعلى رغبتى فى تحويل الملجأ إلى مستشفى للولادة، على أن يراعى إذا وافقوا، تخصيص بعض أسرته لمن يعثر عليهم من اللقطاء . واتفق أن كان لكثير من أعضاء اللجنة معرفة بى بحكم عملى الخارجى ، فوافقوا بالإجماع على ما طلبته . وقد أجريت تغييرات كثيرة فى المبنى عند تسلمه . وكان المبنى مؤلفاً من ثلاث طبقات ، فخصصت السفلى للعيادة الخارجية لأمراض النساء ، والطبقة الأولى للولادات الطبيعية ، والثانية للولادات العسرة . ولم يمر زمن طويل حتى اشتد الإقبال على المستشفى ، فلم يعد يتسع للعدد الكبير الذى كان يؤمه ، فلم أر بدًّا من التفكير فى حل لهذه المشكلة .

وفى سنة ١٩١٩ التى أصبت فيها بحمى التيفوس على أثر جراحة أجريتها لنفساء مصابة بهذه الحمى ، عنّ لى على أثر عودتى إلى العمل أن أفتتح فى مختلف الأحياء الوطنية المزدحمة بالسكان مراكز لتوليد الحوامل فى منازلهن ، وأن أبدأ العمل بافتتاح مركزين: أحدهما فى باب الشعرية والآخر فى بولاق ، بأن أستأجر حجرة أو حجرتين فى أحد المنازل ، وأن أكل إلى إحدى الحكيمات أو تلميذات التمريض أن تتلقى طلبات الراغبين فى توليد نسائهم بمنازلهم بلا أجر ، وأن أزود كل مركز بالآلات والغيارات والأدوية اللازمة . فإذا نجحت هذه التجربة عممتها فى الأقسام الأخرى . وفاتحت إدارة المستشفى فى ذلك فلم تقابل الفكرة بالاستحسان ، لا من المدير ولا من الرئيسة ، ولكنهما وافقانى على بدء العمل تحت مسئوليتى ، ففعلت . بيد أن مصلحة الصحة لم توافق على استخدام حكيمات المستشفى لهذا الغرض ، وهددت بقطع مرتبات الحكيمات اللاتى يقبلن العمل بهذه المراكز . وقد نفذت مصلحة الصحة تهديدها ، وحجزت مرتب حكيمتين قامتا بالعمل ، مدة ستة أشهر ، فكنت أؤديه لهما

من مالى الخاص . وسار العمل ببطء أول الأمر ، ولكن لم يمر شهران حتى انهالت الطلبات على المركزين ، وكنت أرسل واحداً أو اثنين من الأطباء المساعدين للمعاونة والإشراف ، كما أنى كنت أمر على المركزين بانتظام لتفقد سير العمل بهما . ولأول مرة فى مصر أمكن تنفيذ إجراء عمليات التوليد بمنازل الوالدات على نحو يضمن الكفاية الفنية ، مع اتباع طرق التعقيم على أتمها . ونجح التوليد الخارجى بمصر قبل أن تفتح مراكز التوليد الخارجى بإنجلترا بسنة تقريباً .

غير أننا فوجئنا بحملة قاسية على صفحات الجرائد السيارة ، نسب لى فيها أنى بافتتاح هذه المراكز لم أراع ما عسى أن يحدث من جراء إرسال طلبة للقيام بعملية التوليد دون إشراف كاف ، وحملونى ما ينجم عن ذلك مما ينافى الآداب بين الطلبة والطالبات والحكيمات . فبادرت باستدعاء أولياء أمور الطالبات والحكيمات وقلت لهم : « إن الوظيفة التى تتهيأ طالبات مدرسة الولادة للقيام بها هى إجراء الولادات بمنازل الوالدات ، وسيقمن بذلك من العام المقبل بعد حصولهن على الإجازة الدراسية . فما كلفتهن بعمله اليوم سيقمن به حتما بعد التخرج ، ولا أظن أنكم ستستأجرون (أغوات) لمرافقتهن وقتئذ ! » فضحكوا جميعاً ، فقلت لهم : « إذن وقعوا بإمضاءاتكم على أن خروج بناتكم للتوليد سيكون تحت مسئوليتكم » ففعلوا وهم مسرورون .

ومما يجدر بالذكر أنه لم تصل إلى السلطات الحكومية فى خلال الثلاث والأربعين سنة الماضية شكوى من مخالفة أخلاقية واحدة بين الطلبة والطالبات أو بين الطلبة والأهالى .

ولما تبينت مصلحة الصحة نجاح التوليد الخارجى ، رأت أنه لم تعد هناك فائدة من حجز مرتب الحكيمات فأمرت بصرفها . وبعد سبع سنوات من افتتاح هذه المراكز اتجهت المصلحة إلى تعميم استعمالها ، فاحتضنتها وأنشأت

مراكز رعاية الأطفال والأمهات فى أنحاء البلاد، وبلغت بها شأواً بعيداً . ويكفى أن أقول إن هذه المراكز تولت رعاية أكثر من ربع مليون ولادة فى العام الماضى .

ولما استبان لى نجاح مراكز التوليد الخارجى افتتحت بمستشفى الولادة ، وكنا نسميه فى ذلك الوقت « الملجأ » ، قسما جديداً لرعاية الحوامل اللاتى يطلبن التصريح لهن بأن تكون ولادتهن بالمستشفى . وقد خصصت له ثلاثة أيام فى الأسبوع ، تحضر فيها الحوامل لمراقبة الحمل والصحة العامة وتحليل البول وقياس ضغط الدم ، وغير ذلك من ضروب الفحص .

وبعد ذلك أنشأت قسم رعاية الأطفال بقصر العينى ، وكان زميلى الأستاذ « دوبين » قد تطوع فى الحرب العالمية الأولى، وأصابه بعد ذلك ما استدعى جراحة كبرى عاد بعدها إلى العمل . ولما شاهد ما تم فى أثناء غيابه سر كل السرور . وقد شرحت كل ذلك فى كتابى « التعليم الطبى فى مصر » History of Medical Education in Egypt الذى ألفته باللغة الإنجليزية ونشرته الجامعة سنة ١٩٢٩ .

وسأترك لصديقى وزميلى الدكتور « إبراهيم (باشا) شوقى » شرح ذلك ، مقتبساً فقرات مما قاله فى هذا الصدد فى الحفل الذى أقيم عند اعتزالى التدريس بكلية الطب. وكان سيادته فى ذلك الوقت مديراً لجامعة القاهرة — قال :

« الناحية الأولى :

هى خدمة الدكتور محفوظ الطويلة لمدرسة الممرضات والمولدات بقصر العينى ؛ فقد كان هو العمود الفقرى لهذه المدرسة التى أدت خدمات جليلة للبلاد بتخريج طبقة ممتازة من المولدات انتشرت فى انحاء القطر وبثت تعاليمها فى جميع أرجائه .

كان « محفوظ (باشا) » يدرس التمريض العام ثم فن الولادة لتلميذات المدرسة المذكورة، وبقى كذلك أكثر من ثلاثين سنة، فتخرج على يديه ما لا يقل عن

ألف مولدة أو حكيمة مكتملات التعليم والمران العملى . وكان كتاباه فى فن التمريض وفن الولادة، ولم يزالا، هما المرجع المعتمد فى دراسات هذين الفنين .

وكان عمله هذا، بالإضافة إلى واجباته كأستاذ لعلم أمراض النساء والولادة لطلبة كلية الطب ، ومشرف على قسم الولادة بقصر العينى .

الناحية الثانية :

هى إنشاؤه أول عيادة للحوامل فى مصر، ثم أول مركز لرعاية الطفل بعد ذلك بسنة . وكان هذا العمل فى الواقع نواة طيبة، أثمر بعد ذلك ونما ونشأ عنه مراكز رعاية الطفل والأمومة فى أنحاء البلاد .

بدأ العمل بتخصيص يومين فى الأسبوع فى غير أوقات العيادة الخارجية لفحص الحوامل وموالاة حالة الحمل عندهن إلى أن يشرفن على الوضع، فإما يدخلن المستشفى أو ترسل لهن مولدة أو طالب أو طبيب لمباشرة توليدهن بمنازلهن .

وما إن عدت من بعثتى العلمية فى سبتمبر سنة ١٩٢٠ حتى تسلمت الجزء المتمم لما بدأه «محفوظ» لرعاية الأمومة، ألا وهو رعاية الرضع، كجزء من عمل مركز رعاية الطفل الذى أنشأه لأول مرة فى قصر العينى .

وعلى نظام هذا المركز والاسترشاد بتعاليمه، أنشأت وزارة الصحة سنة ١٩٣٧ قسم رعاية الطفل والأمومة ومراكز رعاية الطفل ، وقد بلغ عددها الآن فوق المائة مركز فى المديريات جميعا . » ا هـ

ومما لا شك فيه أن افتتاح ملجأ الولادة بقصر العينى، ومراكز التوليد ، وإنشاء قسم رعاية الأطفال ، وما أنشئ بعد ذلك من مستشفيات الولادة ، مثل مستشفى

السيدات بشبرا (كتشنر سابقاً) وكنت من الأعضاء المؤسسين له، وعملت به ما يربو على الثلاثين عاماً منذ إنشائه إلى يوم بلوغي سن التقاعد، وكذلك مستشفيات الأوقاف وغيرها ، إلى جانب اكتشاف مضادات الحيوية كالبنسلين والسلفا — كل ذلك كان من أهم الأسباب للحد من الإصابات بحمى النفاس التى كان انتشارها يجعل شركات التأمين على الحياة فى مصر ترفض أن تؤمن على حياة النساء .

وكذلك الحال فيما يتعلق بوفيات الأطفال ، فقد حد من انتشارها إنشاء المستشفيات الخاصة ، وهى موزعة بين النطاق الحكومى والجمعيات الأهلية . ففى النطاق الحكومى عمل الدكتور « إبراهيم شوقى (باشا) » على رعاية الأطفال فى مستشفى « أبو الريش » وفى « قصر العينى » . أما خارج النطاق الحكومى فقد كان للدكتور « حافظ عفيفى (باشا) » أكبر الفضل ، إذ أقام مستشفى جميلا للأطفال بجانب «مستشفى الدمرداش» . فلما تحول إلى كلية للطب ضم المستشفى إلى الكلية كما أن « مستشفى أبو الريش » الذى أنشأه أيضاً ضم إلى كلية طب القاهرة، وأنشأ بعد ذلك مستشفى فى حى « السيدة زينب » وأنا أحد أعضاء مجلس إدارته ، ولعله أكبر مستشفى للأطفال فى مصر .

ولا يفوتنى أن أذكر بالتقدير مراكز رعاية الأطفال المنتشرة بالقاهرة ، وهى التى أنشأتها جمعيات ضمت عدداً كبيراً من السيدات الأجنبيات فى بادئ الأمر ، تحت اسم مستشفيات « اللادى كرومر » ثم « الليدى لويد »، وكنت أنا عضواً فى مجالس إدارتها ؛ وقد تولت الآن رياستها السيدة حرم الدكتور « حافظ عفيفى (باشا) » وأظهرت كفاية ممتازة فى تسيير دفتها . وتولى العضوية بها لفيف من كرائم السيدات المصريات ومن الرجال البارزين مثل « عبد الخالق حسونة (باشا) » وبعض الأطباء المصريين ، وأنا منهم .

متاعب يتعرض لها المولدون

لما تعددت مستشفيات الولادة ، وأخذ الأطباء المولدون ينشئون لأنفسهم مستشفيات خاصة يقومون فيها بعمل الجراحات النسائية والتوليد ، حلت مشكلة جانبية كانت دائماً مثار ضيق للأطباء والحكيمات الذين يستدعون للإشراف على عمليات الولادة بمنازل الحوامل . ذلك أن كثيراً من طلبات الاستدعاء كانت ترد ليلا ، وعلى الأخص فى الساعات المبكرة بعد منتصف الليل . وقد كان يطيب لبعض اللصوص أن يستدرجوا الأطباء والحكيمات لإسعاف سيدة متعسرة فى الولادة ، فتى خلوا بهم سلبوهم كل ما يكون معهم من المصوغات أو النقود ، فضلا عن الذعر الذى يتعرضون له بتهديدهم بالمسدسات . وإنى أذكر مثلاً ثلاث حوادث وقعت فى أيام متقاربة ، حدثت أولاها لمستر « مادن » أستاذ الجراحة بكلية الطب ، استدعاه شاب يدعى « شاكر » وسيم الطلعة حسن الهندام لإجراء عملية قيصرية ببلدة فى الوجه البحرى . وأفهمه أن فلاناً وفلاناً وفلاناً من تلاميذه الأطباء قد قاموا بتحضير كل لوازم الجراحة ، وهم فى انتظاره . واتفق اللص مع المستر « مادن » أن يقوما فوراً بقطار الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهو الذى يصل فى الساعة الخامسة ، فيستطيع الطبيب بذلك أن يجرى الجراحة ويعود إلى القاهرة بقطار المساء . وسارا معاً إلى المحطة ، فادعى اللص أنه نسى كيس نقوده ، وطلب من المستر « مادن » وهما بالمحطة أن يقرضه عشرة جنيهات ، فأعطاه إياها . فذهب الشاب ليشترى تذكرتى السفر ولم يعد ، وتفقد المستر « مادن » ساعته الذهبية فوجد أنها نشلت منه .

وحدث بعد ذلك بيومين أن ذهب لص إلى السيدة « عائشة سامى » ، وكانت

من الحكيمات المشهورات ، وطلب منها الحضور لإسعاف زوجته المتعسرة في الولادة ، وكان ذلك في الساعة الثانية صباحاً ، فاستجابت الحكيمة لطلبه ، واستدرجها إلى مكان منعزل ، وانتزع منها مصوغاتها ونقودها وهو يهددها بالمسدس .

ولم يشأ اللصوص أن يستثنوني من هذا الشرف ، إذ لم يمض أسبوعان على حادث المستر «مادن» حتى شرفني السيد «شاكر» بزيارته . ومن سوء حظه أنه لم يكن يعلم بأن المستر «مادن» أفضى إليّ بما حدث . فمر سيادته بمنزلي وأعاد الحديث الذي دار بينه وبين المستر «مادن» ، فأدخلته قاعة الاستقبال ، وانتظرت حتى أتى الخادم بالقهوة ، وأوعزت إليه أن يبقى بالقاعة حتى أعود ، وخرجت فاتصلت بضابط الشرطة بقسم باب الحديد تليفونياً ، وكان مقره لا يبعد عن منزلي أكثر من دقيقة ، وقصصت على الضابط ما حدث . وكان هذا الضابط من المترددين على عيادتي ، فما أسرع أن حضر بنفسه مصطحباً أحد رجال الشرطة ، وقبض على السيد «شاكر» وقاده إلى القسم .

ولهذا الحديث جانب مضحك ، فإنني عند عودتي إلى المنزل بعد أن كتبنا محضر الواقعة وجدت الخدم مصطفين في قاعة الاستقبال ، وكان أحدهم ، ويسمى « حسب الله » ، قد شاهد أن اللص ما كاد يرى الضابط حتى أخرج شيئاً من جيب سترته وألقاه تحت الأريكة التي كان جالساً عليها . واعتقد « حسب الله » أن الذي أخفاه تحت الأريكة ليس إلا قنبلة لا تلبث أن تنفجر ، فأحضر عصاً معقوفة الرأس ، وأراد أن يخرج بها القنبلة ، وحاول ذلك مراراً ، وفي كل مرة يفزع الخدم فيتراجعون ، ويقولون « لحسب الله » : « حاذر أن تنفجر» ، فلما دخلت رأيت أن نرفع الأريكة ونرى ما تحتها ، ففعلنا ، فوجدنا محفظة بها أوراق ، فأرسلتها إلى مركز الشرطة . وظهر بعد التحريات أن هذا اللص طالب فاشل ، في كلية الحقوق ، وله جملة سوابق

فى النصب والاحتيال ، فحكم عليه بالسجن ستة أشهر .

وهناك حادث شروع فى نصب حدث لى أيضاً ، فقد جاءنى رجل يستدعينى فى الساعة الواحدة صباحاً لإسعاف زوجته ، فاستجبت لطلبه ، وأخذت آلات الولادة ، واستأجرت مركبة خيل ، وشرعت أستجوب الرجل فتلجلج ، وتناقضت أقواله ، فقلت للسائق ونحن على مقربة من مركز الشرطة : قف هنا قليلا ، فإنى أريد أن أترك للمنزل إشارة تليفونية أخبرهم فيها بالجهة التى أنا ذاهب إليها » . فنزلت من المركبة ، ولم أكد أفعل حتى قفز الرجل من الجهة المقابلة واختفى عن الأنظار .

* * *

ويحلو لى بعد أن ذكرت بعض ما يعمد إليه رجال السوء من محاولة استدراج الأطباء والحكيمات إلى أمكنة مقفرة ليسلبوهم أموالهم ، أن أشير إلى الوجه المشرق من الأخلاق الحسنة ، والشهامة التى تتجلى أحياناً فيمن يتطوعون لمساعدة من يقع فى مأزق . فمن ذلك أننى كنت مرة فى مزرعة صغيرة لى خلال صيف سنة ١٩٢١ ، فاتصل بى صديق كان يصطاف فى (بور سعيد) وأخبرنى بأن كريمته متعسرة فى الولادة ، وأن نزفاً فاجأها ، والأطباء الذين يتولون علاجها يرغبون فى حضورى ، فلبيت الدعوة بلا إبطاء ، وقمت إلى (بور سعيد) ؛ ولم أكد أصل إلى (الإسماعيلية) حتى وجدت الطريق منقطعاً بسبب فتح ترعة ، ولم يكن بد من أن تجتاز السيارة الترعة إلى الجهة المقابلة ؛ فوقفت حائراً لا أدرى ماذا أفعل . واتفق أن عمال « الدريسة » كانوا راجعين بعد الانتهاء من عملهم ، فشاهدوا حيرتى فأقبلوا يساعدوننى ، وحملوا السيارة وأنا داخلها ؛ واجتازوا بها الترعة إلى الشاطئ المقابل ، فقدمت لرئيسهم قدراً مجزياً من المال ، فأبى أن يقبل جزاء على إسعاف قام به هو ورجاله . ووصلت إلى (بور سعيد) . وانتهى الوضع بسلام ، وكان المولود ذكراً هو الآن أحد مساعدى بالمستشفى القبطى .

ومن غرائب الاتفاق أنه لم تمض عشرة أيام على هذا الحادث حتى دخلت سيدة متعسرة فى الولادة إلى المستشفى القبطى ، وقمت بعمل اللازم لها . ولما جاء والدها يسأل عن الأجر ، وجدت أنه هو رئيس عمال « الدريسة » الذين حملوا سيارتى ، فأعفيته من أن يؤدى لى شيئاً ، بل لقد رفعت عنه نفقات الإقامة فى المستشفى .

ومن هذا القبيل أيضاً أننى استُدعيت إلى ولادة متعسرة فى (مركز الصف)، وكان ذلك الوقت وقت فيضان النيل ، والمياه مرتفعة تكاد تطغى على الجسور ، ولكنى لم أجد صعوبة فى الوصول إلى القرية التى أقصدها . وكان بصحبتى أحد أقرباء المريضة المتعسرة فى الولادة ، ووصلنا ظهراً ؛ وبقيت ست ساعات ملازماً المريضة إلى أن زالت عنها الأعراض الخطرة . وكانت مصابة بتمزق فى الرحم .وفى عودتى مساء لم أكد أصل إلى منتصف الطريق حتى اتضح لى أنه فى خلال الساعات التى بقيتها بالقرية حدث قطع فى جسر النيل أوجب استدعاء المراكب الحاملة للأحجار التى تستعمل لسد القطع ؛ وقد كدست هذه الأحجار فوق الجسر ، بحيث يتعذر مرور السيارة . وحدث هذه المرة ما حدث فى سابقتها ، إذ أقبل الفلاحون حيث وقفت عاجزاً عن السير ، ورفعوا السيارة على أكتافهم واجتازوا بها فوق الحجارة المكدسة على الطريق . ومما أثار دهشتى أنهم هم أيضاً أبوا أن يقبلوا على عملهم أجراً، إلا بعد إلحاح منى شديد .

في سبيل الحق

(١)

في ساحة القضاء

اقتضى الأمر في بعض القضايا المطروحة على المحاكم أن يؤخذ رأيي فيها من الوجهة الطبية الفنية البحتة ، تجلية لوجه الحق ، ورفعاً للنزاع . ولما كان حديث هذه القضايا لا يخلو من طرافة أو عبرة ، فسأجمل فيما يلي ما جرى في قضيتين منها لهجت بهما الصحف والمجالس في البيئات الراقية وقتاً غير قصير .

* * *

أما القضية الأولى فتتعلق بسيدة من السراة تزوجها ثري كان يملك ألوف الفدادين في مديرية الدقهلية . وكان متزوجاً قبلها سيدة أعقب منها ولداً وبنتاً . ومات الرجل بعد سنة من زواجه الثاني . فادعت الزوجة الجديدة بعد وفاته بخمسة أشهر أنها وضعت مولوداً ذكراً ، وبذلك يصبح لها الحق في أن ترث هي وابنها نصف ثروة الرجل . ودارت رحى النزاع بين الزوجتين في المحاكم زمناً طويلا . واستطاعت الزوجة الجديدة أن تظفر بقرار من كبير الأطباء الشرعيين يثبت أنها حملت فعلا ، وأن علامات الولادة واضحة لا جدال فيها ، فحكمت لها المحكمة الابتدائية بكل ما طلبت . فاستأنفت الزوجة الأولى هذا الحكم أمام محكمة الاستئناف . وتضاربت آراء الأطباء الذين ندبتهم المحكمة للفحص أشد التضارب ، فأصدرت المحكمة قراراً بأن أتولى أنا فحص هذه السيدة ، على أن يكون رأيي هو القول الفصل . وقبل يومين من الموعد المحدد للفحص ، أقبلت السيدة هي وطبيب معروف على عيادتي . ولما دخلا

عندى شرح لى الطبيب تفاصيل الموضوع . وما لبث أن فتح حقيبة كانت بيد السيدة ، وقال لى : كل ما فى هذه الحقيبة من المال لك ، وإن موضوع النزاع هو ألف فدان ، فإذا قدمت السيدة لك ثمن مائة منها فهى الرابحة ، لأن قرارك لمصلحتها يتيح لها أن تظفر من الميراث بنحو النصف . ولما انتهى الطبيب من قوله ألقيت عليه درساً قاسياً فى طهارة الذمة وشرف المهنة ، وصرفته هو والسيدة من عيادتى يجرران أذيال الخزى . ثم طلبت من المحكمة إعفائى من تلك المهمة . ولكن المحكمة أصرت على أن أنهض بها ، فأذعنتُ ، وفحصتُ السيدة ، فوجدت أثرة التحام جرح فى العجان ، كما وجدت تمزقاً فى عنق الرحم ، وذلك هو ما بنى عليه الأطباء الذين فحصوا السيدة من قبل قرارهم فى شأنها ، إذ حسبوا أنه نشأ بسبب ولادة الجنين ، ولكنى لم يخالجنى شك فى أن أثرة الجرح مفتعلة ، وكذلك التمزق الذى فى عنق الرحم ، وأنهما من عمل المشرط . واطمأننت إلى أن السيدة لم تحمل قط . فكتبت فى ذلك قراراً أخذت به المحكمة ، ورفضت ما طلبته تلك الزوجة . والطريف من الأمر أن نزاعاً نشب بين السيدة والطبيب الذى افتعل لها هذه الجروح ، نظير مائة من الجنيهات . ورفع النزاع إلى القضاء ، وأفشت السيدة سر الخصومة ، فكان فى ذلك فضيحة كبيرة تحدث بها الخاص والعام .

* * *

وأما القضية الأخرى فقصتها أن سيدة من البيوتات الكبيرة تزوجت ثرياً موقوفاً عليه مزرعة شاسعة مساحتها ألف فدان ، وفى نص الواقف أن الوقف يئول إلى الذكور دون الإناث . ومات هذا الثرى معقباً خمس بنات ، فوجب أن يئول الوقف إلى ابن شقيقه الأصغر . ولكن زوجة المتوفى أعلنت عقب الوفاة أنها حامل فى شهرها الثانى ، فأحالتها المحكمة إلى كبير الأطباء الشرعيين للفحص ، فلم يصدر قراره من فوره ، وإنما رغب إلى الزوجة فى أن

نتردد عليه ، ووعد بإرسال قراره بعد تمام الولادة ، وجاء يوم المخاض ، وتفقدوا كبير الأطباء الشرعيين ، فلم يجدوه ، فتولى الولادة طبيب معروف ، وساعده فى التخدير أستاذ مساعد فى كلية الطب اتفق حضوره فى منزل السيدة ساعة التوليد ، وكان المولود ذكراً . وجاء الطبيب الشرعى بعد زمن غير طويل ، فطلبت منه السيدة أن يفحصها ليقرر أنها وضعت مولوداً ذكراً ، ولكنه أرغى وأزبد، وقال : « إن السيدة لم تكن حاملا قط ، وليس المولود ابناً لها »، وقدم تقريره إلى المحكمة متضمناً هذا الرأى ، فلم تجد المحكمة بدًّا من أن تكلف طبيباً آخر فحص تلك السيدة ، فجاء تقريره مبايناً لتقرير الطبيب الشرعى . واستمر النضال بين الأطباء أربعين يوماً . فاختارت المحكمة ثلاثة أطباء هم الدكتور «دوبين» أستاذ الولادة، والدكتور «هاملتون» الطبيب الشرعى ، وكاتب هذه السطور . فأبى « دوبين» Dobbin و « هاملتون » Hamilton القيام بالفحص لأن علامات الولادة تزول بعد أربعين يوماً ، ولكنى خالفتهما فى الرأى ، على الرغم من أن أولهما كان رئيساً لى ، وفحصت السيدة ، وقدمت وحدى تقريراً أحالته المحكمة إلى الطبيبين الآخرين ، فدرساه ، واتفقا على أن نجتمع نحن الثلاثة للفحص ، ففعلنا ، وأثبت لهما بالدليل القاطع صحة ما ذهبت إليه ، فاقتنعا . وقدمنا تقريراً جماعيًّا بأن هذه السيدة كانت حاملا وأنها وضعت حملها ، فحكمت لها المحكمة بصحة دعواها .

(ب)

فى مجلس كلية الطب

كثيراً ما كانت التيارات السياسية وغير السياسية تحاول أن تتدخل فى الشئون الخاصة بكلية الطب . وأنا عضو فى مجلسها . وقد كنت فى حرصى على سمعة الكلية ، وعلى أن تتحقق النزاهة فى تصرفات المجلس ، وعلى أن تتغلب الاعتبارات العلمية على كل اعتبار ، أقف فى وجه هذه التيارات ما استطعت إلى ذلك سبيلا . وسأذكر هنا بعض المواقف ، تجلية لتلك الصور من حياتنا الماضية، بخيرها وشرها، لكى تكون لجيلنا الجديد عظات نافعة .

* * *

فمن ذلك أن الأبنية الجديدة لمستشفى المنيل الجامعى كانت فى حاجة إلى عشرين ألف جنيه ، وتلكأت الوزارة فى الصرف ، فالتقى عميد الكلية برئيس الوزراء ، وفاتحه فى الأمر ، فوعد الرئيس بالموافقة على صرف المبلغ المطلوب . واتفق فى ذلك الوقت أن أحد أطباء الامتياز ، وهو نجل رئيس الوزراء ، كان يرغب فى الانضمام إلى قسم أمراض النساء . والمتبع أنه لا يعين طبيب دائم فى أحد الأقسام إلا بعد إتمامه سنة الامتياز بنجاح ، وبعد أن يحوز المؤهلات اللازمة لتعيينه نائب جراح فى ذلك القسم . ثم يبقى سنتين ، فإن أظهر فى عمله كفاية اختير للسفر فى بعثة علمية لنيل درجة الزمالة ، وحين يعود يعين معيداً سنتين ، ثم يرقى مساعداً . ولكننا فوجئنا بقرار وزارى — ظهر فى جريدة « الوقائع المصرية » — بتعيين نجل رئيس الوزراء مساعداً بقسم أمراض النساء . فلما اجتمع مجلس الكلية دار النقاش طويلا بين الأعضاء فى شأن هذا القرار ، ورأى المجلس آخر الأمر أن يوافق عليه ، رعياً لشدة

الحاجة إلى موافقة الوزارة على المال المطلوب للأبنية . ولم أجد بدًّا من الاعتراض، ورغبت إلى المجلس فى أن يأذن لى فى لقاء رئيس الوزراء ، وكنت طبيباً لأسرته، وقد توليت العناية بزوجته وهى تضيع هذا الابن الذى يدور حوله النزاع . وأذن المجلس لى فى لقاء الرئيس لذلك الغرض ؛ ولما لقيته شرحت له الأضرار التى تنجم عن هذا القرار ، وأبنت له أنه ليس من الخير لابنه أن يقفز من طبيب امتياز إلى مساعد فى قسم أمراض النساء والولادة ، دون اجتياز المراحل المقررة ، فسيعرضه ذلك للمهانة بين رفاقه ، وسيكون هذا الاستثناء سابقة وخيمة العقبى بالنسبة لنظام التعيين فى كلية الطب . فشكر لى رئيس الوزراء موقفى ، وقال لى إنه لم يكن يعلم أن فى هذا القرار مخالفة للوائح والقوانين ، وأن عميد الكلية لم يذكر له من ذلك شيئاً ، وأنه إنما رحب بانضمام ابنه إلى قسم أمراض النساء والولادة ، لأنى رئيس هذا القسم ، ويعتقد أنى سأجعل من ابنه طبيباً قديراً . وكلفنى أن أبلغ المجلس سحب الوزارة لقرار التعيين .

* * *

ومما حدث أن مجلس الكلية عرض عليه أن يعين أحد الأطباء مساعداً بقسم أمراض النساء والولادة ، وكان قد فصل من البعثة لرسوبه فى امتحان الزمالة ثمانى سنوات . ولم يكن هذا الطبيب مرغوباً فيه لأسباب رآها أساتذة القسم وجيهة جدًّا ، وأقر المجلس رأيهم ، وأبى إعادته إلى الخدمة وتعيينه مساعداً بقسم أمراض النساء والولادة . ولكن هذا الطبيب استعدى على المجلس رئيس الوزراء فى ذلك الحين ؛ وكانت له به صلة قوية ، فاستخدم الرئيس نفوذه فى إقناع مجلس الكلية بالعدول عن رأيه ، وإقناع مجلس الجامعة بالموافقة على تعيينه ، فلم ينجح . ومر بى فى منزلى لهذا الغرض . ولما أخفقت محاولاته أصدر قراراً وزاريًّا بتعيين هذا الطبيب أستاذاً مساعداً بقسم أمراض النساء . فرأى الدكتور

« دوبين» والدكتور « شفيق (باشا) » — ورأيت أنا أيضاً — أن نقدم استقالتنا احتجاجاً على هذا التعيين ، واستقال كذلك أستاذ الجراحة البروفسور « هنري » Henry تضامناً معنا ، وانقطع أربعتنا عن العمل ثلاثة أشهر . ثم تولى « على ماهر (باشا)» رياسة الوزراء ، فأصدر فى يوم تقلده الحكم قراراً برفض استقالتنا ، وأقنعنا بوجوب العودة إلى العمل ، وألغى القرار الصادر بتعيين ذلك الطبيب غير المرغوب فيه . فعدنا إلى العمل . ولسبب ما رأت إدارة الجامعة أن تقطع مرتباتنا عن الأشهر الثلاثة التى انقطعنا فيها عن العمل !

* * *

ومن الحوادث التى تستحق الذكر أن مجلس الكلية أعلن خاو وظيفة أستاذ الأمراض الباطنية ، ولاضطراب الأحوال فى ذلك الوقت لم يتقدم أحد من الأساتذة الأجانب اللائقين لشغل هذا المنصب ، وتقدم عدد كبير من أطباء الدول المختلفة ولم يكونوا حائزين للمؤهلات المطلوبة . وكان بين هؤلاء طبيب يدعى «شرومف» Schrumph Pierron ، فحضر إلى القاهرة عقب تقديم طلبه . وبطرق ملتوية اتصل بأعضاء الوزارة . وتعرف إلى الدكتور « ولسون » Wilson أستاذ الفسيولوجيا ، وهو يومئذ نائب لعميد الكلية ، فأفهمه بأنه على اتصال بالملك « فؤاد » وأنه سيسعى ليولى «ولسون» منصب العمادة ، فهو أليق شخص . فلما عرضت أوراق المتقدمين لشغل وظيفة أستاذ الأمراض الباطنية على المجلس ، دافع الدكتور « ولسن » عن طلب « شرومف » وأوصى بقبوله . فاعترضت على ذلك لسبب عددته وجيهاً ، وهو أنه بمراجعة أوراق « شرومف » اتضح أنه لم يمكث فى وظيفة من الوظائف الست التى تولاها قبلا أكثر من ستة أشهر . وفى اثنتين منها استغنى عنه بعد أشهر ثلاثة . واقترحت على المجلس أن يستفسر من الجهات التى عين فيها من قبل عن الأسباب التى دعت إلى

سرعة الاستغناء عنه قبل إتمام المدة المتعاقد عليها معه . بيد أن اقتراحى هذا لم يرق للدكتور « ولسون » ، ولا للجبهة المتطرفة اليسارية فى المجلس ، وكان زعيمها فى تلك الفترة الدكتور « خليل عبد الخالق (بك) » . وهو أستاذ كفء فى عمله ، قوى فى حجته ، فأبان للمجلس أن « شرومف » صاحب كتاب فى أمراض القلب كتب مقدمته الأستاذ « فاكيز » Vaquez من أشهر أطباء هذا الفرع فى العالم ؛ وإلى جانب ذلك أخرج « شرومف » مائة بحث فى شتى الأمراض الباطنية . فأقر المجلس تعيينه . وبعد ذلك بقليل انضمت مدرسة الطب إلى الجامعة ، وأصبحت إحدى كلياتها وكان من أثر هذا الانضمام أن ألفت لجنة لبحث كفايات الأساتذة القائمين بالعمل ، وكنا نسميها « لجنة الغربلة » ، وكان من أعضائها البارزين الدكتور « ولسون » والدكتور « شرومف » وانتهت اللجنة إلى وجوب فصل عدد كبير من الأساتذة والمساعدين من الأطباء المصريين ؛ وبين من شملهم العدد جراح عظيم ادعوا أنه مهمل فى إلقاء محاضراته ، وفى المرور بمرضاه . وثارت ضجة كبيرة رفع بسببها اسم هذا الجراح من القائمة ، واختصر العدد من اثنى عشر إلى خمسة من أفضل الأساتذة ، ولم يعترض المجلس على قرار اللجنة ، وإن كان معظم الأعضاء على ثقة بأن هؤلاء المفصولين أفضل ممن لم يشملهم قرار الفصل . فأخذت على عاتقى أن أفسد على اللجنة قرارها المغرض المعيب ، فتوجهت إلى رئيس الوزراء « عدلى (باشا) » وكانت لى به صلة ، وكنت طبيب أسرته ، سنين عديدة ، فكشفت له عوامل الفساد التى كانت تتفشى فى المدرسة والمستشفى . وأبنت له سوء نية اللجنة فى قرارها الغاشم . فأمر بإجراء تحقيق دقيق أسفر عن إلغاء قرار اللجنة ، وعودة الأطباء المفصولين إلى مناصبهم ، إلا واحداً منهم أتيح له منصب أفضل فى مستشفى المواساة بالإسكندرية .

وفى كتابى « تاريخ التعليم الطبى فى مصر » الذى أخرجته باللغة الإنجليزية

History of Medical Education in Egypt ، شرحت الحالة التى انحطت إليها الكلية فى المدة التى كان « شرومف » أستاذاً بها . وأزيد على ذلك هنا أن الكلية كانت فى تلك الفترة بؤرة للدسائس والمكايد والتجسس . وقد استطاع « شرومف » ومناصروه من صغار الأطباء أن يؤلبوا الكلية حولهم ، ليتعصبوا لهم ؛ وكان مما يغري الطلبة بذلك أن « شرومف » كان يدخل قاعات المحاضرات عند دنو الامتحان ، ويملى الأسئلة التى سوف يطلب الإجابة عنها ، ويرشد إلى الأجوبة الصحيحة . أما كفاية « شرومف » العلمية فلم يكن لها وزن ، وأذكر مثلا أنه شخّص مرضاً بأنه قرحة فى المعدة ، وطلب من الدكتور « على إبراهيم (باشا) » إجراء الجراحة ؛ فلما شق البطن لم يجد القرحة . فأشاع « شرومف » أن المريض استبدل به مريض آخر قبل الجراحة بوقت . وكان التشريح المرضى لجثث الذين يموتون من مرضى « شرومف » يكشف عن جهله المطبق بأصول الطب . ويؤسفنى أن هذا الرجل كان يلقى من الوزراء ومن الملك نفسه تعضيداً ، لما يقدمه لهم من خدمات خاصة ! . وأخيراً لم يستطع مجلس الكلية أن يقف مكتوف اليدين إزاء فضائحه ، فاتصل بعض الأعضاء بطبيب القلب العالمى الذى ادعى « شرومف » أنه كتب مقدمة كتابه ، وسأله عن ذلك ، فأنكر البتة أنه يعرف « شرومف » ، ووصف الكتاب بعد اطلاعه عليه بأنه مشحون بالأخطاء ، ووعد باتخاذ الإجراءات القانونية ضده . واتفق أن أستاذ الكيمياء كانت له شقيقة متزوجة من أستاذ فرنسى فى جامعة « ستراسبورج » التى تخرج فيها « شرومف » ، فكتب إلى شقيقته يستعلم عن ذلك الرجل ، فجاءه الرد مسجلا تاريخه الأسود .

على أن « شرومف » ظل هو وساعده الأيمن الدكتور « ولسون » ، يلحقان الأذى بالكلية . ولكن يد العناية الإلهية كانت لهما بالمرصاد . فقد عنّ للدكتور « شرومف » ، أن يكتب فى مجلة « الكشكول » طعناً بغير إمضاء

فى كفاية الأساتذة الإنجليز بمدرسة الطب ، متهماً إياهم بأنهم جهلاء . فنبه أحد الأساتذة الإنجليز السفارة البريطانية إلى هذا الطعن ، فأجرت السفارة تحقيقاً ظهر منه أن « شرومف » — وهو من رعايا « فرنسا » — كان جاسوساً مأجوراً للحكومة الألمانية . ونمى إلى « شرومف » و « ولسن » أن شيئاً يدور فى الخفاء ، فاتصل بى « ولسون » وقال لى إنه علم بأن بعض الأطباء يكيدون له « ولشرومف » . وطلب منى أن أنصح لهم بالعدول عن هذا الكيد ، وإلا كانت العاقبة عليهم وبالا ، فهو وصاحبه « شرومف » حائزان لثقة الملك « فؤاد » والوزراء . وفى اليوم التالى وقف « شرومف » فى حديقة المستشفى على إحدى المناضد ، والطلبة متحلقون حوله، وخطب قائلا : «إن الغرض الذى يسعى إليه من إعلاء شأن الكلية قد حان تنفيذه، وسينزل الأساتذة الذين لا كفاية لهم عن الكراسى التى يتربعون عليها . وسيستبدل بهم غيرهم من فطاحل العلماء ومن الأساتذة المساعدين الذين هضمت حقوقهم، وهم أعلى من رؤسائهم كعباً فى المعرفة والخبرة » . واستطرد « شرومف» قائلا : « يسوءنى أن "نجيب محفوظ" أيضاً وهو من الأساتذة الذين أشهد لهم أنا و "ولسون" بالكفاية، قد انقاد لأولئك الكائدين المشاغبين ، ولذلك سيكون أول من ينالهم التغيير » . وما وصل إلى هذا الحد من خطبته حتى كان أحد السعاة يشق طريقه إليه ، وفى يده رسالة . وبعد أن أدى له تحية التعظيم ناوله الرسالة . وما كاد « شرومف » يفضها ويقرأ ما فيها حتى ترنح فوق المنضدة ، وسقط مغشياً عليه ، فأسرع إليه أصدقاؤه من الأطباء يسعفونه . وكان محتوى الرسالة أن وزير المعارف ينبئه بأن الجامعة قررت فصله ، وعليه مغادرة الكلية من فوره . وفى هذا الوقت كان رجال الشرطة قد أغلقوا مكتبه وختموه بالشمع الأحمر . ولم يمض يومان بعد ذلك حتى كان « ولسون » قد أعفى من القيام بعمادة الكلية ، وأعيد إلى قسم الفسيولوجيا ، فبقى به ستة أشهر أحيل بعدها إلى المعاش .

وقد بقى « شرومف » –بعد فصله– فى «القاهرة» ، حتى حدث ما دعا إلى طرده من البلاد . وذلك أن ولى العهد الأمير « محمد على » أصيب بذبحة صدرية، فاستدعى السير « جون باترسون » Sir John Paterson لفحصه ، وهو من أكبر أطباء القلب فى العالم ، ففحصه ، وأشار عليه بملازمة الفراش شهرين . ولكن الأمير كان يرغب فى السفر إلى الخارج . فأشير عليه باستدعاء « شرومف» . فلما فحصه قرر أن قلبه ليس به مرض ، وأن الإنجليز دبروا له هذه الحيلة : منعا له من مغادرة البلاد ، ونشرت الصحف السيارة تقرير « شرومف » . وعقب ذلك وردت معلومات سرية اقتضت طرد « شرومف » من مصر ، فسافر إلى « ستراسبورج » ، وهنالك قبضت عليه الشرطة الفرنسية ، وقدمته إلى المحاكمة فى قضية جاسوسية خطيرة ، فحكم عليه بالإعدام بالمقصلة .

* * *

وفى تلك الحقبة كان تعيين الأطباء موكولا إلى رؤساء الأقسام : وقلما رد المجلس طلباً لأحدهم مهما تكن مخالفته للعدالة ، ومجانبته للمصلحة العامة . وقد حاولنا إصلاح ذلك الخلل ، وعارضنا فى اتباع تلك الخطة ، فكانت محاولتنا عبثاً ، وذهبت معارضتنا أدراج الرياح . فعن لى أن أضع مشروع قانون يتضمن نظاماً لتعيين أطباء الامتياز والنواب ، بحيث يكفل انتخاب ذوى الكفايات . وفى هذا المشروع نصصت على أن تخصص لكل طالب بطاقة فى القسم الذى يلتحق به عند دخوله المستشفى . وفى نهاية مدة الالتحاق يبدى الأستاذ رأيه فى كفاية الطالب . وجعلت المراتب على هذا النحو : ممتاز ، جيد، متوسط ، ضعيف، غير لا ثق . وأشرت بأن يكون لكل طالب ملف خاص تحفظ فيه بطاقاته بعد خروجه من الأقسام التى عمل فيها. ومتى تخرج وتقدم

لشغل وظيفة طبيب امتياز ، تكتبت قائمة فيها المراتب التى حازها فى البطاقات مشفوعة بالدرجات التى أحرزها فى الامتحانات . وتضاف إلى ذلك بطاقة تذكر فيها الإدارة رأيها فى مدى مواظبته وما يتعلق بسيره وسلوكه ؛ وتجرى المفاضلة فى التعيين على حسب المجموع الكلى .

ولبث هذا المشروع فى يدى ، أنتظر له الفرصة المواتية ، حتى علمت بأن القصر الملكى يوصى بتعيين اثنين من الخريجين طبيبى امتياز . وكان هذان الموصى بهما متأخرين عن أقرانهما ، إلى جانب أن سمعتهما ليست على ما يرام . وفى تعيينهما إجحاف بحق اثنين مرشحين ، هما من أفضل الطلاب كفاية وأحسنهم خلقاً . وكان أعضاء المجلس يعرفون لهما فضلهما أثناء تدرجهما فى سنى الدراسة . ولما عرض الأمر على مجلس الكلية بادر الأعضاء بالاعتراض قبل أن تؤخذ الآراء ، وطلبت أنا أن يعين الأكفأ فالأكفأ . فوافق المجلس على قبول الاعتراض . وانتهزت الفرصة ، فعرضتُ مشروع القانون الذى كنت قد أعددته ، فقاومه الرئيس مقاومة عنيفة . ولكن المجلس تحمس للمشروع أشد التحمس ، ووافق عليه فيما يتعلق بانتخاب أطباء الامتياز . ولما تبينت للمجلس عدالة القانون وفائدته بعد ذلك ، طلب أن يسرى فيما يتعلق بتعيين الأطباء النواب واختيار أعضاء البعثات .

وطبق القانون ثلاث سنوات ، واختير فى ضوئه كثير من الأطباء ، أصبحوا فيما بعد ممن تفخر البلاد بكفاياتهم . وفى نهاية السنوات الثلاث جرى حادث أفسد علينا كل ما بذلنا من جهود لضمان اختيار الأكفاء . وذلك أنه أضيف إلى وظائف الأطباء وظيفة جديدة ، هى وظيفة «ناظر المستشفى» . فكان من اختصاصه حفظ ملفات الطلاب المحتوية على بطاقات المراتب التى حازوها . وكنت أنا فى ذلك الوقت نائباً لعميد الكلية ، ومن حق الاطلاع على طلبات التعيين

والبطاقات الملحقة بها . فبدأت أراجع بطاقات قسم أمراض النساء والولادة ، فهالني أن فيها تلاعباً واضحاً ، وأن إمضائى فيها مزور . فسارعت إلى لقاء العميد ، وأنهيت إليه ما كشفتُ عنه المراجعة . واقتنع بضرورة إبلاغ النيابة ، وأخذ منى البطاقات ، وأودعها مكاناً أميناً . ولكن التحقيق لم يأخذ مجراه ، واكتُفِى بأن أعيدت كتابة البطاقات المزورة .

وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفسى ، فقد أصبح القانون الذى كنا نعوِّل عليه فى خبر كان . ولطالما كافحت من أجل تدارك هذه الحال . ولكن تيارات خفية كانت تعرقل السير ، وتذهب بالسعى . فلم أملك إلا أن أستقيل من نيابة العميد التى توليتها عشر سنين . ثم استقلت من مجلس الجامعة لأسباب يطول شرحها ، وهى لا تتعدى ما كنا نشكوه من ألوان التدخل ، وإقحام الرغبات الشخصية ، والخضوع للاعتبارات التى تجانب العدل والإنصاف .

فى المؤتمر الدولى لأمراض المناطق الحارة

كان المؤتمر الطبي الذى عقد فى القاهرة سنة ١٩٢٩ أكبر مؤتمر عقد فى مصر فى العهد الحديث ، وقد اتخذنا له من التدابير ما يحميه من الاضطراب الذى تتعرض له المؤتمرات فى العادة . وكانت لجنة المؤتمر برياسة الدكتور «على (باشا) إبراهيم» ، ومن أعضائها الدكتور «خليل (بك) عبد الخالق» وأنا . واستقبل الملك (فؤاد) أعضاء اللجنة ، وسره أن يضع المؤتمر تحت رعايته . وسألنا عن التدابير التى اتخذت له ، فشرحناها له فأقرها ، ولكنه طلب القيام بتأليف كتاب يشرح تاريخ مدرسة الطب ، فاعتذرنا له بضيق الوقت ، إذ أن المؤتمر بعد ثلاثة أشهر ، فأصر على ما طلب ، فقال له الدكتور «على (باشا) إبراهيم» : «فليأمر الملك إذن "نجيب محفوظ" بأن يتولى هذه المهمة». فما لبث الملك أن كلفنى إياها . فوافقت على الرغم من أنى كنت على وشك السفر إلى أوربا لتمضية إجازة الصيف . ولكنى طلبت من الملك الإذن لى فى دخول مكتبة القصر الملكى لتصفح الأوامر (الفرمانات) التى صدرت فى عهد محمد على ومن خلفوه على ملك «مصر» . فأذن فى ذلك .

وكان لى فى القصر صديق عزيز اسمه «محسن (بك) فوزى» : جركسى الأصل ، يتقن اللغة التركية ، وكان ممتازاً فى كفايته ، فاستطاع أن يستخرج من أكوام «الفرامانات» كل ما يتصل بإنشاء مدرسة الطب ومدرسة الحكيمات والمدارس عامة ، وترجمها إلى العربية ، فكانت خير معوان لى .

ثم زرت المجمع العلمى الذى كان قد أسسه نابليون أثناء حملته على مصر ، لأطلع على ما هنالك من مراجع تتصل بموضوع التأليف ، ومضيت فى العمل ، حتى أتممت هذا الكتاب الذى أسميته « تاريخ التعليم الطبي فى مصر » .

وقد كتبته بالإنجليزية ، وكان من المطبوعات التى أصدرتها المدرسة وتقرر توزيعها على أعضاء المؤتمر .

ولما عقد المؤتمر ، عرضت عليه لأول مرة مجموعة من نماذج موضحة لأمراض النساء والولادة ، وكنت قد أعددتها بنفسى فى عيادتى الخاصة ، وتتألف من ٣٥٠ عينة تمثل مختلف تلك الأمراض . فلقيت تقديراً كبيراً ، حتى إن أعضاء الوفود طلبوا من المسئولين –على غير علم منى– أن يخصصوا فى المدرسة مكاناً لهذه المجموعة ، كى ينتفع بدراستها الطلبة .

وفى هذا المؤتمر ألقيت محاضرتين عن الأورام المبيضية والنواسير البولية والشرجية عند النساء . فطلب السير « وليم جيليات » Sir William Gilliatt مندوب مجلة الولادة وأمراض النساء للإمبراطورية البريطانية فى المؤتمر أن يؤذن للمجلة فى نشر المحاضرتين ونشرتا فيها قبل أن يحتويهما الكتاب الذى أصدره المؤتمر شاملا لما ألقى فيه من المحاضرات .

ومما أذكر أن الآنسة بيتر Bitter كريمة الدكتور بيتر أستاذ علم الصحة سابقاً ، وكانت تعمل فى سكرتيرية المؤتمر لإتقانها جملة لغات أجنبية – تهاونت فى توزيع كتابى « تاريخ التعليم الطبى فى مصر » على الأعضاء . ولم أعلم بذلك إلا بعد انتهاء المؤتمر . ولم يرقنى ذلك فى حينه ، ولكننى وجدت فيه خيراً من بعد . فإن النسخ لم توزع جزافاً كما هو الشأن فى توزيع مطبوعات المؤتمرات ، وإنما وزعتها أنا بعد ذلك فى روية على العلماء الذين يهتمون بتاريخ الطب ، فنال الكتاب شهرة واسعة فى البيئات العلمية .

ومما ساءنى عقب صدور الكتاب أن بعض الصحف المصرية السيارة نشرت مقالات نقدية له فيها عنف وهجوم ، ولكنى لم أعن بالرد عليها ، لأنها لا تمس جوهر الموضوع ، بل تثير خلافاً حول كفاية بعض من ورد ذكرهم من الأطباء

الأجانب فى تضاعيف الكتاب . وتبين لى أن صاحب هذه المقالات هو الدكتور « محمد (بك) خليل عبد الخالق» سكرتير المؤتمر ، فلم أدهش لما فعل، إذ كانت بينى وبينه مناوشات فى مجلس إدارة المدرسة ، وكنا على طرفى نقيض ، يرى فى كل أمر يعرض عكس ما أرى .

ومرت الأيام . ورقى « الدكتور محمد (بك) خليل عبد الخالق» وكيلا لوزارة الصحة . وعركته الحياة ، وعرف خيرها وشرها ، وحلوها ومرها . ويبدو أنه راجع نفسه فيما كان يخالفنى فيه من وجهات النظر . فيوماً اتصل بى لتحديد موعد لقاء، وشرّفنى بحضوره، فتذاكرنا سوالف الشئون، واستعرضنا الذكريات. وإذا هو يكاشفنى بأن سبب حضوره هو أنه يود إرضاء لضميره ، أن يقيم لى حفل تكريم يخطب فيه منوّهاً بما كان لى من أثر فى النهوض بكلية الطب . فراجعته فيما أراد ، وأبنت له أنى كنت أقدر انتقاداته ومعارضاته ، وأن ليس فى نفسى له مَوْجدة . بيد أنه أصرّ على رأيه ، وأقام الحفل فى فندق « سميراميس » ، ودعا إليه جمعاً كبيراً من كبار رجال الحكومة ، وألقى فيه خطاباً بليغاً يجدر بمكانته العلمية التى يشهد بها الجميع . وفى هذا الخطاب أشار إلى كتابى « أطلس متحف محفوظ » وما استقباله به العلماء المختصون فى كل مكان ، إذ عدوه أثراً خالداً فى الولادة وأمراض النساء ، وأن ذلك تكريماً لمصر التى يقوم أبناؤها بنصيب فى تقدم الحركة العلمية العالمية .

وبعد انتهائه من إلقائه خطابه، وقفت أعبر عما أشعر به نحو هذا الحفل . وقلت إن له معنى أكبر من حفلات المجاملات الرسمية ، وإنى أشكر الدكتور «محمد خليل عبد الخالق» أجزل الشكر على تفكيره فيه، وقيامه به ، وأؤكد له أن الدافع الذى أوحى إليه هذا الصنيع قد مس وتراً حساساً من قلبى .

ولم أر بدّاً من أن أشير فى كلمتى إلى مواقفنا فى مجلس المدرسة ، وإلى

أننا كنا نتضارب فى الرأى ، ويشتد بيننا الجدل ، ولكن ذلك لم يكن يتعدى قاعة الجلسة ، ولم ينل من صداقتنا فى كثير أو قليل .

وبعد الحفل بيومين ، زرته فى مكتبه أكرر له الشكر ، ودار الحديث بيننا حول كتابى « تاريخ التعليم الطبى » ورغبتى فى إعادة طبعه ، فاستحسن ذلك . واقترح أن يشترك فيه ببحث عن الأمراض الطفيلية التى اختص هو بها . وقد كتب هذا البحث ، ووافانى به ، فعرضت على «الجامعة» أن يعاد طبع الكتاب بمناسبة العيد الفضى لها ، وكان مقرراً أن يقام الاحتفال به بعد ثلاثة أشهر . فاعتذرت «الجامعة» بأن المال المرصد للعيد الفضى ليس به قدر مخصص للمطبوعات . وربما كان السبب الحقيقى للامتناع عن إعادة طبع الكتاب غير هذا السبب .

ذكريات الحرب العالمية الثانية

فى سنة ١٩٣٨ التقى « تشمبرلين » و « هتلر » ، ودارت بينهما مباحثات طويلة أسفرت عن اتفاق بينهما على نقط الخلاف بين الحلف الغربى و « ألمانيا » ورجع « تشمبرلين » إلى « إنجلترا » بالطائرة . وعند نزوله منها أسرع إليه جمع من مراسلى الصحف ، فلوّح لهم بمظلته التى اشتهر بها ، قائلا : « سيظل السلام سائداً فى أيامنا » . وعلى الرغم من ذلك انقضّت ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا ، كما أنها ضمت النمسا إلى حوزتها . وحل صيف سنة ١٩٣٩ ، وظل الناس متفائلين بالأنباء التى تؤكد ابتعاد شبح الحرب ، فخرج من « مصر » مئات من المصطافين يقصدون أوربا طلباً للاستشفاء فيها ، واستمتاعاً بما هنالك من محاسن الطبيعة ومباهج الحضارة .

وكنت أنا وأسرتى بين المسافرين إلى « كارلسباد » ، لأواصل العلاج الذى كنت أجريه سنوياً فيها ، بالشرب من مياهها والتداوى بحماماتها . ولما بلغنا فندق « الأمبريال » الذى اعتدنا النزول فيه ، جاءنى رسول من الهيئة الألمانية التى كانت تتولى الحكم يومئذ فى « تشيكوسلوفاكيا » برسالة مفادها أن زيارتى الحاضرة لكارلسباد هى الخامسة عشرة . وتقضى السُّنة المتبعة بإعطاء من يزور كارلسباد خمس عشرة سنة متوالية « حرية المدينة » . وقدم لى الرسول شهادة بهذا المعنى ، ومعها مجموعة بديعة من الصور الملونة المرسومة باليد لجملة مناظر فى كارلسباد وحماماتها ، فشكرت للرسول هدية البلد الطيب ، وقدرت أننا سنمضى هنا إجازة ممتعة ، ولكننا لما نزلنا من الفندق نجوب الشوارع هالنا ما رأينا . فالبلد كله ، بعد احتلال الألمان له ، قد أصبح خراباً ، وشارع « ألطافيزا » Alta Viza

الذى كان زوّار « كارلسباد » يسمونه « رى دى لابيه » Rue de la Paix تشبيهاً له بآنق شارع فى باريس — لما يحويه من النفائس — أقفر إلا من مجموعة دكاكين ليس بها إلا التافه من البضائع ، فقد هرب أصحاب المتاجر وباعوا بضائعهم بأبخس الأثمان . وقد وقفنا عند أحد متاجر الصينى فألفيناه يصفى بضائعه ، فاشترينا « طاقم » أطباق بعشرة جنيهات ، وثمنه الأصلى ثلاثون ، ولم يكن عندنا كبير أمل فى أن نستطيع إيصاله إلى «مصر»، ولكننا بعثنا به ، ولما عدنا وجدناه قد وصل سالماً .

وفى فندق « الأمبريال » لم نجد من ألوان الطعام ما كنا نعهد . حتى الخبز الذى قدموه لنا كان عسر الهضم . وقد سألت رئيس السفرة ، وكانت لى به معرفة : «هل يخلطون حقاً عجينة الخبز بمسحوق الخشب؟» فأجابنى : « هذا غير صحيح إطلاقاً ، ولكن يوضع دقاق الخشب طلاء للرغيف فقط» ! على أن ذلك لم يحل بيننا وبين بقائنا فى «كارلسباد » المدة المقررة للعلاج .

وكنا فى زيارتنا السابقة نستأجر لغسل الثياب وكيّها سيدة متوسطة العمر تعيش فى كنف والدها معيشة لا بأس بها ، فلما دعوناها هذه المرة وجدناها على أسوأ حال . وقصت علينا أن حكومة ألمانيا حرمتهم أطايب الحياة ، فالطعام تافه ، والزبد واللحم مختفيان من الأسواق . والتمست منا أن نحتجز لها ما يفضل عنا من المآكل ومن رواسب القهوة (التنوة) ومن أعقاب لفائف التبغ . حتى ترفّه به عن والدها المسنّ الملازم البيت ، فإنها لا تستطيع فى الأحوال الحاضرة أن تجد له سبباً إلى الترفيه .

ومما استرعى النظر أن أهل كارلسباد المشهورين بالمرح قد غشيتهم مظاهر الهمّ والنكد ، وفارقتهم ابتساماتهم التى كانوا يلقون بها السائحين عند مرورهم بهم فى الحقول والأندية والشوارع ودور العلاج .

وبعد أن أنهينا مهمتنا فى كارلسباد قصدنا سويسرا ، فركبنا سيارة قطعنا بها الطريق إلى بادن بادن «Baden Baden» ، مخترقين الغابة السوداء ، فبلغناها مساء ، وبتنا فى فندق من أكبر فنادقها . ولما أصبحنا طلبنا الفطور ، فجىء لنا بخبز أسود ، وقليل من الشاى واللبن ، وقطعة من زبد متغيرة الرائحة يضرب لونها إلى السواد ، فلما شكونا ذلك إلى رئيس السفرة ، قال : « إنما ننفذ أوامر هتلر ! » فطلبنا منه أن يشم رائحة الزبدة ، فقال : « أنا أعلم أنها فاسدة ، ولكن ألم تسمعوا هتلر يخطب قائلا : إن المدافع خير من الزبد ؟! » وقد قصد هتلر بقوله هو أن ما ينفق فى توفير الزبدة النقية جدير أن ينتفع به فى صنع المدافع . ولكن رئيس السفرة نطق بهذا القول على نحو ينقل إلى الذهن معنى آخر ، وهو أن التعرض للمدافع أهون من أكل الزبد ! فضحكنا وضحك الرجل معنا .

وغادرنا « بادن بادن » فى أول قطار . ولم نكد نصل إلى محطة لوسرن حتى فوجئنا بأن ألمانيا عقدت مع روسيا معاهدة هجومية دفاعية . فأيقنت بأن الحرب واقعة لا محالة . ورأيت وجوب عودتنا إلى وطننا على الفور . وخالفنى فى الرأى كل من كان معى ، ولكنى على الرغم من ذلك توجهت فى الحال إلى محل « كوك » لحجز أمكنة السفر . فأعلمونى بأنه لا توجد أمكنة خالية فى البواخر المسافرة إلى مصر ، فقررنا أن نسافر إلى لندن . وفى غد كنا فيها . ومررت بالسفارة المصرية أتعرف الأخبار ، فإذا هم لا يتوقعون نشوب حرب ، ولم نجد لنا أمكنة فى فنادق لندرة ، فاتجهنا إلى فندق «أوتلاندبارك» Oatland Park فى قرية «ويبردج» Weybridge على بعد ٢٠ دقيقة من العاصمة . وهو فندق جميل انتوينا أن نقضى فيه إجازتنا ، ولكن الأمور الدولية أخذت تتحرج .

والمدهش أن خاصة الإنجليز وعامتهم كانوا يستبعدون أن تقوم الحرب . وكان نزلاء الفندق يجتمعون فى بهو الاستقبال يستمعون إلى الأخبار من جهاز الراديو بين ساعة وساعة .

وبعد يومين من مقامنا فى الفندق ، صعدت إلى حجرتى بعد الغداء أقضى كعادتى وقت القيلولة فى غفوة ، فإذا التليفون يدق ، فصحوت من نومى . وتبين أن المكالمة من مدينة الإسكندرية ، والمتكلم هو المستر إليس Ellis مدير شركة كوك، فأخبرنى بأنهم حجزوا لنا أمكنة فى باخرة النيل التى تقوم من مرسيليا بعد بضعة أيام . وعجبت كيف علم برغبتى فى حجز أمكنة . ولم يكن فى باخرة النيل ولا فى غيرها من البواخر أمكنة خالية . وظل الأمر خافياً علينا حتى عدت إلى مصر . واتضح أن كريمتىّ سميرة وإيزيس كانتا مع أسرتهما فى الإسكندرية للاصطياف ، فلما أذاعت الصحف نبأ المعاهدة الألمانية الروسية خشيتا قيام الحرب ، فأرسلتا كتاباً إلينا فى كارلسباد Carlsbad تطلبان منا أن نسارع إلى العودة . والواقع أننا من جهتنا كنا قد بحثنا عن أمكنة بالبواخر للعودة حالا ، ولكنا لم نوفق ، ولم نشأ أن نخبر كريمتينا بذلك حتى لا تضطربا . فتركنا تشيكوسلوفاكيا إلى إنجلترا ، ومن هناك اتصلنا بهما تليفونياً . ولما وصلت إليهما الإشارة بأنهما مطلوبتان لمكالمة تليفونية ، كتبتا قائمة الأسئلة التى تريدان الإجابة عنها . وكان أول ما سألتا بسبب اضطرابهما : متى ستعودون ؟ فقلنا : فى ميعادنا . فألقتا ورقة الأسئلة جانباً ، وأخذتا فى البكاء ، وجعلتا ترجوان منا العودة حالا ، لأن الحرب قائمة لا محالة . فاضطررنا أن نخبرهما بحقيقة الأمر ، وهو أننا لم نجد محلات بالبواخر . وأخبرناهما باسم الضاحية والفندق الذى نقيم فيه . ولكن المكالمة لم تكن واضحة ، والصوت كان ضعيفاً ، فلم يتبين لهما من اسم القرية إلا مقطع «واى» Wey ولا من اسم الفندق إلا مقطع «أوك» Oak فذهبت سميرة إلى محل كوك وطلبت دليلا بأسماء ضواحى لندرة وفنادقها . فوجدت قريتين تبدآن بمقطع Wey إحداهما على شاطىء البحر : فقالت : ليست هذه ، وكان اسم الثانية Wey bridge

فقالت هي هذه. وأما أسماء الفنادق فلم تجدبها فندقا يبدأ اسمه بلفظ «أوك» Oak ولكنها وجدت فندقاً يبدأ بأوت Oat واسمه Oatland park Hotel فقالت: هو هذا . وبعد ذلك طلبت المستر إليس Mr. Ellis مدير شركة كوك وأخبرته بكل التفاصيل . واستطاع أن يحجز لنا أمكنة بالباخرة النيل . ثم اتصل بى تليفونياً بالفندق. وأخبرنى بأنه تمكن من أن يحتجز لنا الغرف اللازمة بالباخرة «النيل» التى ستبحر من مرسيليا بعد بضعة أيام . فنزلت فوراً إلى حيث كان أفراد العائلة جالسين فى ردهة الفندق يستمعون مع عدد من السيدات إلى إذاعات الراديو التى كانت تتردد بين حين وآخر ، وأخبرتهم بما حدثنى به «المستر إليس» فدهشوا وقالوا لى : «لابد أنك كنت تحلم ، فالإذاعة التى سمعناها منذ دقائق تؤكد أن سحابة الحرب قد انقشعت» . ولكنى أصررت على السفر ؛ وفى اليوم التالى التالى ذهبنا إلى «لندرة» لأخذ التذاكر ، فاسترعت إحدى بناتى نظرى إلى لافتة ملصقة بأحد الجدران مكتوب فيها «وقفت الملاحة فى البحر الأبيض» فأدركنا أن الحرب أعلنت أو هى على وشك أن تعلن . وفى محل «كوك» كان الزحام بالغاً أشده . وبعد أن حصلنا على تذاكر البحر لم نستطع الحصول على تذاكر القطار السريع من محطة «فكتوريا» Victoria إلى «كاليه» Calais فالأماكن كلها محجوزة ، ولكننا حصلنا عليها فى اليوم التالى بفضل أحد الأصدقاء . ثم زرت السفارة المصرية ؛ فعلمت منها أنها تلقت إشارة بأن الوزارة أمرت بقيام طائرة خاصة من مصر إلى لندرة لنقلى أنا ومن معى ، عائدة بنا إلى الوطن ، وذلك لأن صحة الملكة متوعكة ، وهى من حملها فى الشهر الثامن ، ويخشى الملك أن يحدث الوضع قبل موعده ، كما أخبره الدكتور «كالزولارى» Calzolari . ومن ثم أمر الملك باستدعائنا فى طائرة خاصة ، ولكنى رأيت الأسلم أن أعود بالباخرة ، خوفاً من أن يُسقط الألمان طائرتنا .

وكنا نتوقع أن تصادفنا متاعب كثيرة فى وصولنا إلى مرسيليا ، لوقوف حركة القطارات ، إذ أن السلطات تستخدمها فى نقل الجنود . ولكن الحظ كان محالفاً لنا ، فوصل القطار الذى سافرنا به إلى مرسيليا رأساً ، على حين أن الركاب فى غيره من القطارات كانوا يضطرون إلى تبديله مرات . ولما كان الحمالون قد جنّدوا فإن المحطات قد خلت منهم. واضطر المسافرون أن يحملوا حقائبهم . وعند وصولنا إلى مرسيليا عثرنا على حمال رضى أن يحمل حقائبنا ، وهو يوجه أنظارنا إلى أننا لن نجد فى الفنادق سريراً واحداً خالياً للمبيت .

وكان الفندق الذى اعتدنا أن ننزل فيه هو فندق « اللوفر » فذهبنا إليه . ولكن عماله أبوا إدخال الحقائب ، فتركناها خارج الباب . ودخلنا قاعة الأكل ، فألفينا هناك الدكتور «فؤاد (بك) رشيد» ، وأخبرنا بأنه عاد هو والسيدة « هدى شعراوى » أمس ، وأنهما اضطرا إلى تبديل القطارات ثلاث مرات فى المحطات المتوسطة فى فرنسا ، لأن القطارات التى ركبوها كانت تحجز فى الطريق للأعمال الحربية . وقال الدكتور «فؤاد» إنه كان يحمل حقائبه وحقائب السيدة هدى شعراوى على عاتقه كلما انتقلا من قطار إلى قطار ، وأنهما باتا ليلتهما على كرسيين فى طرقات الفندق ، إذ ليس فيه أسرة خالية . وعلى الرغم من هذا الحديث لم أفقد الأمل ، فتركت الدكتور فؤاد وذهبت إلى مكتب السكرتيرة ووضعت ورقة ذات خمسة جنيهات إنجليزية تحت دفتر أمامها . وجلست على مقربة منها دون أن أتكلم ، وبعد عشر دقائق أومأت إلىّ ، فنهضت إليها ، فقالت : «ورقة أخرى للمدير» ، ففعلت . وعدت إلى مكانى . وبعد قليل حضر أحد صغار الموظفين ، وطلب أن أخرج مع الأسرة إلى الباب الخلفى ، فأطعنا ، وهنالك سألنا ما نطلب من الحجرات ، فطلبنا ثلاثا . ودخلنا معه فى المصعد بحقائبنا إلى الطبقة الرابعة ، فأرانا الحجرات الثلاث .

فاخترت لنفسي أقلها شأناً ، ثم قدمت له ما يساوى نصف جنيه ، فابتسم قائلا : «إذا كان الأمر كذلك فتعال معى لأنقلك إلى حجرة أفضل من هذه» . ثم نزلت إلى الدكتور «فؤاد رشيد» والسيدة «هدى شعراوى» ، وأخبرتهما بما فعلت ، ليحذوا حذوى ، ويظفر كل منهما بمبيت طيب .

وفى غد رست فى ميناء مرسيليا باخرتنا النيل ، وكان بين من سيعودون إلى مصر فيها «طلعت (باشا) حرب» و «توفيق (باشا) دوس» ، فلقيتهما فأخبرانى بأن الركاب قد هجموا على الحجرات واحتلوها ، ولن نجد حجرتنا التى حجزت لنا من قبل ، فالباخرة استوفت حمولتها . على أنهما أوصيا مندوب شركة مصر فى مرسيليا بأن يحجز لى ولأسرتى ثلاث حجر فى الباخرة «كوثر» ، وستحضر خاصة من مصر بعد أسبوع لنقل المصطافين إليها . وعرّفانى بالقنصل المصرى فى مرسيليا وهو الدكتور «ألبير منصور» ليتولى تيسير سفرى ، وقامت الباخرة «النيل» فى موعدها ، ولكنها لقيت مصاعب فى طريقها ، فإن زوبعة ثارت بعد قيامها بيومين ، حتى إن المياه تسربت إلى حجراتها ، واصطدم مقدمها بشاطىء إيطاليا ، فأصاب الخلل بعض آلاتها ، ولكنها بلغت الإسكندرية بسلام .

وبعد سفرها اتصلت بالدكتور «ألبير منصور» لإنجاز إجراءات سفرنا ، مع الحكومة الفرنسية . وكانت الإجراءات معقدة ، ولكنه تغلب عليها بلباقته ، وتأخر وصول الباخرة «كوثر» عن موعدها السابق تحديده اثنى عشر يوماً ، زرنا خلالها معالم مرسيليا وضواحيها الجميلة. وكان ساقة السيارات يصرفون الجنيه الإنجليزى بأكثر من قيمته ، لأنهم كانوا مدعوين للتجنيد . وعلمنا منهم أن الفرنك الفرنسى قد تدهور أشد التدهور . ولاحظنا يومئذ أن الفرنسيين عامة يبغضون الحرب كل البغض ، ورأينا النساء اللاتى جند أبناؤهن يملأن الشوارع باكيات منتحبات يلطمن الوجوه ويضربن الصدور . وقد تحدث

أحدنا إلى بعضهن ، فأبدين له أن فرنسا لا تريد الحرب ، وكفاها ما جرته عليها حرب سنة ١٩١٤ من الويلات التى لم تفق منها بعد .

وجاء يوم ركوبنا الباخرة « كوثر » ، وكان يوماً عصيباً ، كدنا فيه نفقد الأمل فى الركوب . ولكن الخبرة التى اكتسبتها فى كثير من المواقف الحرجة أثناء مقامى فى « مرسيليا » ، من قدرة الجنيه الإنجليزى على حل الأزمات ، جعلتنا نتمكن من اختراق الحصار المضروب حول الباخرة ، والحلول فى الأماكن التى حجزتها لنا شركة مصر . أما حقائبنا فبقيت على الرصيف حتى تيسر لى الاتفاق مع المختصين على القيمة التى ترضيهم لكى ينقلوها بالرافعة إلى سطح الباخرة ، ثم يحملوها إلينا .

واستوفت الباخرة حمولتها . وإذا الدفعة الأخيرة من طلبة البعثات المصريين يحضرون فى القطار الأخير ، وعددهم يفوق الخمسين ، وليس لهم فى الباخرة مكان . فحار فى أمرهم مندوب الشركة ، وجاءنى يستشيرنى ، فذهبت معه إلى ربان الباخرة ، وقلت له : إن عدداً كبيراً من ركاب الباخرة أجانب ، وليست وجهتهم مصر ، وغيرهم من المصريين أولى بالركوب . فأجاب بأن هؤلاء من عملاء الشركة ومن المساهمين فيها ، ولا يمكن إبعادهم من الباخرة . فقلت : وهل حصلوا على إذن بدخول مصر ؟ فقال : لا أظن . فقلت : الحل الوحيد هو أن نتزل كلنا من الباخرة ، ولا يسمح بالدخول فيها إلا لمن يحمل الإذن . فوافق على هذا الحل ، وقمت أنا ومندوب الشركة بفحص الجوازات بمعونة أربعة من رجال الشرطة . واستطعنا بذلك أن نفسح الأماكن لطلاب البعثة . فتقدم الذين منعوا من الركوب بالشكوى إلى السلطات الفرنسية . ولكن السلطات طلبت من الربان أن تقوم الباخرة على الفور ، ففعل وشقت طريقها فى البحر ، والجمهور المتخلف على الرصيف يشيعنا باللعنات ، ويستنزل علينا غضب السماء !

وأحصِيَ عدد الركاب فى الباخرة ، فإذا هو أربعة أضعاف العدد المقرر ،

فاضطر أكثر من ثلثيهم أن يناموا على السطح . وامتلأت القاعات التى كانت تحتويها الباخرة . وكان بعض ركاب الدرجة الأولى والثانية ينامون فى الطرقات . وفى المساء لقينى الربان وبصحبته «وهيب (بك) دوس» ، وأخبرانى بأن الطلبة يهددون باستعمال القوة لإخراج المسافرين الأجانب من الحجرات، إذ أنهم يحتلون منها عدداً كبيراً . فاجتمعت بفوج من هؤلاء الطلبة ، ونصحت لهم ألا يستعملوا العنف فى علاج المشكلة . فالأجانب يحملون أسلحة، والمصريون لا يحملون سلاحاً . واقترحت أن يعاد ترتيب الركاب فى الحجرات ، بحيث تخصص الحجرة التى بها رجل وامرأة لأربعة رجال أو أربع نساء ، وأن أصحاب الحق فى حجرات يمكثون بها من الثامنة مساء إلى الثامنة صباحاً ، ثم يتخلون عنها لغيرهم ، من الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساء . فوافق هذا الحل قبولا ، ونفذ ترتيب الركاب على هذا النحو . واقترح الربان أن تؤلف منا لجنة لتدبير المأكل والمشرب ، وترتيب صرفه للركاب ، بحيث تكون فيه الكفاية حتى يوم الوصول ، مع ملاحظة أن الباخرة لا تصل فى موعدها المقرر ، بل تتأخر أربعة أيام أو خمسة . وكذلك طلب الربان منى أن آمر معه يومياً لمراقبة الحالة الصحية للركاب ، وقد تم ذلك كله على أحسن وجه ، ولم تحدث حالة مرضية واحدة ، ولله الحمد .

وكانت أضواء الباخرة تطفأ كلها ، حتى فى داخل الحجرات ، خشية الغواصات والغارات الجوية . وفى اليوم الرابع للرحلة ظهرت غواصتان ليلا ، فذعر الركاب ذعراً شديداً . ثم ظهر أنهما إنجليزيتان . وعند مرور الباخرة بالقرب من السواحل الإيطالية قطع الربان الاتصالات اللاسلكية يومين ، فلم يتصل بمصر ولم يجب عن أى استعلام يرد منها . فصدرت «الأهرام» فى اليوم التالى تتوجس خيفة من أن تكون الباخرة قد أصابها مكروه . وأخيراً وصلنا إلى مدخل ميناء الإسكندرية ، وقد نفد الزاد ، ونضب الماء . وكان مدخل الميناء

وقنابل خطراً لإغراق الطليان باخرة الأوزونيا فيه ، بغية سدّه . ولما علم ولاة الأمور بألاّ طاقة لنا بالانتظار أرسلوا مرشداً يسير بالباخرة حتى الميناء . ولكنها لم تبلغ الرصيف إلا بعد ساعات طوال ضاق بها الركاب .

أما فيما يخصني فإن القصر الملكي كان ينتظر قدومي مسرعاً لفحص الملكة ، ولذلك كلف « عمر (باشا) فتحي » بأن يخرج في زورق إلى مدخل الميناء ، لكي ينقلني وأسرتي إلى البر . وذهبت بعد ذلك بالأسرة في سيارة إلى الفندق . ثم توجهت مع « عمر فتحي (باشا) » إلى القصر ، حيث قمت بفحص الملكة ، فألفيت حالتها حسنة ، لكن بها اضطراباً لأن أحد الأطباء ظن أن الولادة وشيكة الحدوث ، على حين أن الحمل لا يتم تمامه إلا بعد شهرين . وقلت للملكة إني أفضل انتقالها إلى القاهرة ، إذ أن الإسكندرية معرضة لهجمات الغواصات والطائرات ، والصيف قد انكسرت حدته ، فوافقت على رأيي . ولما لقيت الملك سألني : من تراه يفوز في هذه الحرب ؟ فأجبته بأن ما شهدناه في مرسيليا لا يبشر بأن الفرنسيين سيقاومون مقاومة جدية ، فقال : والإنجليز ؟ فقلت : يبدو أنهم صامدون إلى النهاية ، وهم مزمعون أن يخرجوا من هذه الحرب غالبين . فقال : سنرى .

وفي السنة الأولى للحرب العالمية ، لم تدخلها إيطاليا ، فأمكن الحصول على ما كان يعوز البلاد من الحاجيات ، وأهمها الأدوية التي شعرنا بنقصها في الحرب العالمية الأولى . فأحضرت شركات الاستيراد مقادير وافرة منها ، ولكنها أخفتها ومنعت بيعها للجمهور ، على أن « علي (باشا) ماهر » اتخذ إجراء مع مدير «شركة دلمار» كان له أحسن الأثر . فقد أمر بجلده أربعين جلدة ، فلما حان موعد الجلد وكشف عن ظهر الرجل اعتراه رعب شديد ، ووعد بأن تغمر الأدوية السوق ، فاستكمل الجمهور ما يعوزه منها ، وادخر ما يستطيع ادخاره ، مما يظن أنه سوف يحتاج إليه عند انقطاع الواردات .

ولم تكد الملكة تنتقل إلى القاهرة ، حتى هجر الإسكندرية كثير من سكانها ، وتفرقوا فى المدن والقرى . وقد حققت الأيام مخاوفهم التى دعتهم إلى الهجرة من الإسكندرية ، فقد أصابها من الضرب بالقنابل تخريب شديد .

وأذكر أنى فى إحدى سنى الحرب كنت مصطافاً بالإسكندرية، نازلا بفندق وندسور ، وفى منتصف ليل ، سقطت قنبلة من القنابل الواسعة الانفجار على بعد أمتار من الفندق . فهزتنا هزاً عنيفاً ، ونسفت رصيف البحر ، وأحدثت فيه فجوة كبيرة ، امتدت إلى الطريق ، فقطعت المواصلات . وبالرغم من حدوث الانفجار ليلا ، والناس فى مضاجعهم ، كان القتلى والجرحى كثيرين ، ونجم عن ضغط الهواء الناشئ عن انفجار إحدى القنابل أن قذف بأحد الناس داخل الحائط مسافة نصف متر .

وكان إطفاء الأنوار ليلا عند الإنذار بغارة جوية يسبب أشد المضايقات ، ولا سيما لمن يتولون الولادة مثلى . وكثيراً ما كنت أدعى إلى ولادة عاجلة ، فتعوى صفارة الإنذار ، وأنا فى الطريق ، فتطفأ الأنوار ، ومنها نور السيارة ، فيتعذر السير ، بل يستحيل . وربما عوت الصفارة ، وأنا أباشر الولادة ، وليس من إطفاء النور بد ، فألاقى الأمرين فى إتمام مهمتى بسلام .

وفى هذه الحرب ندبنى جيش الحلفاء مستشاراً فى الولادة وأمراض النساء لأسر الضباط ، فكنت أضطر أحياناً إلى الذهاب إلى ضاحية المعادى وغيرها ليلا ، متعرضاً لخطر محقق حين تنطفئ الأنوار وأنا فى الطريق . وكان طريق المعادى مدة الحرب مسرحاً لكثير من حوادث السطو على ركاب السيارات . وكنت أتعزى فى ذلك بقول الشاعر العربى :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وأثناء قيامى بهذه المهمة ، توثقت صلتى بكثير من قادة الجيش. وقد حدث أن اتصل بى مونتجمرى يوماً وأخبرنى بأن مريضة فى معسكر العباسية فى حالة

تستوجب عنايتى . وهو يرجونى أن أفحصها فى المنزل قبل نقلها إلى المستشفى . ورسم لى التعليمات التى تيسر لى دخول المعسكر وأرسل سيارة خاصة تنتظرنى فى العباسية ، فلما وصلت إلى المعسكر هالنى اتساعه . وفى المنزل وجدت القائد جالساً إلى مكتبه يقرأ فى الإنجيل ، فقام بمصافحتى . وبعد أن فحصت المريضة قررت نقلها إلى المستشفى على الفور ، وقمت معها فى سيارة إسعاف ، وأجريت لها الجراحة اللازمة ، ولم تكن هذه أول مرة لقيت فيها ذلك القائد ، فقد عرفته قبلا فى منزل شقيقته الكبرى زوجة مستر «هولدن» Holden مدير مصلحة الأملاك . وهذه السيدة أشار إليها « مونتجمرى » فى مذكراته وسجل لها أنها هى التى كانت فى أسرته تنفرد بعطفها عليه وهو فى سن الحداثة .

ومنذ أغسطس سنة ١٩٤٢ بدأت الأحوال فى مصر تتحرج ، وسرت الشائعات بأن «روميل» Rommel ضيق الخناق على الجيش الإنجليزى المرابط فى العلمين . وقد اتصلت بى وقتئذ سيدة مصرية حضرت إلى عيادتى للاستشفاء ، وكانت تقيم بفندق «ميناهاوس» ، وهو مقام كبار قواد الجيش الإنجليزى ، وكان لهذا السيدة معرفة بالجنرال «أوكنلك» Auchinlek متولى القيادة العامة للجيش . وأخبرتنى بأن هناك خطة وضعت على أساس تقهقر الجيش الثامن من العلمين إلى الدلتا . فإن لم يستطع البقاء هناك فإما أن يتجه شرقاً إلى فلسطين وإما أن يتجه جنوباً إلى السودان . وما لبث « أوكنلك » أن أعفى من القيادة ، وخلفه عليها مونتجمرى . فوضع خطة غير تلك الخطة ، وأخذ يجمع جموعه تأهباً للمعركة الفاصلة . وقد أحاط خطته هذه بسياج من الكتمان حير الإنجليز أنفسهم . فراجت الشائعات بأن الألمان كادوا يحدثون ثغرة فى جيش العلمين ، بل إن بعض أصحاب الأخبار أكدوا أن روميل أبلغ محافظ الإسكندرية أن الجيش الألمانى سيحتل الثغر بعد يومين ، وأنذره بأنه سيستعمل القوة إذا أبديت مقاومة . والذى أعلمه علم اليقين أن إشارة وردت من لندرة إلى القائد العام بالقاهرة

تطلب أن تضع وزارة الأشغال خطة لإغراق مديرية البحيرة ونسف الجسور (الكبارى) متى صدرت بذلك الأوامر عند تقهقر الجيش الإنجليزي .

وفى يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤٢ – والوقت ظهر ، وأنا فى مجلس كلية الطب – اتصلتْ بى رئيسة مستشفى (الأنجلو أمريكان) تليفونياً ترجو أن أحضر حالا ، فلبيت فوجدت على سلم المستشفى إحدى السيدات اللواتى أدخلتهن للولادة . وإذا هى تسرّ إلىّ أنها هى وشقيقتها تعملان فى إدارة المخابرات البريطانية ، وكانتا قبل مجيئهما إلى مصر فى ألمانيا للحصول على معلومات تتعلق بالجيش الألمانى . وقد فطنت الحكومة الألمانية إليهما ، وحاولت القبض عليهما ، ولكنهما لاذتا بالفرار ، فوضع اسماهما فى القائمة السوداء . ومضت السيدة تقول إنها بدأت منذ الصباح تشعر بآلام الوضع ، وهى حائرة فى أمرها ، فالأخبار السرية تشير إلى أن الجيش الألمانى أحدث ثغرة كبيرة فى جيش العلمين ، وما هو إلا يوم حتى يصل الألمان إلى القاهرة . فإذا تم ذلك فسيكون فى طليعة ما يصنعونه إعدامها . ولما فحصتها تبين لى أن وضعها يتم بعد ثمانى ساعات . واقترحت أن تسافر إلى فلسطين . فأرسلت لها إدارة الجيش سيارة خلال عشر دقائق ، ونقلت إلى المطار على الفور ، فأقلتها طائرة حربية إلى القدس ، ووضعت مولودها بعد الوصول بست ساعات .

ولم أكد أفرغ من أمر هذه السيدة حتى تلقت رئيسة الممرضات إشارة تليفونية مفادها أن أحد رجال السفارة الأمريكية ، وكنت اتفقتُ معه على أن أتولى ولادة زوجته بمستشفى (الأنجلو أمريكان) ، ونقلتها إليه فعلا – يرغب فى لقائى لأمر هام . وكان يقوم وقتئذ بعمل السفير ، وبعد قليل دخل عندى ، وطلب أن يخلو بى ، وقال لى : إن الأخبار وردت اليوم بتقهقر الجيش الثامن ، فدخول الألمان إلى الإسكندرية قريب الاحتمال . فإذا دخلوها فسيحضرون إلى القاهرة خلال ساعات . وقال : « إن زوجتى كما تعلم وشيكة الوضع ، وهى فى

المستشفى رهن رعايتك، ولن يسمح لها الألمان بالمقام فيه . ولكنهم سينقلونها معى إلى منزل منعزل ، كما هو المتبع فى معاملة السلك السياسى ، وسيحاط المنزل بالحراس الألمان» . ثم خلص من هذا الحديث إلى قوله : «هل أرضى أن أتولى الولادة فى المنزل الذى تحدد فيه إقامته فيه هو وزوجته» ؟ فقلت له : « سأفعل ذلك، فهو واجبى» . فشكرنى وأخبرنى بأنه سيتصل بى تليفونياً بين حين وحين . وبعد ثلاثة أيام كلمنى بالتليفون قائلا : «زال خطر الغزو الألمانى لمصر» . وفى اليوم نفسه لقينى ، وأطلعنى على تفاصيل الموقف قائلا : « إن ولاة الأمر فى لندرة كانوا مسرفين فى التشاؤم . وأن الثلاثمائة دبابة من طراز شرمان ، وهى التى وصلت إلى السويس فى شهر سبتمبر ، والتعاون الوثيق بين الجيش الثامن والسلاح الجوى الذى يتولاه كانَنجهام Cunningham ، لمما كان له الفضل فيما أصاب جيش رومل من الانكسار . فقد أحاطت به جيوش الحلفاء من جهات ثلاث ، وأمطره السلاح الجوى وابلا من القنابل ليل نهار ، فسدت فى وجهه سبل النجاة » .

وفى يوم الثلاثاء ، وهو الثالث من شهر نوفمبر ، علمت من الرجل أن جيش رومل ينسحب. وكنت وقتئذ على موعد مع «أحمد(باشا) نجيب» الجواهرجى لإصلاح خاتم ، فلما لقيته ألفيته فى اضطراب ، وسألنى عن الحالة ، فطمأنته بما علمت ، فقال : لله ألف حمد ، فقلت : ألست من أنصار « إلى الأمام يا رومل ؟ » فأجاب : « يا دكتور محفوظ المصلحة شىء والرغبة شىء آخر . فلو أن الألمان تم لهم غزو مصر لكان من المحتمل أن ينهبوا ما فى متجرى من ألماس ولؤلؤ يقدر بنصف مليون جنيه!» .

وبعد ذلك حان موعد وضع الملكة ، وتم الوضع بسلام ، ولم يكن المولود ذكراً . فعم القصر حزن بالغ . ولكن خفف من هذا الحزن أن إشاعة سرت

بأن المولود لو كان ذكراً لعمل الإنجليز على أن يخلع الملك ، وينفى إلى الخارج ، ويؤلف مجلس وصاية على الملك الطفل .

• • •

ولما طالت الحرب ، وأرهقتني وطأة العمل ، رأيت أن أمضى أشهر الصيف خارج القاهرة ، فاخترت لمصيفى البلد الذى كان مسقط رأسى ، والذى أمضيت فيه طفولتى ، وهو المنصورة . ووفقت لاستئجار منزل كان لأسرة إيطالية نفيت وقت الحرب . ولم يكن فى المنزل ما يعاب إلا قربه من جسر طلخا ، والجسور عادة هدف الغارات الجوية . وعلم بحضورى إلى المنصورة طبيب كبير كان زوجاً لإحدى سيدات الأسرة الأباظية . فانتهز الرجل فرصة حضورى ، وأولم لى وليمة عشاء كبيرة أظهرت فيها السيدة زوجته ما اشتهرت به الأباظيات من إعداد الأطعمة الطيبة . وجلس بجانبي على المائدة سيد من الأباظيين له قدرة فائقة على الاستكثار من الأكل . وكان رب البيت يجلس أمامنا ، فقال لى مداعباً: «ما هذا الطبق الصغير الذى أمامك يا دكتور محفوظ ؟ ألا ترى جارك كيف يأكل ؟ أتعرف أنه أكل مرة عجلا كاملا ، دون أن يشاركه فيه أحد ؟» فوقف جارى محتداً ، وضرب المائدة بقبضة يده ، وقال : «هل أنا أكلت العجل فى وجبة واحدة؟ ألم أقسمه بين فطور وغداء وعشاء؟ أين أنا من المعروفين بكثرة الأكل مثل "أبو سعدة" الذى يأتى فى غدائه على خروف وفى عشائه على ديك رومى ؟ » ثم جلس يؤدى واجبه فى التهام الطعام على ما يرام .

وكان مقامى بالمنصورة مقاماً محموداً ، وقد أفدت من جوها ومن هدوء الحياة فيها . وما كدت أستقر بها حتى طفقتُ أزور الجهات التى كنت أرتادها فى صباى . فزرت المنزل الذى ولدت فيه وربيت ، واستأذنت سكانه

فى الصعود إلى طبقته الرابعة ، حيث كان فيها مبيتى . ولشد ما آسفنى أنها لم تعد تطل على النيل ، فقد أنشئت أمام المنزل عمارات كبيرة حجبت النيل عنه . وكان يحلو لى مدة إقامتى بالمنصورة أن أستأجر مركبة خيل تسير بى على شارع البحر سيراً هادئاً ، مرة فى الصباح وأخرى فى المساء . ويوماً كنت أمر بالمركبة أمام قهوة يجلس على رصيفها جمع من روادها ، وكان من بينهم زميل من زملائى فى مدرسة الأمريكان مع ثلاثة من أصحابه ، فلما لمحنى فى المركبة سارع إلىّ ، وبينما أنا أصافحه وأتحدث إليه سقطت شرفة الطبقة الأولى من العمارة التى تقوم تحتها القهوة على المنضدة التى كان يجلس إليها الثلاثة الأصحاب ، ففقدوا تحت الردم حياتهم جميعاً ، ولولا أنه تركهم هذه اللحظة ليلقانى على مقربة منهم لكان من المحتمل أن يُمْنَىَ بما مُنُوا به من مصير أليم .

وفى يوم رجوعى من المنصورة تلقيت إشارة من مستشفى الأنجلو بأن القائد العام لجيش الحلفاء بعث إليه بسيدة تشكو مرضاً نسوياً ، وحالتها سيئة . فتوجهت بالسيارة التى قدمت بها من المنصورة إلى المستشفى ، وتبينت أن السيدة مصابة بكيس مبيضى ملتو على عنقه ، وقد أحدث احتقاناً فى الغشاء البطنى (البريتون) . فطلبت إعداد المريضة لجراحة عاجلة ، وأخرجت الكيس وهو فى حالة موات (غنغرينا) ، وزال الخطر عن السيدة فى اليوم الثالث . وبعد أسبوعين غادرت المستشفى فى عافية تامة . وأعلمتنى الرئيسة بأن هذه السيدة من الأسر الإنجليزية المعروفة ، وهى تحسن الرقص والغناء ، وقد ألفت من بنات الطبقة الراقية من الإنجليز فرقة تتبع الجيش الإنجليزى للترفيه بإقامة الحفلات . وبعد فترة أحيت هذه السيدة وفرقتها عيد رأس السنة فى نادى الجزيرة الرياضى للترفيه عن الجنود ، وبعثت لى بدعوة ، كما دعت طبيب التخدير وهيئة التمريض بالمستشفى ، وخصتنا بأمكنة فى الصفوف الأولى . وفى هذا الحفل قدمت الفرقة ألواناً بديعة من الرقص والغناء . ثم وقفت السيدة

ـ وهى رئيسة الفرقة ــ تلقى أغنية يبدو أنها هى التى ألفتها. وقد تضمنت الأغنية الحديث عن مرضها ، والجراحة التى أجريتها لها . وكانت الفرقة تردد مقاطع من الأغنية يتكرر فيها اسمى واسم مستشفى الأنجلو ، وفى النهاية نزلت السيدة من المسرح ، وجاءت إلينا تصافحنا ، فهنأناها بالعيد ، وشكرنا لها هذه التحية اللطيفة .

متحف أمراض النساء والولادة

كان هدفى الأول فيما بذلت من جهد للالتحاق بمستشفى قصر العينى أن أحقق ما وطنت نفسى عليه من وقف عملى فى الحياة على إنقاذ المتعسرات فى الولادة . فلما التحقت بالمستشفى تبيَّن لى أن الخطوة الأولى لبلوغ الهدف هى أن أهيئ الأسباب لافتتاح قسم داخلى للولادة وأمراض النساء ليكون فى ذلك مجال للمرانة فى الولادات الطبيعية والعسرة . ولكن إنشاء قسم داخلى يتوقف على أن تكون هناك عيادة خارجية ، ولم يكن لها فى مستشفى قصر العينى وجود . وكان لرئيسى وقتئذ المستر « مادن » أستاذ الجراحة فضل كبير فى إقناع ولاة الأمر فى المستشفى بافتتاح فرع بالعيادة الخارجية يخصص لأمراض النساء ، ويوكل إلىَّ القيام بالعمل فيه .

وما كدت أبدأ حتى استبانت لى جسامة التبعة الملقاة على عاتقى ، وأنا فى ذلك الحين شاب فى العشرين من العمر ، تعوزنى الخبرة والتجربة والنضج . بيد أنى أصررت على ألا يعوقنى عائق . فعكفت على الكتب التى اشتريت لى وأنا فى مستشفى السويس — على نحو ما سبق تفصيله — فدرستها دراسة وافية ، وجعلت فى العيادة الخارجية أطبق العلم على العمل . وأخذت على نفسى أن أشعر مريضاتى بأنى معنىٌّ بهن ، عامل على تحقيق رغباتهن . وكانت الكثرة منهن تشكو العقم ، فكنت أطلب من هؤلاء استصحاب أزواجهن ، فأقوم نحوهم بإجراء الفحص والتحليل . وكثيراً ما ساعدنى الحظ فى تشخيص موانع الحمل ، وإزالة أسبابها ، فاشتد الاقبال على هذه العيادة الخارجية الناشئة ، وأضبح لها سمعة حسنة بين الأهلين .

وقد زارنى الدكتور «كيتنج» القائم على مدرسة الطب يومئذ، والساعة التاسعة صباحاً ، والعيادة مزدحمة بالمريضات ، فأظهر سروره بنجاح الفكرة ، ودهش من ازدحام العيادة . ولما كان هذا هو الوقت الذى يجب علىّ فيه أن أصعد إلى قاعة الجراحة للقيام بعملى فيها، فإن الدكتور « كيتنج » أشار علىّ بأن أبقى لاستكمال فحص من بقى من المريضات ، على أن يكمل عملى فى قاعة الجراحة لغيرى من الأطباء ، حتى أفرغ من الفحص .

وفى الغد استدعانى إلى مكتبه ، وأخبرنى بأن رأيه استقر على أن يلحق بى ستة من الطلبة لتمرينهم على الفحص وتدريبهم إكلينيكيا . وبعد شهرين رغب إلىّ أن أبحث حالة مدرسة الحكيمات (المولدات) وأضع تقريراً بما أراه من إصلاح . ثم زاد على ذلك قوله إنه يرى أن يسند إلىّ فضلا عن التدريس بمدرسة الحكيمات إلقاء محاضرات إكلينيكية لطلبة الطب فى أمراض النساء والولادة . وقد كتبت التقرير المطلوب فى شأن مدرسة الحكيمات ، وصادفتنى صعوبات جمة فى شأن المحاضرات، فالقسم الداخلى بالمستشفى خاو من أسرّة للولادة أو لأمراض النساء ، ولا تجرى به جراحات نسوية أو ولادات . فشكوت ذلك إلى مدير المستشفى ، فأمر بتخصيص حجرتين لاستدراك ذلك النقص ، فسرنى هذا العمل ، وإن كان بعيداً عن أن يحقق الغرض المنشود .

أما فى مدرسة الحكيمات ، فقد هالنى أن ليس بين أيدى الطالبات كتاب فى أمراض النساء أو القبالة . وكل ما يعوّلن عليه فى دروسهن مذكرات ينسخها كاتب من كتاب المستشفى ويستخرج منها نسخاً بطريقة الطبع بالغراء (البالوظة) ، ويبيعها لمن تطلب . فلما اطلعت على هذه المذكرات راعنى ما فيها من تحريف ناشئ من جهل الكاتب بما تحوي الأوراق من موضوعات . ولم يكن هناك من يراجع المكتوب ، فكانت الأخطاء تتكرر كلما تكرر الطبع .

ومما أذكره من صور هذا التحريف فى الفصل الخاص بالتهاب البريتون أنه ذكر أن العلاج يكون بوضع كيس « بلح » على البطن ، والمقصود كيس ثلج . وكثيراً ما كان يعن للناسخ أن يصحح ما يحسبه خطأ ، ففى الفصل الخاص بطول الجنين وهو فى بطن أمه رأى الناسخ أن المكتوب هو أن طول الجنين فى التاسع ٤٥ سم ، فرأى أن طول الرحم يجب أن يزيد ١٠ سم على الأقل ، فكتب العدد ٥٥ سم ؛ وفاته أن الجنين فى البطن فى الشهر التاسع لا يكون ممدوداً ، بل تكون الساق منثنية على الفخذ ، وتكون الفخذ منثنية على البطن .

لهذا بنيت عزمى على أن أؤلف باللغة العربية فى أمراض النساء والولادة ، فأخرجت كتاباً أسميته : « فن الولادة » ، وآخر أسميته : « مبادئ أمراض النساء » وعرضت على المدرسة طبع الكتابين ؛ فاعتذرت بخلو الميزانية من رصيد للمطبوعات . فلم أجد مناصاً من الإنفاق على طبع الكتابين ، على ما فى ذلك من خسارة مادية محققة ، إذ أن طلبهما مقصور على فئة صغيرة من الطالبات .

وحين شرعت فى إلقاء محاضراتى على الطلبة ، أعوزتنى النماذج التى تمثل أمراض النساء ومعاطب الولادة ، فليس منها فى متحف المدرسة شيء ، وهذه النماذج ضرورية للايضاح . فلم أجد بدا من تزويد المدرسة بنماذج قمت بعملها فى عيادتى الخاصة ، واشتريت ٣٥٠ وعاء زجاجياً من فرنسا لإيداعها العينات . وحصلت من خارج مصر على الأملاح اللازمة لعمل المحاليل التى تحفظ تلك العينات . وبعد بضع سنين من عمل شاق متواصل أتممت تحضير ٣٠٠ عينة ، كنت أحمل منها معى ما يتطلبه التدريس ؛ وأخيراً أودعتها حجرة خالية بالمدرسة .

وفى أثناء سفرى إلى أوربا صيفاً ، خطر لأحد أصدقائى المساعدين فى قسم الباثولوجيا أن يستعيض عن المحاليل بسائل آخر اكتشفه هو ، واعتقد أنه أفضل منها . وبعد عودتى من السفر ألفيت العينات الثلاثمائة التى بذلت

فى جمعها جهداً كبيراً وقضيت وقتاً طويلا قد دب فيها الفساد . وكاد يعرونى اليأس ، ولكنى لم أستسلم له . فأعددت نماذج جديدة بما ازددت من خبرة ، وكابدت فى إعدادها من العناء ما لا يوصف .

وفى المؤتمر الطبى الذى عقد بالقاهرة سنة ١٩٢٩ احتفالا بالعيد المئوى لمدرسة الطب المصرية عرضت هذه النماذج ، فأشار كثير من العلماء الذين شهدوا المؤتمر على المسئولين بتخصيص حجرة لحفظ هذه النماذج حتى تكون نواة متحف لأمراض النساء والولادة ، وأنفذت الفكرة . فدأبت على موالاة المتحف بالجديد من النماذج حتى بلغت ١٥٠٠ نموذج فى أوعية الزجاج ، ومثلها أبقيناها فى أحواض حتى نحصل على أوعية لها . وفى سنة ١٩٣٠ قدمت هذا المتحف هدية إلى مدرسة الطب وقد أصبحت كلية تابعة لجامعة القاهرة . وبذلت جهدى فى وصف العينات وصفاً دقيقاً ، وجعلت وصف كل نموذج بجانبه فى إطار زجاجى. وأخذت من الأورام قطاعات مكروسكوبية عملت لها صوراً ضوئية فى إطارات خاصة . ثم صنعت دليلا للمتحف قامت الكلية بنشره فنفدت نسخه جميعاً . وكذلك عملت صوراً للنماذج بعضها ملون وبعضها بالتصوير الضرئى ، وقرنت الرسوم بالشروح . وقسمت المتحف أقساماً ثلاثة : الأول للولادة الطبيعية والمتعسرة وأمراض النساء وأمراض الحوامل والوالدات . وانقسم الثانى لتشريح الأعضاء الحوضية فى حالتى الصحة والمرض ، والثالث خاص بالأجنة الماهرجة ، ويشمل الأحوال الشاذة المعروفة حتى اليوم .

وقد أسعدنى الحظ بتمثيل كل أمراض النساء والولادة تمثيلا تاماً بفضل المعونة المشكورة التى أداها زملائى بقسم أمراض النساء والولادة بالكلية بعد إهداء المتحف إليها .

وقد استلزم تحضير النماذج وعمل الصور اللازمة لها أن يعين موظفان أحدهما يقوم بتحضير النماذج والآخر يقوم بعمل الرسوم . فأعلنا عن هاتين الوظيفتين فتقدم لهما كثيرون لم نجد بينهم من يصلح، عدا اثنين من المهاجرين الروس البيض المطرودين من روسيا . فاستخدمتهما الكلية . ورأيت أن أسعى من جهتي لحصولهما على الجنسية المصرية ، فتحل بذلك مشكلة استخدام موظفين أجانب . وبهذا يسهل وضعهما فى «الكادر» المدرسى . وللسعى الذى بذلته فى هذا السبيل قصة فيها طرافة : ذهبت إلى وزارة الداخلية ، وكانت بينى وبين الوزير ووكيل الوزارة صداقة متينة ؛ وظننت الأمر من السهولة بمكان ، ولكن كم كانت دهشتى حينما أدليا برأيهما ، وهو الرفض البات لمنح الجنسية المصرية لأحد من المهاجرين الروسيين ، لا فرق فى ذلك بين البيض والحمر .

ولما هبطت بالمصعد، وفتح الباب، رأيت أمامى صديقاً عزيزاً لى واقفاً فى انتظار المصعد هو الدكتور عبد الله (بك) العربى» — وبعد التحية سألنى عن سبب قدومى الوزارة ، فأدليت له بتفاصيل ما حدث ، فقال : «إذا كان عندك متسع من الوقت فتعال إلى مكتبي نتدبر الأمر» . وبدأ كلامه لى بقوله : « كان لوالدى مزرعة ، وكثيراً ما كانت مياه الترعة تشح ، فيتعطل الرى ، وكان كبير المهندسين من أصدقائه ، ولكنه قلما قصده لقضاء أمر ، وكان يقول لى : يا عبد الله، المسألة التى يقدر على إنهائها خفير القنطرة لا تكاف بها رئيس الخفر . والمسألة التى لا يستطيع الخفير أن يعملها كاف بعملها رئيس الخفر ، وفى الأحوال العسيرة يكفى أن تكاف المهندس المباشر . واحذر من كبير المهندسين أو وكيل المديرية أو المدير ، فإنك ستسمع منهم كلاماً معسولا ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً . و فيما يتعلق بالحصول على الجنسية المصرية للدكتور « بوريس بوجلجاكوف » Boris Bulgakow والمسيو « نقولا ستراكالوفسكى » Nickola strekalowsky سأسير فى أمرهما على نصيحة والدى » . وفعل ذلك ،

وحصلنا على الإمضاءات اللازمة من مكتب إلى مكتب ، ومن وزارة إلى أخرى ، حتى نجح المسعى . وبعد ثلاثة أيام اتفق أن مر الوزير بعيادتى ، وأظهر لى أسفه ، وقال لى : « ربما نستطيع عندما تتحسن الأحوال أن نفعل شيئاً فى شأن الرجلين اللذين طلبت لهما الجنسية المصرية» . فلم أشأ أن أخبره بما حدث ، وغيرت مجرى الحديث .

ولما تمت إجراءات التعيين ، أخذت فى تهيئة بوبلجاكوف وستراكالوفسكى للعمل الذى أريده . أما الدكتور بوبلجاكوف فكان قديراً حتماً فى صناعته ، ولا أظن أن أحداً كان يفوقه فيها . وكذلك كان ستراكالوفسكى رساماً موهوباً ، ولم يكن له نظير فى مصر .

وفى خلال السنين الطويلة التى عملنا فيها معاً كنت أذهب إلى مكتب بوبلجاكوف بقسم التشريح ومعى الأورام التى أرغب فى عمل النماذج والصور منها . وكنا ندعو ستراكالوفسكى للحضور معنا ، وكنت أبدأ زيارتى بشرح ما معى من الأورام ، وأمضى كل يوم أكثر من ساعة أشرح له فيها كل ما يتعلق بالمرض الذى تشكو المريضة منه ، وأصف التغييرات الباثولوجية التى حدثت . ثم أتولى معه عمل القطاعات فى الورم ، وأبين له النقاط الهامة التى أحدثها المرض ، ثم أملى عليه شرح النموذج مبيناً كل ما يهم الطالب معرفته من التغييرات التى حدثت ، فيكتبها بعد ذلك على الآلة الكاتبة ، ونضع نسخة مما كتب فى إطار مغطى بالزجاج أمام كل نموذج .

وكان ستراكالوفسكى يسر جداً بسماع ما ألقيه من البيانات الخاصة بالموضوع الذى سيرسمه ، سواء أكانت تشريحية أم هستولوجية أم باثولوجية .

وكان يعتبر المعلومات التى يحصل عليها من هذه الشروح هى الوسيلة الوحيدة لتكوين صورة ذهنية يتبلور منها الرسم المرغوب فيه ، ويؤكد لى أن الصورة الذهنية هى الأساس ، أما التنفيذ فهو تابع لها .

وفى عمل الرسوم الخاصة بالجراحات كنت أدعو بوبلحاكوف وستراكالوفسكى إلى موافاتى بقاعة الجراحات، حتى يستطيعا أن يصغيا إلى ما ألقيه على الطلبة من التفاصيل قبل إجراء الجراحة . إذ كنت ألخص لهم تاريخ المرض ونتائج التحاليل المعملية وتشخيص المرض، والنقط التى أوصلتنى إلى هذا التشخيص، ثم الأعراض التى أوجبت على المريضة الحضور للعلاج . وبعد ذلك أشرح بخطوات الجراحة التى أنتوى عملها . كما كنت أقف قليلا إثر كل خطوة حتى يتسنى لهم استيعاب ما عملت . وبذلك كان ستراكالوفسكى يخرج من قاعة الجراحات وفى ذهنه صورة حية لما سيرسمه . وكثيراً ما كان يجرى رسماً تخطيطياً لكل نقطة من الجراحة وهو يراقبها. وكانت مشاهدات بوبلحاكوف للجراحات أساساً لما قمنا به معاً من تشريح عضلات الحوض ، والعضلات العاصرة للشرج فى البحث الذى نشرناه سنة ١٩٢٩ . أما أثر هذه المشاهدات فى نفس بوبلحاكوف فقد دونه فى خطاب ألقاه فى الحفل الذى أقيم بعد اعتزالى العمل ، حيث قال ما ترجمته عن الإنجليزية :

« كان بدء اتصالنا فى العمل سنة ١٩٢٢ حينما أهدى محفوظ «باشا» لمدرسة الطب مجموعة عظيمة من العينات التى قام بتحضيرها فى أثناء الحرب الكبرى الأولى وقبلها ، وهى المجموعة التى كانت نواة للمتحف الكبير الحالى للولادة وأمراض النساء .

وفى أول مقابلة لنا، بعد بضع دقائق صرفناها فى التعارف أخذنا نسردالعينات ونبوّبها ونحضّرها للشرح .

ولم تستهل سنة ١٩٢٣ حتى تهيأت فى المدرسة غرفة نظمنا فيها مجموعة كبيرة من العينات الممتازة وبضع عينات طبية شرعية . وفى السنة التالية نشر الدليل الأول للمتحف . ومنذ ذلك الحين أخذ سيل من العينات ينهمر من

عمليات محفوظ (باشا) ومن زملائه فى العمل اضطر أولى الأمر إلى تخصيص متحف أكثر اتساعاً يسمح للطلبة والأطباء بالانتفاع بمحتوياته . وقد كان كل اهتمام محفوظ (باشا)، لا فى زيادة عدد العينات بل فى انتقاء اللائق منها وشرحه شرحاً دقيقاً وتبويبه بحسب العضو المصاب . وقد استعمل العينات فى محاضراته وبنى عليها أبحاثاً نشرت فى مقالاته العديدة، مثل تمزق الرحم الحامل، والحمل خارج الرحم ، والأورام الليفية ، وأورام الرحم، والنواسير البولية ، والنواسير الثفلية ، والسرطان السلائى . . . إلخ . . .

ومما يحسن ذكره فى هذا المجال أن محفوظ (باشا) كان يحمل هذه العينات إلى المتحف ، ليتتبع تحضيرها بنفسه من الألف إلى الياء ويشرحها شرحاً دقيقاً . ومتى تم تحضير العينة كنا نبوبها فى الدليل بعد أخذ قطاعات مكرسكوبية منها ، وكنا بعد ذلك نعنى بتدوين الشرح المكرسكوبى ونرصده فى الدليل بكل عناية . وكانت النتيجة أن محفوظ (باشا) كان يعرف كل عينة معرفة تامة ، ولا تخفى عليه دقيقة من دقائقها . وقد استمر على العناية الفائقة بهذا العمل حتى بعد نواله ما ناله من الشهرة العالمية . وإنى أذكر بالسرور أنه كان يدعونى إلى حضور عملياته لأرى بنفسى علاقات الأورام وغيرها فى حالتها الطبيعية والمراحل التى توصل إلى التحضير النهائى للعينة ، وكان يحبب إلىّ أن أشاهد المريضات قبل العملية وبعد الشفاء . . . ولا شك فى أنه ركز مجهوده الذهنى المضنى فى أعماله ، وفى كل ما كان يتصل بذلك ، بغية الوصول بالمدرسة إلى حالتها الحاضرة، مما يجعله من العمد الأساسية التى بنيت عليها شهرة مدرسة الطب . وأنا أنسب جزءاً كبيراً من نجاحه ونجاح المدرسة إلى محبته القلبية للمريضات، وبذل كل مجهود يستطيعه فى سبيل شفائهن مهما كان مضنياً .

إن هذا القدر اليسير الذى كتبته إنما ذكرته لأعبر عن فائق إخلاصى وتقديرى لشخصه . »

وفى سنة ١٩٤٥ ندبت الحكومة المصرية السير « أردلى هولند » رئيس كلية المولدين وأمراض النساء الملكية بلندن لوضع تقرير فى شأن قسم الولادة وأمراض النساء بكليتى الطب فى جامعة القاهرة والإسكندرية ، فتناول تقريره المتحف بقوله :

« إن كل تقرير عن كليتى الطب المصريتين لا يتم دون الإشارة إلى المتحف النادر المثال الذى أهداه الدكتور محفوظ إلى كلية الطب بجامعة القاهرة . وقد بلغت نماذجه الآن ٣٠٠٠ نموذج مشروح شرحاً علمياً وافياً فى خمسة وعشرين مجلداً . ولا شك فى أن هذا المتحف لا نظير له فى العالم أجمع ، لا من ناحية النماذج التى احتواها فحسب بل من ناحية البحث العلمى الدقيق لكل نموذج أيضاً ؛ وذلك مما يجعل المتحف مرجعاً ممتازاً له قيمته فى تمثيل التقدم العلمى . وإنى وطيد الأمل فى أن تتخذ الحكومة شتى الوسائل للمحافظة على المتحف ، حتى يستمر تقدمه ، ويصبح مورداً تستمد منه المتاحف العلمية الأخرى ما هو مكرر فيه من النماذج ، تعميماً للانتفاع به » . ا . هـ .

ويسرنى أن أذكر أنى أمددت قسم أمراض النساء والولادة بكلية الطب بجامعة الإسكندرية وكلية الطب بجامعة عين شمس وكلية الطب بجامعة غردون بالخرطوم ، بكثير من النماذج المكررة التى حواها المتحف .

وقد ترددت طويلا فى ذكر الحادثة التالية التى يظهر منها إلى أى حد تبلغ الخصومة بين أستاذ وزميله ، حتى تلحق بالبحث العلمى أشد الضرر . وقصارى ما حدث أنى كنت أثناء عملى فى قصر العينى قد حضرت بمعاونة صديقى وزميلى الدكتور « مصطفى (بك) فهمى سرور » أستاذ الباثولوجيا ١٥٠٠ شريحة مكروسكوبية لمختلف الأمراض النسائية ، وكتبت لها شروحاً كافية . كنت معتزاً بها أكبر الاعتزاز لما استنفدت من جهد . فاعتزمت وضعها فى

المتحف عند انتقاله إلى المبنى الجديد بالمنيل . ورأيت إمعاناً فى الحرص على سلامتها أن أودعها الخزانة الحديدية التى كان قد أعدها الأستاذ برنارد شو Bernard Shaw أستاذ الباثولوجيا السابق لحفظ أوراق التشريح المرضى . ولما أحيل الدكتور مرور إلى المعاش خلفه زميل له ، وكانت بينهما خصومة . وكان هذا الخلف غريب الأطوار ، ولم يكن أحد يتوقع أن ينال درجة الأستاذية ، ولكنه نالها . ولما تولى منصبه طاب له ، سامحه الله الذى يتسع غفرانه لكل جريرة ، أن تمتد يد تخريبه إلى خزانة قسم الباثولوجيا ، وسنحت له الفرصة حين انتقال القسم إلى المبنى الجديد فى المنيل ، فأخرج من الخزانة أوراق الشروح ، ووضعها فى قفة كبيرة . وترك القفة فى إحدى شرفات المبنى ، فذهبت الأوراق مع الريح . وما عرفت هذه المأساة ، حتى اشتد وقعها فى نفسى ، ولكن خفف من شدتها أنى كنت أحتفظ بالشرائح المكروسكوبية ، وما برحت محتفظاً بها حتى اليوم .

ولقد كان واجباً أن تكون هناك سجلات خاصة لجميع العينات التى يحويها المتحف ، ويقوم عليها موظف مسئول ، وإلا تعرضت هذه العينات للتلف والضياع . ومما أشعرنى بهذه الحاجة شعوراً مريراً أنه كان بالمتحف نموذج لمريضة تشكو انقطاع الطمث شهراً ونصف شهر ، فحدث لها ألم شديد فى الجنب الأيمن ، وكشف الفحص عن كيس مبيضى ، بين ورقتى الرباط العريض ، فدخلت المستشفى لإجراء الجراحة ، وفى اليوم المحدد لذلك اعتكفت أنا لإصابتى بالأنفلونزا ، فناب عنى فى إجراء الجراحة زميلى الدكتور دوبين Dobbin فلما استأصل الكيس لاحظ بروزاً فى الجزء الوحشى من البوق ، أى فى الجزء القريب من المبيض ، فأعمل المشرط فى هذا البروز ، فخرجت قدم جنين ، فعرف أنه كان فى البوق حمل ، والعلة فى أن البيضة لم تصل ، بعد تلقيحها ، إلى

الرحم أن جدران البرق كانت مفرطحة فوق الكيس الرباطي . وهي حالة نادرة الحدوث جدا . ولما أبللت من مرضي ، أخذت العينة لتحضيرها ، وذهبت بها إلى قسم التشريح فأعددتها ، وكانت عينة بديعة حقاً ، فأودعتها المتحف .

وبعد يرمين زرت المتحف ، فلم أجد به تلك العينة ، وأسفر التحقيق عن اكتشاف السارق ، وكان طبيباً أجنبياً حصل على إذن بزيارة المتحف ، فسولت له نفسه أن يختلس تلك العينة منه .

وقد بعثني هذا على أن أضع دليلا للمتحف تولت نشره الكلية ، كما أشرت من قبل . والتزمت أن أسلم كل عينة جديدة إلى الفراش المنوط به أن يعنى بالمتحف ، وآخذ منه سند التسلم ، وأثبت ما جد من العينات في الدليل .

على أن هذا كله لم يضع حداً للسرقة ، والدليل لم يعد طبعه بعد أن نفدت نسخه . وعسى أن تتاح لهذا المتحف رعاية تحميه ، حتى يظل الانتفاع به موصولا ، ولا تذهب الجهود التي بذلت في إعداده هدراً .

كتابي "أطلس متحف محفوظ"

قصة تأليفه ونشره

لما بلغت الستين بعث إلىّ مدير الجامعة — على مألوف العادة فى مثل هذه الحال — كتاباً ينبئنى فيه بإحالتى إلى المعاش ، لبلوغى السن القانونية التى تستوجب هذه الإحالة .

ولما علم بذلك زملائى الدكتور شفيق (باشا) والدكتور مجدى (باشا) والدكتور محمود (بك) إسماعيل ، استقر رأيهم على أن يلتمسوا من الجامعة أن تمد خدمتى خمس سنوات ، وعززوا ملتمسهم بإيضاح ما عرفوه من رغبتى فى وضع مؤلف يتضمن ما تسنى لى من اختبارات خلال الأربعين سنة الماضية . وفى كتابهم إلى الجامعة ذكروا ما أوحى به حسن ظنهم من أن هذا الكتاب سيُعدّ حدثاً جليلا فى علمى الولادة وأمراض النساء ، وسيكون له أثر بعيد فى رفع سمعة مصر العلمية . وذهب الدكتور شفيق (باشا) بالكتاب إلى مدير الجامعة الدكتور على (باشا) إبراهيم ، وحدثه فى موضوعه ، فقال له على (باشا) إنه يشعر بمثل ما يشعر به نحوى ، ولكن الحكومة لا ترغب فى فتح باب الاستثناء . فخرج الدكتور شفيق (باشا) من عنده ، دون الاقتناع بما سمع ، وألّف وفداً لملاقاة وزير المعارف وإبلاغه ما يراه أطباء أمراض قسم النساء والولادة . فأحال الوزير مطلبهم إلى مجلس الوزراء ، فوافق المجلس على أن تمد خدمتى خمس سنوات .

وكتبت الجامعة إلىّ تبلغنى موافقة مجلس الوزراء ، فأجبتها شاكراً مشترطاً ألا يكون بقائى فى الخدمة هذه المدة عائقاً لأحد من الزملاء عن الترقية إلى وظيفتى ، مصراً على أن تكون لى وظيفة أستاذ خارج جدول الدرجات (الكادر) . أما

وظيفتى فيرقى إليها من هو بها جدير . ودارت مفاوضات طويلة انتهت بإقرار ما رغبت فيه . وخصصت لى الكلية – وكان عميدها الدكتور سليمان (باشا) عزمى – حجرة أمام قاعة اجتماع مجلس الكلية ، حتى تسهل استشارتى فيما يعرض على المجلس . فكان لتخصيص هذه الحجرة لى حميد الأثر فى القيام بمهمة التأليف . وكنت أحضر إلى الكلية فى الساعة السابعة صباحاً ، وأبقى بها إلى الثانية بعد الظهر . وقد أودعت حجرتى عدداً وافراً من كتب المراجعة ، ومنها ثمانية كتب استعرتها من مكتبة الكلية .

ولم يمض شهران حتى جرت الحادثة التالية :

كان اليوم يوم الجمعة ، والمكاتب خالية من موظفيها ، وليس فى المستشفى أحد إلا الأطباء النواب ومن إليهم من الممرضين والممرضات والخدم . وفى العاشرة صباحاً وقفت أمام باب المستشفى سيارة نقل ، ونزل منها خمسة فى هندام حسن ، ومعهم رسائل بإمضاء وكيل وزارة الصحة ، تطلب من القائمين بالعمل فى الكلية والمستشفى أن يأذنوا لحامليها فى فك أجهزة تكييف الهواء من قاعات العمليات ، وكذلك الأنابيب المتصلة بها . فلم يمانع فى التنفيذ أحد ، وأخذ الخدم يساعدونهم فى عملهم ، فلما انتهوا منه عرَّجوا على الحجرة التى كانت مخصصة لى ، ففتحوا أصونتها (دواليبها) وأخذوا الكتب التى كانت تحتويها ، وأكثر الأوراق التى بها . وعند تشييعهم بالسلامة وعدوا بالعودة بعد الظهر لتركيب الأجهزة الجديدة بيد أنهم لم يعودوا . وفى غد وضح للإدارة أن هؤلاء كانوا لصوصاً محترفين ، وأنهم تحوَّلوا هذه الحيلة للسرقة ، وأجرى تحقيق على أثر تحقيق ، ولم يعثر للصوص على أثر . فاضطررت أن أشترى نسخاً أخرى من الكتب التى سرقت ، وتقاضتنى إدارة الكلية ثمن الكتب التى كنت استعرتها ، وقُدر الثمن بسبعة وخمسين جنيهاً ، فأديته صاغراً .

* * *

وكان عملى فى تأليف الكتاب شاقًا ، ولم يكن يساعدنى من الأطباء أحد ، فإن عملهم فى المستشفى يستغرق وقتهم كله ، ولم يكن لى كذلك سكرتير أو كاتب ، فأردت استئجار كاتب على الآلة الكاتبة ، أؤدى له أجره من مالى الخاص ، فلم يتسن لى العثور على كاتب متقن لهذا العمل ، فإن السلطات البريطانية ، خلال سنى الحرب ، كانت تستخدم كل من له خبرة بالكتابة على الآلة الكاتبة برواتب مجزية . وأخيراً وفقت إلى شاب ممن أخلفهم الحظ فى استكمال دراستهم بمدرسة التجارة ، وكانت له معرفة قليلة بالعمل على الآلة الكاتبة . وكان قد حاول الالتحاق بإحدى وظائف الحكومة فلم يكن لائقاً فى الكشف الطبي لإصابته بالبلهارسيا والأنكلستوما . وقد وكلت إلى هذا الشاب أن يكتب لى ما أنجز من مواد كتابى ، ومرنته على كتابة المصطلحات الطبية ، وتوليت علاجه من مرضه حتى شفى . وكنت أكافئه على عمله باثنى عشر جنيهاً فى الشهر . وبعد مدة احتاجت الجامعة إلى كاتب على الآلة الكاتبة ، فاتصلتُ به دون أن أعلم ، فآثر العمل بها ، واجتاز الكشف الطبي بنجاح ، وعين براتب شهرى قدره ثمانية عشر جنيهاً شهرياً . فرأيت أن الأفضل فى هذه الحالة الاتفاق مع أحد موظفى الكتابة على الآلات الكاتبة بالكلية ، على أن يعاوننى فى غير وقت عمله الرسمى ، لقاء راتب إضافى قدره أربعة عشر جنيهاً كل شهر . وقد أنفذت ذلك خلال بقية السنوات الخمس التى قضيتها فى تأليف الكتاب .

فلما أتممت التأليف ، رأيت أن أقدم الكتاب هدية إلى الجامعة التى أمضيت زهرة حياتى فى خدمتها بكلية الطب . وسجلت رأيى فى رسالة أبنت فيها ما أنا مدين به للكلية ، فهى صاحبة الفضل فيما أحرزت من خبرة ، فإهدائى إليها هذا الكتاب دليل ما أكن لها من تقدير وإكبار وعرفان للجميل . وفى تلك الرسالة رغبت إلى الجامعة أن تقوم بنشر الكتاب ، ونزلت لها عن كل حق وعن كل

فائدة مادية يدرّها نشره . وبعثت بالرسالة إلى عميد الكلية مصحوبة بثلاثة وعشرين مجلداً تحوى صور النماذج التى حواها المتحف ، والقطاعات المكروسكوبية ، وصورها الضوئية . فأحالت الكلية الموضوع إلى الجامعة مشفوعاً برسالة رقيقة منها . فألف مجلس الجامعة لجنة للفحص ، وقدمت اللجنة تقريرها ، فأقرت الجامعة الإنفاق على نشر الكتاب . وأرسلت إلى مصلحة المساحة وإلى عدد من المطابع فى القاهرة تعرض عليها القيام بطبعه وموافاتها بما تقدره من تكاليف ، فتنحت جميعها عن طبع الكتاب ، معتذرة بأن الإمكانيات الفنية اللازمة لطبعه غير متوافرة فيها ، وأشارت بطبع الكتاب فى الخارج ، وقدرت تكاليف الطبع بنحو ثمانية آلاف جنيه . وعرض الأمر على وزارة المالية ، فكتبت إلى الجامعة بالموافقة . فوكلت الجامعة إلىّ أن أنوب عنها فى عرض طبع الكتاب على دور الطباعة فى إنجلترا أو أمريكا .

فأرسلت إلى السير « كومنس بركلى » Sir Comyns Berkeley ، كبير أطباء الولادة بإنجلترا ، أخبره بما تم بينى وبين الجامعة ، وطلبت إليه الإجابة عن الأسئلة الآتية قبل الاتفاق على الطبع :

(١) هل هناك حاجة ماسة لنشر هذا الكتاب ؟

(٢) وما رأيه الشخصى فى القيمة العلمية للكتاب ، والنفع الذى يرجى من نشره ؟

(٣) وكم تبلغ تكاليف طبعه ؟ وأى دار للطباعة يختارها ؟

(٤) وأى مدة يستغرقها الطبع ؟

ولما كانت المواصلات منقطعة فى البر والبحر ، بسبب الحرب ، لجأت إلى السفارة البريطانية أستعينها فى إرسال أصول الكتاب وصوره . وشجعنى على

طلب هذا العون أنى توليت قبلا علاج زوجة السفير ، وأشرفت على ولاداتها الثلاث . فسعى السفير لدى وزارة الحربية للتصريح بإرسال الصندوقين اللذين يحتويان الأصول والصور . وجاء التصريح بحملها على طائرة حربية كانت تحمل فيما تحمل الحقيبة الدبلوماسية ، التى تتضمن أسرار المخابرات السياسية . وسافرت الطائرة إلى «لندرة» ، ولم ينته إلينا نبأ وصولها ، وما زلت أتقصى الأمر حتى علمت أن الطائرة وصلت سالمة ، ولكن الصندوقين اختلطا بصناديق أخرى ، ولم يعثر عليهما .

فاضطربت أشد الاضطراب ، ومكنتنى السفارة من الاتصال تلفونياً بالمبنى الذى وضعت فيه الصناديق ، فوصفت الصندوقين الخاصين بى لعاملة التليفون ، فسألتنى عن اسمى ، فما ذكرته لها حتى خاطبتنى بلهجة ودية ، وأخبرتنى بأنها كانت بمصر ، وأنى أجريت لها جراحة بمستشفى «الأنجلو أمريكان» ، وأبيت أن أتقاضى منها أجراً . ووعدتنى بالبحث عن الصندوقين باهتمام . وكانت بارة بوعدها ، فحصلت عليهما وسلمتهما إلى السير «كومنس بركلى » Comyns Berkeley .

وكتب لى الرجل بعد اطلاعه على الأصول والصور رأيه فى الكتاب ، واختار لطبعه مؤسسة « شيرات وولده » Sherratt & Son . وهى مؤسسة طباعية حسنة تتولى نشر مجلة الولادة وأمراض النساء للأمبراطورية البريطانية . وهى تقدر نفقات الطبع بثمانية آلاف جنيه ، وترى أن طبعه يستغرق سنة ونصف سنة . وأرسل لى السير كومنس بركلى صورة الرسالة التى كتبها لصاحب دار الطباعة ، وفيها يخبره بأن إصدار الدار لهذا الكتاب سيكون فاتحة سعد لها .

ونقلت هذه المعلومات إلى الجامعة ، فكتبت إلىّ تفوضنى فى إمضاء العقد نائباً عنها ، وتخبرنى بأنها ستضع المبلغ المطلوب تحت تصرف دار الطباعة للحصول عليه بالطريقة التى تراها . فكتبت إلى السير « كومنس بركلى » ليطلب إلى أحد المحامين تحرير العقد وإمضاءه من المطبعة ، وإرساله إلىّ لأمضيه . ففعل ذلك . وحان الشروع فى طبع الكتاب .

وفى هذه الفترة منحت كلية الجراحين الملكية بإنجلترا زمالتها الفخرية للمستر تشرشل ولآخرين كنت أنا أحدهم . وأنبأتنى الكلية بموعد الجلسة التى تعقد لتسليم شهادة الزمالة ، وطلبت منى حضورها ، وأشارت إلىّ أنها ستكون جلسة تاريخية ، إذ يحضرها المستر « تشرشل » ليتسلم معنا شهادة الزمالة . ولم أستطع تلبية الدعوة لسوء المواصلات ، فمنحتنى الكلية شرف الزمالة فى غيبتى ، ولكنها قررت أن تقيم فى مصر حفلة لتكريمى ، وفيها أتسلم الشهادة . وطلبت من مدير الجامعة أن تقام الحفلة فى كلية الطب ، فأقامها وخطب فيها خطبة عبر بها عما يعتقده نحوى . وفى غداة غد اتصل بى ، مكرراً تهنئته لى ، ثم أخبرنى بأنه يأسف إذ يبلغنى نبأ غير سار ، وهو أن وزير المعارف أبلغه أن وزارة المالية مانعت فى صرف المبلغ المقدر لطبع الكتاب . وقال المدير إنه يرى ألا بد من الكتابة إلى دار الطباعة لتقف عملها فيه . فأجبته بأنى لا أشاركه فيما يرى ، وأنى سأنفق على طبع الكتاب من مالى الخاص ، فقال : إن المبلغ طائل ، فقلت له : إن كثيرين غيرى يقامرون بأضعافه ويخسرون ، وسأفترض أنى قامرت وخسرت! وفى الحق أن هذا الخبر لم يضايقنى ، فقد شعرت بأنه أتاح لى أن أكون حراً فى إضافة ما أشاء إلى مواد الكتاب ، وإصداره فى ثلاثة مجلدات بدل اثنين . وقد زادت بذلك نفقات الطبع ، فأصبحت اثنى عشر ألف جنيه وخمسمائة جنيه .

ولم يكن لذلك التصرف التحكمى أدنى أثر فى تأخير نشر الكتاب ، غير أن الطابع «شيرات» Sherratt أخذ يتلكأ فى الطبع ، على الرغم مما وعد به فى رسائله المتكررة من قرب صدور الجزء الأول . وعند وصولى إلى لندرة لمناسبة تسلمى زمالة فخرية أخرى منحتنى إياها الجمعية الطبية الملكية Royal Society of Medicine زارنى سفيرنا عبد الفتاح عمرو (باشا) ، مهنئاً لى . ثم قال لى : « يؤسفنى إبلاغك أن الأخبار التى علمناها من أمر الذين يتولون طبع كتابك لا توحى بالاطمئنان» . فكان فى هذا صدمة مؤلمة لى . ولم تمض بضع ساعات ، حتى طلب لقائى زائر ينتظرنى فى بهو الفندق . وإذا هو شيرات Sherratt بنفسه . فأبدى لى أسفه ، لأنه لا يستطيع طبع الكتاب ، إذ أن الموظف الذى وكلت إليه الأصول والصور أصابه مس من الجنون ، فنزع أرقام الصور والتعليقات المكتوبة تحتها باللغات السبع . وقال لى شيرات : «إنه أحضر معه الأصول والصور لأتسلمها» فلم أشأ أن أخاشنه فى القول . واستبقيت فى نفسى بعض الأمل فيه ، فسألته : « هل تقبل المضى فى طبع الكتاب إذا أنا أعدت لك ترتيب الصور وكتابة التعليقات التى توضحها ؟ » فقال : نعم . فذهبت به إلى السفير ، ليعاوننى على أن يكتب « شيرات » تعهداً بإظهار الجزء الأول بعد ثلاثة أشهر . واعتكفت فى الفندق واحداً وعشرين يوماً ، كنت أعمل خلالها من السابعة صباحاً إلى العاشرة مساء ، حتى أعدت الكتاب مرتباً ومستوفياً للايضاحات . ومن حسن الحظ أن صديقى وتلميذى الدكتور « عبد الله رفلة » ، وكان يعمل مديراً لمستشفى «نيواند» New End للولادة بلندرة ، وقد ظل فى هذا المنصب ١٥ سنة بمرتب كبير ، وعاد أخيراً إلى مصر — حضر يومئذ يزورنى فى الفندق ، فرجوت منه أن يعيننى على العمل فى ساعات فراغه ، فاستجاب لى .

وغادرت « لندرة » ، عائداً إلى الوطن ، وملء نفسى الثقة بأن الجزء الأول

يخرج بعد قليل ، ولكن طال انتظارى على غير جدوى . فكتبت مذكرة بعثت بها إلى سفيرنا فى إنجلترا وإلى رؤساء الكليات الطبية الملكية التى أنا زميل فيها طالباً منهم التدخل لعلاج مشكلة الطابع ، فعقدوا اجتماعاً فى دار السفارة ، وقرروا أن يطلبوا من المستر أتلى Atlee رئيس الوزارة التدخل فى الأمر ، وأنابوا السفير فى إبلاغ قرارهم إلى المستر أتلى ، فزاره وأبلغه إياه ، فوعده خيراً ، وبعد أيام استدعى رئيس الوزارة « شيرات » وسأله : «لماذا أخر إظهار الكتاب ؟» فاعتذر بأن الورق الفاخر غير ميسور بسبب الظروف الحاضرة ، وطبع الصور لا بد فيه من الورق الفاخر . فقال له الرئيس : « هل تبادر بطبع الكتاب إذا وفّرنا لك الورق المطلوب ؟» فقال : «نعم» .

وبعد يومين تلقت سفارتنا المذكرة التالية من وزارة الخارجية ، وتاريخها ١٢ أبريل سنة ١٩٤٩ : « المستر أتلى يقدم تحياته إلى حضرة صاحب السعادة سفير مصر . وله الشرف بأن ينهى إليه أنه فيما يختص بالتقرير الذى أرسله برقم ٧٩٧ – ١١ : ٣٩ فى ٢٣ فبراير بشأن كتاب الأستاذ نجيب محفوظ الذى تقوم بطبعه شركة شيرات وولده – قد تم الاتفاق على أن المجلد الأول من الكتاب سيظهر هذا الشهر وأن المجلد الثانى سيظهر فى شهر يولية وأن المجلد الثالث سيظهر فى شهر نوفمبر » .

وما لبثت تجارب الطبع أن تواردت علىّ ، وكان وصف الصور باللغة العربية كثير الأخطاء . وكذلك ظهرت صور الفصل الخاص بالنواسير البولية باللون الأسود والأبيض على حين أنها متعددة الألوان فى أصولها ، وقد أعانتنى ابنتى «سميرة» فى ترتيب الإيضاحات المكتوبة باللغة العربية . وكان من رأيى أن أقبل صور النواسير على حالتها غير ملونة ، وإن كان ذلك ينقص من قدرها ، تفادياً من إضاعة الوقت . ولكن « سميرة » أصرت على أن أطلب إعادة طبع

الصور بألوانها ، وإن أدى ذلك إلى رفع الأمر إلى القضاء . فاستسلمت لرأيها ، وبعد كفاح شديد ظهرت الصور ملونة .

وخرج المجلد الأول من الكتاب ، وتأخر ظهور الثانى والثالث بضعة أشهر ، ولا بد لى من التنويه بالطبع والتجليد ، فقد تم كلاهما على أحسن وجه ، وشهد الثقات بأن إخراج الكتاب على هذا النحو لم يكن يتسنى للمطابع الأخرى ، إلا ما ندر .

وقد تنفست الصعداء ، حين ظهر الكتاب ، وحسبت أن متاعبي قد انتهت ، ولكنى تلقيت برقية من الدكتور « كليفورد هوايت» Dr. Clifford White بأن كتابى لا وجود له فى مكتبة من المكتبات ، فحرت فى أمرى ، وأزمعت مقاضاة الناشر ، واتخذت لذلك الإجراءات ، وقبل صدور الحكم عرض « شيرات » الكتاب فى السوق ، على أن سوء تصرفه فى شأن كتابى أسخط عليه الكليات الطبية ، فنزعوا منه حق طبع مجلتهم التى كان يتولى طبعها . وعلى أثر ظهور الكتاب انهالت الطلبات عليه ، فباع « شيرات » من نسخه فى السنتين الأوليين ما ساعد فى سد نفقات قدر كبير من الطبع .

على أن « شيرات » رد إلىّ بعد الطبع أصول الكتاب دون الرواسم (الكليشيهات) ، ولبثت أطالبه بها دون جدوى ، مع تهديدى إياه برفع قضية عليه ، وقد نمى إلىّ من بعض خصومه أن الطبعة الأولى من كتابى نفدت نسخها ، وأنه أعاد طبعه خلسة ، مرة بعد مرة ، كيلا أشاركه فى الربح . وقد استبعدت جداً أن يفعل « شيرات » ذلك . على أنى لم يكن فى مستطاعى أن أتخذ أى إجراء قانونى لأن العقد الذى بينى وبينه وسائر المستندات كانت مودعة مكتب فانر ومارشال Fanner & Marshal الذى أصابه شواظ من حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، فلم يبق للمكتب من أثر . والسبب فى إيداعى هذه

المستندات مكتب «فانرومارشال» هو أني كنت رفعت قضية ضد «شيرات» لبطئه في إخراج الكتاب إلى السوق ، وانتهت بالصلح .

ومما بقي من حديث هذا الكتاب أنه لما صدر المجلد الأول أرسل إليّ الطابع نسخاً منه سنة ١٩٤٩ ، وكانت الرقابة على المطبوعات بالغة أقصاها ، فاحتجزت النسخ في الجمرك ، ومضى الشهر تلو الشهر ، لا تسمح الرقابة بالإفراج عنها ، انتظاراً للمترجمين الذين يتقنون كل اللغات التي كتبت بها إيضاحات الصور . فقد كتبت بسبع لغات . هي العربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والطليانية والإسبانية والروسية ، وعبثاً حاولت إقناع المسئولين في الجمرك بأن الشروح المكتوبة ليس فيها ما يستوجب التوقف . وذات يوم زارني المهندس الدكتور هرست Hurst الخبير الفني لوزارة الأشغال ، وقال لي : أتيت أهنئك بما نشرته مجلة «نيتشر» Nature تقريظاً لكتابك ، فهي أكبر المجلات العلمية في بريطانيا ، والمؤلفون الذين يحظون بنقدها وتقريظها يعدون ذلك شرفاً عظيماً» . فتلقيت المجلة منه ، وهرعت إلى رجال الجمرك أطلعهم عليها ، فلم يمض يومان حتى أفرجوا عن النسخ المحتجزة من الكتاب .

ولا أكتم أني لما أصدرت كتابي هذا ، خشيت ألا يستقبل استقبالا حسناً ، فقد كانت العلاقات بيننا وبين الغرب وأمريكا على أسوأ حال ، وكانت مشكلة مصر السياسية قد عرضت على مجلس الأمن ، وخطب فيه «النقراشي» رئيس وزرائنا يصف الإنجليز بأنهم قرصان . ولكن ثبت لي أن خشيتي هذه لم يكن لها محل ، فقد لقي الكتاب من التقدير وحسن الاستقبال ما لا مطمع فيه للمزيد ، وقوى إيماني بأن العلماء يترفعون بأنفسهم عن ملتطم السياسة ، فالعلم لا وطن له ، وإنما هو حق للجميع .

• • •

وعلى أثر صدور كتابى « أطلس محفوظ » وما لاقاه من التقدير ، كان سرورى عظيماً بأن ولاة الأمر فى مصر ، وقد تلقوا من السفارات المصرية فى الخارج ، أنباء استقبال الكتاب - بادروا إلى إظهار تقديرهم لما قمت به من عمل . وكان بادرة ذلك منحى نيشان المعارف من الطبقة الأولى ، وأكبر جائزة علمية وقتئذ وهى جائزة الدولة فى سنة ١٩٥٠ ، تلقيتها من يد عميد الأدب العربى الأستاذ الدكتور « طه (باشا) حسين » ، وكان وزيراً للمعارف وقتئذ .

وقد ملأ قلبى سروراً وفخراً أن حكومة الثورة تفضلت سنة ١٩٦٠ بمنحى جائزة الدولة التقديرية فى العلوم ، وهى تشمل فوق ذلك المدالية الذهبية ونيشان الاستحقاق من الدرجة الأولى ، ومكافأة مالية قدرها ٢٥٠٠ جنيه .

الزمالة الفخرية للجمعيّة الطبيّة البريطانية

كانت مفاجأة سارة أن أتلقى فى سنة ١٩٤٧ ، برقية من الجمعية الطبية الملكية فى إنجلترا ، وكان يرأسها فى ذلك الحين العالم المشهور « كسيدى Cassidy » ، تنبئنى بأن مجلس إدارة الجمعية قرر منحى الزمالة الفخرية ، وأن كتاباً تفصيلياً فى طريقه إلىّ بالبريد الجوى. وما هى إلا أيام قلائل حتى تلقيت الكتاب التفصيلى . وفيه أن الجمعية ترجو أن أحضر لأتسلم بنفسى شهادة الزمالة ، وأن هذه الشهادة ستمنح معى لاثنين آخرين ، أحدهما مكتشف البنسلين ، والآخر عالم كبير من علماء الذرة ، وستقام حفلة تسليم الشهادة فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، عقب حفلة غداء تقام قبل ذلك بساعة. ولما كانت المواصلات على اختلاف أنواعها تكاد تكون معدومة فى ذلك الحين ، فقد اتصلت الجمعية بالسفير البريطانى فى مصر ليعمل على تمكينى من السفر والوصول إلى « لندرة » قبل الموعد المحدد .

وأبلغنى السفير أنه قد وكل هذه المهمة إلى الآنسة نيمو Nimo إحدى موظفات السفارة ، وأمرها بوضع اسمى فى أول قائمة الانتظار . ومضى أسبوعان دون أن أتلقّى نبأ ، فذهبت إلى تلك الآنسة وأخبرتها بأنى أطلب مكانين أحدهما لى والآخر لزميلى الدكتور «فاضل سليم» ، فقد أبدى رغبته فى مرافقتى ، وهو أيضاً يود السفر لحضور المؤتمر الذى ينعقد فى دبلن لمناسبة مرور مائتى عام لمستشفى «الروتندا» . فرحبت الآنسة بمقدمى ، وذكرت لى أنى منذ سنة أجريت جراحة فى المستشفى القبطى لوالدتها . وبعد أسبوع اتصلت بى وزفت إلىّ

بشرى حجزها محلين بباخرة البضائع المسماة «بهارستان» ، فأسرعت أنا والدكتور فاضل سليم إلى « بورسعيد » للركوب بالباخرة ، ولكن الباخرة تأخرت أسبوعاً عن موعد وصولها. ولما رأيناها استشعرنا خيبة الرجاء فيها ، فهي صغيرة زرية المنظر. ولكن المضطر يركب الصعب . وكان قيامها قبل موعد الحفلة بسبعة عشر يوماً . فقدرنا أننا نصل وقد بقى على الموعد ثلاثة أيام .

وفى هذه الباخرة كان المسافرون ثمانية ، كلهم من الموظفين المحالين إلى المعاش ، ومنهم ثلاث نساء كن يعملن سكرتيرات فى معامل تكرير البترول فى «عبدان» بالخليج الفارسى ، ولم يكن من اليسير تمييز هؤلاء النساء عن سائر الرجال ، فرؤوسهن محلوقات أو تكاد ، والشعر نام على شفاههن العليا لا يعنين بإزالته ، وكن ذوات أجسام ضخمة ، لأنهن لم يكن يمارسن ضروب الرياضة أثناء عملهن فى «عبدان» .

وقد خلت هذه الباخرة من أسباب الراحة . فكنا نصعد من غرف النوم إلى السطح بسلم من الحديد على جانبيه حبلان نمسك بهما أثناء الصعود ، وفيما أوصونا به أن نصعد القهقرى ، إن صح التعبير ، أعنى أن ندير ظهرنا للسلم ، ونأخذ بالحبلين على الجانبين . ولم يكن هناك إلا حمام واحد ذهب القدم بطلائه. أما ماء الشرب والاستحمام فيحمله إلينا خدم فى الدلاء . أضف إلى ذلك أن الباخرة كانت دائمة الاهتزاز ، وإن كان البحر هادئاً . وقد أذكرنى سيرها بقول الشاعر : « سكرى تميد بمن فيها فتسكرهم » ، وذلك لأن آلاتها فى حالة غير جيدة .

وحاولنا أن نقنع أنفسنا بأننا فى حال هو أحسن ما يمكن أن يكون . فكنا نجتمع نحن رفقة السفر مع الربان على ظهر الباخرة ، آخذين بأطراف الأحاديث تزجية للوقت. وفيما حدثنا به الربان قصة هذه الباخرة ، إذ قال : «إنها إحدى باخرتين

تم بناؤهما منذ ست سنوات فى «منشستر» لشركة البترول فى «عبدان»، وخرجتا فى يوم واحد متجهتين إلى الخليج الفارسى ، وقد عين هو ربانا لهذه الباخرة « البهارستان » .

أما الأخرى، واسمها «الباكستان» فكان ربانها ابن عمه . وبينما الباخرتان فى المحيط الأطلنطى ، حدث انفجار فى باخرة ابن عمه فانفلقت نصفين ، وغرقت بركابها جميعاً . أما هذه الباخرة فقد وصلت إلى «عبدان» سالمة، وقامت بالرحلة مرتين ، ثم وقفت ستة أشهر فى ميناء «عبدان» ، فامتلأ قاعها بالمحار والحيوانات الصدفية . ثم أعدت لهذه الرحلة ، وتبين أن بآلاتها بعض الخلل ، فأصلح منه ما أمكن إصلاحه، على أن يتم الإصلاح عند عودتها إلى «منشستر» . وبسبب ما يثقل قاعها من الأحياء المائية لا تستطيع السير بالسرعة المطلوبة ، وستقطع المسافة بين بورسعيد وليفربول فى خمسة عشر يوماً بدل اثنى عشر . . .» وحول هذه الحقيقة المرة كانت تدور أحاديثنا فى سهراتنا على ظهر تلك الباخرة العرجاء.

وبعد أيام شكت إحدى سيدات الرفقة ما يشبه التهاب الزائدة الدودية، فاقترح الدكتور «فاضل» أن ترسو الباخرة فى ميناء نابولى، لتنقل السيدة المريضة إلى أحد المستشفيات ، ونتم نحن سفرنا بالسكة الحديدية . ولما اتصل الربان بالشركة لعرض الاقتراح ، كان الجواب رفضاً ، فذلك يكلفها أداء ٥٠٠ جنيه رسماً للرسو فى الميناء . واقترحت أنا التعريج على « مالطة » فلم يلق الاقتراح قبولا . وزالت النوبة عن السيدة ، ولم تعد بحاجة إلى الجراحة ، فسارت الباخرة تتهادى باسم الله مجراها .

وانتهى بها السير إلى جانب خليج مرسيليا المشهور بزوابعه . وهبت زوبعة كانت ترفع الباخرة وتهبط بها فى شدة وعنف، فتدحرج الدكتور «فاضل» من سريره إلى الأرض ، دون أن يصاب بسوء ولله الحمد . أما الحقائب فقد تساقطت

وتفتحت . وكان بإحداها علب المربَّى ، فانكسرت العلب واندلق ما فيها على الثياب والأمتعة . ثم اعتدل الجو ونحن نمر على مقربة من شواطىء تونس والجزائر ومراكش، فتسنى لنا أن نشهد منازلها الجميلة المبنية بالحجر الأبيض، والعدد الجم من دور الصناعة فيها . وما كادت الباخرة تخرج بعد ذلك من مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلنطى ، حتى رأينا تلاًّ من الضباب الكثيف ، تخرج منه باخرة ، وتمر بالقرب منا . وأطبق علينا هذا الضباب الهائل عشر ساعات ، لا تنقطع فيها باخرتنا عن الصفير ، ونحن على حال من القلق لا تسر . فالباخرة ليس بها وسائل لاتقاء المصادمات . ولما انزاحت تلك الغمة عددنا أنفسنا قد كتب لنا عمر جديد .

ووصلنا إلى ميناء صغير بالقرب من ليفربول Liverpool فى الساعة السابعة من صباح أول يولية ، وهو اليوم المحدد لحفل تسليم الشهادات ، وكان من الممكن أن نصل إلى مكان الحفل فى الساعة المعينة، لولا أن باخرة جاوزتنا إلى الرصيف، وهو الوحيد فى ذلك الميناء الصغير ، فتعطلنا ساعتين ، وتحقق لنا أننا لن نستطيع اللحاق بالقطار الذى يقوم من « ليفربول » إلى « لندرة » فى الساعة التاسعة . فاتصلت تليفونيًّا بشركة « كوك » وطلبت منها أن تبعث بسيارة تحملنى إلى المطار ، وأن تستأجر لى طائرة خاصة أقوم بها إلى « كرويدون » Croydon وكان فى ذلك الحين ميناء لندرة الجوى. ولما تأهبنا للخروج من الباخرة، تبين لنا أن الربان لم يعثر على مفتاح باب السياج الحديدى الذى يحيط ببواخر البضائع . وأخيراً عن لنا أن نطلب من الربان سلّمين يوضعان على السياج الحديدى، أحدهما من الداخل، والآخر من الخارج . وخرجنا تاركين حقائبنا مع الربان، ليرسلها بعد الفحص الجمركى إلى فندق « دورشستر » Dorchester ، حيث كنا قد حجزنا فيه حجرتين . ومضت بنا السيارة تنهب الطريق نهباً إلى المطار . وهنالك ألفينا فى انتظارنا طائرة من النوع المعد للتدريب ، وهى لا تكاد تتسع لركوبنا أنا

والدكتور « فاضل » مع الطيار ، وكان غطاؤها من اللدائن « البلاستيك » ، فسارت بنا سيراً بطيئاً على ارتفاع قليل مكننا من مشاهدة بلاد الغال الجميلة بمزارعها ومناجمها ، ثم بلغنا مطار « كرويدون » قبيل الساعة الواحدة ، وحاولنا إقناع سائقى السيارات بالمضىّ بنا إلى دار الجمعية الطبية الملكية فى الموعد المعين الذى ذكرناه ، فاعتذروا ، إلا سائقاً علت به السن ، انطلقت بنا سيارته فى سرعة مجنونة ، حتى أوصلتنا إلى الدار بعد الموعد بقليل ، فبذلت له عشرة جنيهات ، فأبى أن يأخذ إلا الأجر المقرر بزيادة عشرة فى المائة .

ولما دخلنا قاعة الحفل ، كان الرئيس « كاسيدى » Gassidy قد انتهى من تسليم الدكتور « فلمنج » مكتشف البنسلين شهادته ، وجاءت نوبتى ، فقال للمجمع : « يؤسفنى أن الدكتور محفوظ لم يستطع . . . » وهنا رآنى مقبلا ، فقال : « ها هو ذا قد وصل ! » فصفق المجتمعون ، فحييتهم وذكرت لهم سبب التأخر ، وما كان من استئجارى طائرة خاصة . فتسلمت الشهادة . ولما تسلم عالم الذرة شهادته صافحته وهنأته ، وقلت له : « إنه لشرف عظيم أن أتسلم شهادة الزمالة معه » . فكان فى ردّه ظريفاً ، إذ قال إنه هو الذى يشعر بهذا الشرف ، فإنى قد أمضيت شبابى فى شفاء المرضى وتخفيف الآلام ، وذلك هو العكس مما ينتظر من الخراب بسبب القنبلة الذرية . فطمأنته بقولى : « إنى أعتقد بأن القنبلة هى التى ستمنع الحرب ، وتتيح للأمم أن تذوق حلاوة الأمن والسلام . وإنى موقن أن الطاقة المتخلفة من الذرة ستتخذ لعلاج المرضى ولكثير من الأغراض السلمية ، إذ تكون بديلا من الفحم والبترول » . فبان السرور على محياه ، وقال : « عسى أن نلتقى مرة أخرى ، وقد تحقق ما تقول » .

ولم أكد أخرج من تلك الجلسة ، حتى أحدق بى مراسلو الصحف واستخلصوا منى ما طلبوا من المعلومات ، وما لبثت الصحف المسائية أن ظهرت وفيها وصف لما حدث لى بعنوان : « يصل قبل الميعاد بخمس دقائق » .

وقد جرى العرف بيننا نحن المصريين على أننا إذا كنا فى ساعة سرور وضحك . قلنا : اللهم اجعله خيراً . وإنما نقول ذلك خشية أن يكون وراء السرور العارض ما لا يسرّ . والذى حدث لى فى هذا اليوم الهانئ السعيد هو أنى تلقيت مالم يكن فى الحسبان من أنباء مقلقة فى شأن كتابى « أطلس متحف محفوظ » فى أمراض النساء والولادة الذى كان يطبع فى «منشستر» ، وقد فصلتُ هذه العقبات فى الفصل الخاص بهذا الكتاب .

وقد توجهت بعد خروجى من دار الجمعية إلى السفارة المصرية ، وقيدت اسمى فى دفتر الزوار ، ثم عدت إلى الفندق ، فلحقنى به السفير مهنئاً معتذراً عن تخلفه عن حضور الحفل بأنه سأل عنى فى الفندق ، فأجيب بأنى لم أحضر بعد . وكذلك زارنى رئيس البعثات المصرية للتهنئة ، ودعانى إلى حفل أقامه أعضاء البعثات المختلفة لتكريمى . وفى هذا الحفل ألقيت محاضرة فى تاريخ التعليم الطبى فى مصر . وبعد إلقائها طلب منى لورد ويب جونسون Lord Webb-Johnson عميد كلية الجراحين الملكية ، وكذلك مدير الإذاعة البريطانية ، أن أذيع فى الراديو هذه المحاضرة بالإنجليزية مرة وبالعربية أخرى ، ففعلت . وأقام لى أصدقائى من الإنجليز هنالك عدة حفلات ، ومنها حفلة أقامتها «الليدى لويس ماك ألروى » Dame Louise Mc Illroy ، وهى عميدة مدرسة طب السيدات ، وشهدها عدد كبير من الشخصيات البارزة ، بينهم السيدة « أنيد بليتون » Enid Blyton المؤلفة المشهورة لكتب الأطفال ، وهى متخرجة فى تلك المدرسة . أما السفارة المصرية فقد دعت كبار الأطباء الإنجليز وعدداً وافراً من المصريين النزلاء إلى مأدبة عشاء . وفى آخر يوم من إقامتى فى « لندرة » أقمت مأدبة عشاء دعوت إليها أكثر من ثمانين ، وتولى سفيرنا رياستها .

وفكرت أنا ورفيقى الدكتور «فاضل سليم» فى وسيلة للسفر إلى «دبلن» ، بعد أن تعذّر ذلك على السفارة وعلى شركة كوك . وأخيراً عثر لنا ابن أختى «فؤاد عزيز»

سكرتير السفارة على مكانين فى طائرة مسافرة تخلف من ركابها رجل وزوجته لإصابتهما فجأة بالأنفلونزا فى يوم السفر ، وكانت الطائرة إيرلندية من طراز فاخر ، فأمتعتنا برحلة رأينا فيها السواحل الإنجليزية عن قرب ،وشاهدنا الأمواج العالية التى يتصف بها البحر الفاصل بين أرلندا وبين إنجلترا وأسكتلندا Scotland . وصادف وصولنا إلى «دبلن» إضراباً قام به الحمالون ، فلم نجد من يحمل الحقائب . وفوجئت بشابين يسعيان نحوى ، ويقدمان نفسهما إلىّ ، وإذا هما طبيبان أرلنديان ، أحدهما استمع إلى المحاضرات التى كنت ألقيتهما فى مدرسة الدراسات العليا بهمرسمث Hammersmith ، والآخر كانت شقيقته ممرضة بمستشفى «الأنجلو أمريكان» أجريت لها جراحة ناجحة منذ وقت قريب . فرغب الطبيبان فى أن يحملا الحقائب ، وبعد تردد ظاهرى منى توليا حملها . ولم يكتفيا بإيصالها إلى السيارة الحافلة : بل رافقانا إلى مستشفى «الروتندا» ، فشكرنا لهما . ثم دعوتهما إلى العشاء فى الفندق ، فأمضيا معنا سهرة طيبة .

وفى خلال الأيام السبعة التى قضيناها فى «دبلن» تعرفنا بأساطين الطب فى العالم ، ممن قدموا لشهود المؤتمر ممثلين لبلادهم التى كان لمستشفى الروتندا فضل كبير عليها ، إذ كانت بعثات هذه البلاد تحل بهذا المستشفى للتمرين فيه .

ومن حسن حظى أنى رأست فى المؤتمر ثلاث جلسات ، وحسمت خلافاً بين الأستاذ «متّرا» Mitra أحد مندوبى الهند وأحد رؤساء المؤتمر . وكان لذلك وقع حسن فى نفوس الأطباء الهنود ، فاستوثقت بينى وبينهم صداقة .

وفى اليوم الختامى للمؤتمر أقيمت مأدبة عشاء ضمت أعضاء المؤتمر ، وهم ثمانمائة وثلاثون ، ورأس المأدبة رئيس الجمهورية . وأعطيت مصر أول مكان بعد مكان رئيس المؤتمر فجلستُ فيه . وأنابنى الأعضاء الضيوف عنهم فى الرد على كلمة رئيس الجمهورية ،وكنت علمت بهذه الإنابة قبل بضع ساعات ،

فأعددت الرد واستظهرته وختمته بجملة باللغة الأرلندية وهي لا تمت للغة الإنجليزية بشيء ، هذا معناها : « لتحي الروتندا ، ولتحي إرلندا » . وفي مأدبة العشاء هذه التقيت لأول مرة بالمندوبين الرسميين الذين أوفدتهم «مصر» ؛ ولم أكن أعلم بأن الحكومة أوفدت مندوبين .

وقد دعيت أنا والدكتور «فاضل» إلى مآدب غداء وعشاء أقامها أساتذة الروتندا ، فرأيت لزاماً علي أن أدعوهم كما دعوني . ولما فاتحت رئيس المؤتمر في ذلك اقترح أن يكون الغداء في مطعم «جاميه» الفرنسي Jamet وهو مطعم فاخر ، فاستجبت لذلك . وقدم لنا المطعم أطيب المأكل والمشرب ، وساهلني صاحبه في تقدير الثمن . وذكر لي أن سبب مساهلته لي هو أنه نال إجازة الهندسة من معهد السنترال الهندسي في باريس مع «حسين سري (باشا)» الذي تولى رياسة الوزارة المصرية من بعد .

وعبثاً حاولنا أن نجد للعودة مكاناً في إحدي الطائرات ، فرضينا أن نعود مبحرين . وأشار علي الدكتور «فاضل» بأن نشترى هدايا من المناديل والمفارش والفوط المنسوجة من الكتان الأرلندى المشهور ، ففعلت . ولما عدنا بما اشترينا إلى الفندق قيل لنا إن تصدير الكتان الإرلندي محظور إلا بتصريح ، وإن التفتيش الجمركي شديد ، وخير لنا أن نرجع ما اشترينا ونسترد ثمنه . ففعلنا . وبعد قليل أخبرنا سكرتير المؤتمر بأننا مدعوون لزيارة أحد الأثرياء في قصره الريفي ، ومضى بنا في سيارته ومعنا حقائبنا تأهبا للرحيل بعد هذه الزيارة . وما أكرم ما لقينا من حفاوة في ذلك القصر البديع . وما أروع ما شهدنا من جمال الريف الإرلندي . ورجعت بنا السيارة مزودين من القصر بصناديق الحلوى الإرلندية الفاخرة ، قاصدين الميناء ، فلم نقف عند الجمرك في صفوف المسافرين ، ولكن قادتنا السيارة إلى الباخرة تواً ؛ ولم نجد حمالين ينقلون الحقائب ، إذ كان موعد السفر لم يحن بعد ، وهم لا يظهرون إلا قبيل الموعد ، على أن البحارة

كانوا سراعاً إلى خدمتنا، فحملوا حقائبنا إلى مكاننا من الباخرة، وجاء ضابطان فجلسا معنا يبادلاننا الحديث فى رقة وظرف ، حتى حان موعد الرحيل، ولو قدّرنا أننا ملاقون هذا اليُسر فى المعاملة لما أرجعنا الهدايا التى كنا اشتريناها من المناديل والمفارش والفوط ، خشية الحظر والتفتيش !

وما سارت الباخرة بضع دقائق ، حتى ثارت زوبعة من زوابع البحر الشمالى المشهورة بعنفها . وانتشر الضباب فى أرجاء الجو ، فلبثنا أربع ساعات فى أشد الكرب ، وذكرنا بالخير باخرة البضائع « بهارستان » التى قدمنا بها . فقد هان علينا ما لقيناه منها بالنسبة لما نعانيه الآن من تلك الباخرة ، وصدق الشاعر :

رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه

وكان حالنا أشبه بحال القائل :

نقمت على عمرو فلما فقدته وجربت أقواماً ، بكيت على عمرو

وبلغت الباخرة بنا مرساها ، فخرجنا منها والريح عاصفة ، ووقفنا فى العراء ننتظر نوبتنا فى التفتيش الجمركى، وكان التفتيش دقيقاً، والسؤال عسيراً . فالموظفون يسألون عن كل شىء ، حتى عن الأقمصة الملبوسة ، أمن صنع الخارج هى أم من صنع إنجلترا ؟ فلما جاءت نوبتنا ، ورأوا شارة المؤتمر على صدورنا ، تركونا نمر بحقائبنا دون فحص .

وفى محطة السكة الحديدية ، أمضينا ثلاث ساعات ننتظر القطار إلى « مانشستر » . وإنما أردت الذهاب إليها ، لكى أزور مؤسسة شيرات Sherratt للطباعة ، تلك المؤسسة التى وكلت إليها طبع كتابى « أطلس متحف محفوظ » . وقد تمت الزيارة ، وطمأننى القائمون على المطبعة بأن الكتاب خارج عما قليل . ولم يتحقق من وعدهم شىء إلا بعد عناء كبير ، فصلّته فى الفصل الخاص بهذا الكتاب . على أنهم تلطّفوا بى فى هذه الزيارة غاية التلطف، حتى إنهم ألبسونى

ثوب عامل المطبعة ، ودخلوا بى إلى قاعات آلات الطبع ، ودربونى على استعمالها بعض وقت .

وكان فى مكنتنا أن نبقى فى « مانشستر » يومين . ولكننا آثرنا العودة إلى « مصر » ، فإن « إنجلترا » كانت تعانى فى هذه الفترة نقص المواد الغذائية . وأذكر أنى قصدت أكبر فندق فى تلك المدينة ، لتناول طعام الإفطار . فسألت عما يستطاع تقديمه ، فقيل لى : « شاى ورنجة » . فقلت : « أفضل أن تقدموا لى بيضة مسلوقة » ، فقيل لى : « بكل سرور ، ولكن هل أحضرت البيضة معك ؟ » .

وثبة الأسد

إن ثورة سنة ١٩١٩، وإن كانت لم تحقق مطالب مصر السياسية تماماً، قد أفلحت في إشاعة نزعات استقلالية في صفوف الأمة شملت شيوخها وشبابها، وتغلغلت في أفئدة النشء، فجاشت بها صدورهم، وكانت بشيراً بالوصول بهم إلى ما يحقق استقلال بلادهم .

والروح الثورية لا تكون وليدة يوم وليلة ، بل هي في حاجة إلى مراحل النضج ، وهذا ما حدث . ففي عام ١٩٥٢ قامت الثورة في مصر ، وأعلنت الجمهورية . وتولى الحكم نخبة من ضباط الجيش بعزم وطيد . ولم تمض سنتان على الثورة حتى تكلل كفاحها بالنجاح الباهر ، وحصلت على استقلال مصر بلا قيد ولا شرط . وستبقى أسماء «جمال عبد الناصر» وصحبه الأبرار خالدة على الدهر . وقد باركت السماء وباركت الأمة عملهم العظيم .

ولأول مرة منذ ألفي سنة أو يزيد انتقل حكم مصر إلى يد أبنائها . ولم يقف الرئيس « جمال عبد الناصر» بها عند هذا الحد، بل أخذ في تحويلها إلى بلد صناعي ينتج ويصدر كل حاجيات الحياة . وأصبح ما تصدره «مصر» من المنسوجات يحتل مكاناً ممتازاً في أسواق أوربا وأمريكا ، فوطد بذلك دعائم الاستقلال ، كما أنه رفع مستوى المعيشة بين الطبقات الكادحة ، ويسّر لهم التعليم في جميع مراحله، فحقق لهم بذلك العزة والسعادة . وفوق ذلك كله جعل لمصر مكانة ممتازة جديرة بالاحترام بين الأمم .

ويحلو لي ، وأنا أدوّن هذه المذكرات ، أن أعطي صورة مما خالج صدور

المصريين من الغبطة والشعور بالعزة والكرامة ، عند ما أذاع السيد الرئيس خطابه الخالد فى إعلان الجلاء، وكنت يوم إذاعته خارج مصر أستجم فى جهة جبلية بالقرب من «لوسرن» ، وجاءتنى رسالة من كريمتى «سميرة» تصف فيها كيف كانت أفئدة أفراد العائلة تختلج بالفخار والتأثر العميق ، وهم يصغون إلى خطاب السيد الرئيس . وتلك هى رسالتها :

والدى العزيز وعزيزتى شهيرة :

إليكما أكتب يا والدى ويا أختى العزيزة ، لأفضى إليكما بما يفيض به قلبي من الغبطة والانشراح . فى هذا المساء منذ لحظات بُشِّرْنا بسعادة كانت عظمتها لا تقل عن مفاجأتها . وأبناء مصر الآن يطلقون العنان لإظهار اغتباطهم بما تحقق لمصر من حياة جديدة .

ولكن دعنا نبدأ من البداية — فى هذا المساء عند عودتى إلى المنزل وجدت كل من فى البيت مجتمعين حول الراديو ، وقالوا لى : عجلى ، فإن أخباراً هامة ستذاع فى الراديو . فأسرعت طبعاً لاستماع الإذاعة .

كان الراديو فى هذه اللحظة يذيع أناشيد وطنية ملأت جو البيت بحماس شديد ،وكان المذيع يقطع الإذاعة من وقت لآخر ليقول إن أخباراً هامة ستذاع عليكم الليلة . فتصوروا لهفتنا وتشوقنا لسماع هذه الأخبار . وفى تمام الساعة العاشرة تكلم « جمال عبد الناصر » بصوت هادىء عميق ملىء بالتأثر الذى يصعب التغلب عليه ، وكم كان كلامه مثيراً للعواطف حين أعلن لشعب مصر أجمع أن مصرنا العزيزة لم يعد يدنسها احتلال أجنبي بغيض . فتصوروا فرحنا عند ما قال إنه فى خلال أشهر قليلة يغادر آخر جندى أجنبي أرض بلادنا المقدسة وإنه لن يطأها بقدميه بعد الآن . وإن جيشنا سيتحرر من القيود المجحفة التى

كانت مفروضة عليه ظلماً ، والآن وقد تخلص منها سيزدهر ويعود إليه مجده القديم .

وكم كان مؤثراً عند ما قال : إن الفضل فى ذلك يرجع لله أولا ، ثم للذين جاهدوا فى سبيل الاستقلال ، وأخذهم الله إلى جواره ، قبل أن يتم . وقال : إنهم فى هذه اللحظة يشعرون معنا بالغبطة ، كما أننا نذكرهم ونشيد بجهودهم .

ثم تكلمت « أم كلثوم » وقالت : إننا نحب مصر بكل قلبنا ، وبكل نقطة من دمنا ! وكان صوتها فى الراديو جميلا عند ما تكلمت كما هو حينما تشجينا بأغانيها . ثم أخذت بصوتها المثير للحواس تغنى نشيداً وطنياً كان فعلا نشيد حب لمصر ، فهزت أوتار قلوبنا . وكان لكل كلمة من نشيدها صدى فى نفوسنا . وحقاً كنت أشعر بأن كل نقطة من دمى تنبض بحب مصر . وإن هذا الدم الذى يجرى فى عروقى ما هو إلا ميراث مقدس لمجد مصر العريق الذى دام مئات القرون ، أخذناه عنك يا والدى وعن والدتى العزيزة أمانة ننقلها بدورنا إلى أولادنا من بعدنا .

وكم كنتُ يا والدى العزيز ويا عزيزتى شهيرة متأثرة من كل أعماق قلبى لأن صوت « جمال عبد الناصر » أعاد لذاكرتى رنة الإخلاص والحب الفائق لمصر التى كنت أسمعها كل يوم عند ما كان عزيزنا « سامى » يتكلم عن مصر التى كانت حبه الأكبر والوحيد ، بل كانت هى له الحياة نفسها . فقد عرفت فى « سامى » كما عرفت فيك يا والدى الوطنية فى جوهرها النقى ، الوطنية المتغلغلة المجردة من حب الذات . ومن بعد « سامى » لم أعد أسمع هذه الرنة ؛ وفى كل هذه السنين كانت أذنى تنصت عبثاً لسماعها من جديد ، كما كان قلبى يشتاق للتجاوب معها — والليلة عادت إلىّ ذكراها بعد طول انتظار ، وشعرت فعلاً أن « سامى » مشترك معنا فى فرحنا اليوم .

وبعد سماعى هذا النبأ المفاجئ اضطربت يا والدى أيما اضطراب ، وشعرت بحاجتى إلى الهواء ، فخرجت إلى الشرفة ، ورفعت عينى إلى السماء . ومن أعماق

نفسى فاضت صلاة الشكر لله الذى سمح بعد أعوام طوال بتحقيق هذا الحلم الذى كان يبدو لنا أنه سيظل حلماً فقط .

ثم ناجيت «سامى» ، وقلت له : استرح الآن يا أخى الحبيب ، وانعم بالفردوس الذى نلته بكل استحقاق ، لأن مصرنا وجدت أخيراً ابناً باراً من أبنائها حطم — هو وإخوانه الذين شاركوه — القيود التى كانت ترسف فيها ، وأنالها استقلالها .

ثم التفتُّ يا والدى فرأيت « يوسف » يدخل الشرفة متجهاً نحوى . رأيت هذا الرجل الذى يسيطر دائماً على عواطفه ، والدموع تملأ عينيه ، لا يقل عنى تأثراً . حتى الأولاد الصغار وكل من فى البيت ، كانت تغمرهم نشوة الفرح .

وإليكما — يا والدى ويا شقيقتى العزيزة — أنقل هذه البشرى ، لتشتركا معنا فيها . كما أشكرك يا والدى لأنك مع والدتى العزيزة بعثتما فى كل فرد منا حبنا لوطننا ، ووعينا لمصريتنا ، وفخرنا بها .

أقبل يديك يا والدى ، وأقبلك يا عزيزتى شهيرة .

سميرة

أما ما ذكرته كريمتى عقب انتهاء الإذاعة من مناجاتها لشقيقها الراحل فلأنه كرس شبابه لفداء الوطن العزيز ، واختطفته يد المنون فى حادث مؤلم سنة ١٩٣٣ ، وهو فى طريقه إلى المقر الذى كان فئة من الشباب يتمرنون فيه على الرماية للذود عن الوطن ، وقد أشارت إلى ذلك مجلة «آخر ساعة» وهى تنعاه فى أحد أعدادها الصادرة فى أواخر شهر مايو سنة ١٩٣٣ . ووصفت الفقيد بأنه كان من الأعضاء البارزين فى لجنة الطلبة التنفيذية . ولعل زميليه الصحفيين القديرين « مصطفى أمين » و « على أمين » يعرفان عن نشاط الشباب فى تلك الحقبة من الزمن أكثر مما أعرف أنا نفسى .

وقد نشرت الصحف اليومية نعى «جمعية مصر الفتاة» و «جمعية مشروع القرش» لفقيدنا بالكلمتين التاليتين :

١ – تعزية

جمعية القرش

بالنيابة عن ستة آلاف متطوع أرفع إليك العزاء .

كان «سامى» على رأس متطوعى القرش . وكان جنديًّا باسلا من جنود مصر الفتاة ، وقدوة زملائه ؛ فوفاته خسارة فادحة . ولكنها الحياة . فعزاء وصبراً .
أما أنا فقد صعقنى النبأ ، وفقدت بموته ناصراً وصديقاً .

سكرتير جمعية مصر الفتاة

٢ – إلى متطوع القرش الراحل

« سامى محفوظ »

عزيزي سامى ، ويا أعز الناس على مشروع القرش : فقدناك فهل أبكياك ، وليس فى عينى دموع . . . أم أرثياك ، وقد بليت كلمات الرثاء ؟ لا ولكن أحيياك . . . . أحيياك بعد موتاك ، كما حييتك فى حياتاك ، عند ما وضعت على صدرك وسام التفوق الذهبي ، وهتفت باسمك .

يا صديقى .... لقد كنت مؤمناً ، وكنت شجاعاً ، وكنت وفيًّا .... وكنت تجاهد معنا لجعل مصر فوق الجميع .

واليوم إذ تغادر الحياة بهذه القسوة وهذه السرعة أنت أيضاً جدير بالتحية ، لأنك علّمتنا أن الحياة رخيصة لا تستحق الحرص عليها . وإذن فلنبذلها رخيصة هيّنة فى سبيل الوطن والفضيلة والحق .

سوف ينقش اسمك فى صفحات القرش الذهبية ، كجندىٍ باسل من جنود مصر الفتاة . وسيحفظه المتطوعون كمثل من مُثُل الشباب العليا .

وداعاً يا صديقى. وإلى اللقاء فلن نخلد، ولن نعمر. ولتحى مصر فوق الجميع».

أحمد حسين
الطالب بكلية الحقوق
وسكرتير مشروع القرش

ومما أذكره فى هذا الصدد ، ما حدثنى به صديقى وزميلى الدكتور « قاسم عبد الخالق » أستاذ الأشعة بكلية طب جامعة القاهرة من أنه كان هو وزميله المرحوم« سامى » عضوين فى مجلس إدارة جمعية « المصرى للمصرى » التى أسسها الأستاذ سلامة موسى سنة ١٩٢٩ ، وكانت الجمعية تصدر مجلة « المصرى » التى كانت تشجع كل ما هو مصنوع فى مصر ، وتنادى بالاستغناء عن كل ما هو أجنبى ، فاستعاضوا عن الطرابيش المصنوعة فى الخارج بطرابيش ملونة من خامات مصرية ، وكذلك كل ما يستطاع عمله محلياً من ملابس داخلية ، حتى أقمشة البدل اتخذت من نسيج مصنوع فى مصر .

وعندى أسطوانة سجل عليها «سامى» حديثاً وطنيا له، وجَّهه إلى الطلبة ، وكثيراً ما كان يكرر لهم تلاوته فى المدرسة .

وقد أشاد أمير الشعراء «أحمد شوقى بك» بشباب مصر الذين نهضوا بمشروع القرش ، فى قصيدة رائعة ، هى آخر ما جادت به قريحته ، وكانت تلاوتها يوم وفاته سنة ١٩٣٢ . وعدة أبياتها أربعون ، أجتزئ منها هنا باثنى عشر بيتًا مختارة ، هى :

فِتْيَةَ الوادى عرفنا صوتكم   مرحبا بالطائر الشادى الغَرِدْ

هو صوت الحق لم يَبْغِ ولم   يحمل الحقد ولم يُخْفِ الحسدْ
وخلا من شهوة ما خالطتْ   صالحاً من عمل إلا فسَدْ
باكرا كالنحل فى أسرابِه   كل سرب قد تلاقى واحتشَدْ
قَد جنَى ما قلّ من زهر الرُبَى   ثم أعطى بدل الزهر الشَّهَدْ
بسط الكفّ لمن صادفه   ومضى يقصر خطواً ويمدّ
أيها الناس اسمعوا ، أصغوا له   أخرجوا المالَ إلى البِرّ يعُدْ
لا تردُّوا يده فارغةً   طالب العون لمصر لا يُرَدّ
تلك « مصر » الغد تبنى نفْسها   نادت البانى وجاءت بالعُدَدْ
أيها الجيل الذى نرجو لغَدْ   غدُك العز ودنياك الرَّغَدْ
علِّمِ الآباء واهتف قائلاً :   أيها الشعب تعاون واقتصدْ
اجمع القرش إلى القرش يكن   لكَ من جمعهما مال لُبَدْ

أخطار نجوت منها

مرت بى فى مراحل مختلفة من حياتى أخطار محققة تهددتنى ، وكادت توردنى موارد الهلاك ، ولكن الله أنجانى منها برحمة منه وفضل . وسأسوق هنا جملة من هذه الأخطار ، عسى أن يكون فيها للقارئ سلوى ، إن لم تكن فيها عبرة وذكرى .

(١) صخرة النجاة :

ما يزال ماثلاً أمام عينى ذلك اليوم الذى نجوت فيه من خطر محقق كنت منه قاب قوسين أو أدنى . فقد تلقيت إشارة تليفونية من مستشفى الأنجلو أمريكان ، مفادها أن سيدة متعسرة فى الولادة دخلت المستشفى ، وهى تطلب الاستعانة بى . وكان ذلك فى الساعة الثالثة صباحاً من أحد أيام شهر ديسمبر ، والضباب الكثيف يكسو الأفق ، فيحجب الرؤية . ولكنى لم أجد مناصاً من أن أستجيب لهذا الطلب . فأيقظت سائق السيارة ، وكان يقيم بالمنزل فوق الحظيرة « الجاراج » ورغبت إليه فى أن يمضى بى إلى المستشفى . فلما بدأ السير . تعذر عليه أن يتبين الطريق ، فجعل يبطئ كل الإبطاء ، وهو شديد الحذر ، وعند جسر « قصر النيل » أدار السيارة ليجتازه ، فإذا بمقدمها يصطدم بحجر كبير اصطداماً عطل محرك السيارة فتوقفت . ونزل السائق ليتخلص من هذا المأزق ، وشد ما دهش حين وجد الجسر (الكوبرى) مفتوحاً ، وليس بيننا وبين الحافة أكثر من مترين ولم يكن هناك نور أحمر ينبه إلى خطر المرور ، ولا كان هناك خفير . ولم توضع السلسلة الحديدية التى تحجز المرور ساعة فتح الجسر . فحمدنا الله على

السلامة ، ولكننا بقينا فى حيرة ، لا نستطيع تعليل وجود هذه الصخرة فى طريقنا ، نصطدم بها ، لكى تعطل سيرنا . ولو أننا سرنا قليلا لهوينا فى النهر ، وكان مصيرنا الغرق لا محالة .

(ب) فضل التخلف :

كنت أمضى إجازة الصيف فى « أوربا » بغية الاستشفاء ، فنزلت « كرلسباد » وكان معى زوجتى وأولادى . وعقب انتهاء العلاج ، قصدنا مدينة « ستراسبورج » . وأبرقنا إلى مدير الفندق الذى أزمعنا النزول به ، نعين له يوم الوصول وساعته . وبينما نحن فى طريقنا علم أولادى بأننا مارون بمدينة « نورمبرج » فى « ألمانيا » فأفضوا إلىّ برغبتهم فى التخلف بها ليلة أو نحوها لمشاهدة معالم المدينة . فلم أجد مانعاً من تلبية هذه الرغبة . ولما وقف القطار بمحطة « نورمبرج » خرجنا نطوف بالمدينة الجديدة والمدينة القديمة . وبتنا فى فندق من فنادقها الجميلة . وفى الصباح قمنا إلى « ستراسبورج » ونحن لا ندرى أن تخلفنا الليلة بتلك المدينة أنقذنا من هلاك وشيك . فقد اصطدم القطار الذى كنا فيه بقطار آت فى اتجاه آخر مقاطع . ووصفت الصحف السيارة الاصطدام بأنه كان عنيفاً ، وأن ركاب الدرجة الأولى والثانية ماتوا جميعاً ، لم ينج منهم أحد .

(حـ) صوت من النافذة :

حدث فى سنة ١٩١٩ أنى كنت متفقاً مع السكرتير الأول لسفارة « أمريكا » ــ وكان قائماً بعمل السفير ــ أن أتولى ولادة زوجته . وكانت الممرضة التى استأجروها تدعى « مسز لندروم » Mrs Lendrum . وفاجأ الزوجة المخاض ، فاستدعيت على عجل ، وكان ذلك فى أول يوم من أيام الثورة المصرية العارمة سنة ١٩١٩ ، وقد حاول المتظاهرون الوصول إلى دار الحماية البريطانية وتحطيمها ، فصدرت

الأوامر إلى الجيش الإنجليزى باحتلال المنطقة ومنع الدخول إليها بتاتاً. ولم يكن لى بذلك علم، فمضيت بسيارتى – وهى «توربيدو» torpedo من طراز «ديديون بوترن» De Dion Bouton – وحاولت الدخول إلى «جاردن ستى» حيث يقيم سكرتير السفارة الأمريكية. فإذا الرصاص ينهل على سيارتى من نطاق الجنود الإنجليز الذين يحتلون المنطقة، وكان غطاء السيارة مبسوطاً عليها، فاخترقه الرصاص، ومرت رصاصتان بجانب أذنى، وكادت إحداهما تلمسنى. ولولا أن مسز «لندروم» Lendrum الممرضة كانت واقفة عند نافذة المنزل، وجعلت تصيح، مهيبة بالجند أن يقفوا إطلاق الرصاص، لكنت صريع ذلك الحادث بلا ريب.

(د) الطائرة المحترقة :

كنت أصطاف فى «لوسرن» Lucerne مع أسرتى، وبصحبتنا، «كامل (بك) عزمى» رئيس نيابة مصر، وهو شقيق المرحومة زوجتى. ووردتنى رسالة من المستر «جيمس ينج» James Young يدعونى أن ألقى سلسلة محاضرات فى كلية الدراسات العليا بهمرسميث Hammersmith «بلندرة». فرأيت فى قبول الدعوة شرفاً لى ولبلادى. ولم أكن مخطئاً فى هذا التقدير، فإنه بعد إلقاء المحاضرة الأخيرة صعد مستر «جيمس ينج» إلى المنصة، وأبدى رأيه فى المحاضرات، ونوه بالنهضة العلمية الكبرى فى مصر.

والعجيب أنى لما لبيت دعوة تلك الكلية، تلقيت قبل ثلاثة أيام من موعد المحاضرة الأولى برقية من المستر «ينج» Young يخبرنى بحجزه مكاناً لى فى الطائرة التى تقوم من «زيورخ» Zurich يوم كذا ساعة كذا، وأن تذكرة السفر أرسلت لى بالبريد العاجل. وعلمت زوجتى بالأمر، فأبت كل الإباء أن أركب هذه الطائرة بالذات. وقامت بيننا مشادة تدخل فيها «كامل (بك)

عزمى » ، وانتهى الأمر بإذعانى لرغبة زوجتى ، على أن أسافر بقطار الليل . فأصرّت على أن يرافقنى شقيقها إلى محطة السكة الحديدية ، ولا يغادرها إلا بعد قيام القطار الذى يقلنى إلى « باريس » . وفى العاشرة مساء خرج معى « كامل (بلك) » إلى المحطة ، وبقى حتى قام القطار ، ووصلت إلى باريس الساعة الثامنة صباحاً . ولم أكد أنزل منه حتى سمعت باعة الصحف ينادون : « حادثة خطيرة لطيارة إنجليزية » . واشتريت إحدى الصحف . وقرأت فى عنواناتها العريضة نبأ احتراق أكبر طيارة إنجليزية يسوقها أمهر طيار إنجليزى بعد قيامها من مطار «زيورخ» Zurich بخمس دقائق لاصطدامها بأحد أسلاك البرق ، واحتراق جثث ركابها الثلاثين . فحمدت الله الذى ألهم زوجتى أن تمنعنى من ركوب هذه الطائرة . ومضيت على الفور إلى « التليفون » فاتصلت بزوجتى أشكر لها هذا الفضل ، وأطمئنها بوصولى سالماً . ثم اتصلت بالمستر «ينج» Young وأخبرته بأنى لم أكن بين ركاب الطائرة المحترقة .

أحداث خارقة

صادفنى كثير من الأحداث الخارقة ، تخالف المألوف ، وتخرج على السنن الطبيعية المعهودة . وقد عجزت عن أن أجد لها تعليلا يقبله العقل . ولم يهتد العلماء بعد إلى ما يكشف لنا الغامض من أسرار المخ ، ومدى إمكانياته . وإن المرء ليقف مشدوهاً حائراً لا يعرف تفسيراً لبعض الظواهر ، مثل قراءة الخواطر ، وانتقال الأفكار . وما يسمى « العفط » أو الصوت الباطنى ، وهو التحدث بصوت من البطن ، لا يظهر له أثر فى الشفتين ، وأيضاً ظهور ملكات فى سن مبكرة لأشخاص موهوبين لم يسبق لهم أن يلقنوا شيئاً مما نبغوا فيه ؛ ومن أمثلة ذلك « موزار » الذى ألف مقطعات موسيقية رائعة ، وهو فى الرابعة من عمره . وقاد فرقة موسيقى الأوبرا بفينا Vienna ولم يجاوز الحادية عشرة . ومنذ سنين طوال لقيت صبياً فى الثامنة من العمر ، يكاد يكون أبله ، وهو يجيد حاصل ضرب عشرة أرقام فى عشرة أرقام فى أقل من دقيقة . وقد امتحنوا مقدرته هذه فى « وزارة الأشغال » ، وقارنوا ما وصل إليه من حل بما سجلته الآلة الحاسبة ، فلم يخالفها إلا مرة واحدة ، واتضح أن الآلة هى التى لحق بها خلل ، وأن الصبى على صواب .

لقد اكتشف العلم من أسرار الطبيعة عجائب وغرائب ، يقف المرء حيالها ذاهلا . بيد أننا تعودناها ، فلم تعد تثير فينا دهشة . فمن اكتشاف « التليفون» و « التلغراف » السلكى واللاسلكى و « الراديو » و « التليفزيون » ، إلى فلق الذرّة وإمكانياتها السلمية والحربية . إلى معجزات قهر الفضاء ومحاولة الوصول إلى الكواكب ، إلى العامل الألكترونى والمخ الألكترونى فى قيامه بعمليات ذهنية دقيقة ، وفى الترجمة من لغة إلى أخرى . إلى غير ذلك من مكتشفات

ومخترعات تحار فيها الألباب ، ولكن الذين اكتشفوا كل ذلك لم يستطيعوا أن يلقوا ضوءاً على أسرار العقل والنفس والملكات ، مما هو محجب ليس له حتى اليوم من تفسير . وإليك جملة مما صادفني من خوارق الظواهر والأحداث :

(ا) الرؤيا الصادقة :

حدث أنه لما توفى والدى كانت إحدى شقيقاتى تقطن قرب « دمنهور » ، فرأت فى منامها أن أبى توفى ، وأنى دخلت حجرته وأردت إيقاظه من نومه فإذا هو قد فارق الحياة ، ولما استيقظت أسرعت إلى المنصورة ، حيث كنا نقيم . وكنت قد أعلمت شقيقى برقياً بالوفاة ولكنى لم أجد وسيلة لإعلام شقيقتى ، ولكنها بالرغم من ذلك حضرت فى نفس القطار الذى حضر فيه شقيقى ، دون أن يتلاقيا فى القطار أو يعلم أحدهما بسفر الآخر . وكنت فى المحطة لاستقبال شقيقى . ولما نزل من القطار رأينا شقيقتى تنزل من المركبة المجاورة . وكانت مرتدية ثياباً سوداء . وقصت علينا رؤياها ، فكأنما كانت معنا تشهد ما حدث .

وقد سبق لى تفصيل ذلك فى صدر هذه المذكرات .

(ب) رنين جرس :

كانت إحدى سيدات الطبقة الراقية فى « مصر » حاملا للمرة الخامسة . وكنا نرجو أن يكون مولودها الجديد ذكراً ، حتى يستطيع أن يتنظر على أوقاف الأسرة ، ولسوء حظها ضوعف حملها هذا باندغام معيب للمشيمة ، فخشينا أن يحدث نزفاً يهدد حياة الأم . فطلبت منها أن تدخل المستشفى قبل الوضع بشهر . ولكن منعتها من ذلك ملابسات خاصة . وكنت أتوقع أن يطرأ عليها طارئ فى أية لحظة . وفى إحدى الليالى — والساعة الثالثة صباحاً — رن « التليفون » رنة قصيرة ، بيد أنها أيقظتنى . من نومى ، ورفعت السماعة فلم يتكلم أحد . وتملكنى

شعور بأن تلك السيدة بالذات فى خطر ، بالرغم من أننى كنت مرتبطاً بولادات أخرى لا تخلو من المضاعفات . فارتديت ثيابى ، وأيقظت سائق السيارة ، وحملت آلات الولادة ، وكنت أبقيها دائماً معدة للعمل . وطلبت إلى السائق أن يمضى بى إلى منزل هذه السيدة ، فلما وصلنا وجدنا نوراً فى حجرة بالطبقة الأولى ، وخطونا نريد الدخول ، فإذا باب المنزل مفتوح ، وصفقت فلم يرد أحد ، فصعدت إلى الطبقة الأولى ، فسمعت السيدة تئن أنيناً مديداً ، فدخلت حجرتها فألفيتها تسبح فى دم النزف ، فاتخذت من الإجراءات ما تمت به الولادة بسلام ، وكان المولود ذكراً . وبعد نصف ساعة دخل البوّاب على السيدة يقول لها : إنه اتصل بى ، تليفونياً ، فلم يستطع ، لأن « التليفون» معطل ، فرأى أن يذهب إلى منزلى ، ليستدعينى ، فلم يجدنى .

وهكذا كان الرنين المبهم لجرس « التليفون » باعثاً لى على أداء الواجب فى الوقت المناسب . وربما كان تفسير ذلك من قبيل انتقال الخواطر ، أو أنه من المصادفة المحضة . ولكنه على أية حال لا يخلو من غموض ، وإذا كان من الغلو أن نعده من الأحداث الخارقة ، فإن طرافته تجعله خليقا بالذكر .

(ج) خفايا الذاكرة :

حدث فى أثناء الحرب العالمية الأولى أن سيدة فرنسية . وهى زوجة أحد رجال السلك السياسى فى سفارة « فرنسا » بمصر ، أصابها ما يستدعى إجراء جراحة كبرى ، فأدخلتها المستشفى ، ولما شرعنا فى تخديرها بمزيج من « الكلوروفورم » و « الأثير » ، هاجت وجعلت تغنى باللغة العربية ، فى لهجة تونسية ، قائلة :

يا بنت يا بيضا وجننتينى   جبت النبيت الابيض وسكرتينى

ولما عادت السيدة إلى سريرها بعد انتهاء الجراحة ، ذهبت إليها للاطمئنان بعد أن أفاقت من المخدر ، وقلت لها باللغة العربية «مبروك» ، فلم تفهم قولى ،

فذكرت لزوجها ما كان من غنائها باللغة العربية أثناء التخدير ، فقال : « لعل السر فى ذلك أنها وهى طفلة ، منذ عشرين سنة ، عين أبوها فى منصب بالسفارة الفرنسية فى "تونس" ، فاستأجر لطفلته مربية تونسية . وبعد أربعة أعوام ، عادت الأسرة إلى « فرنسا » ، ولم تغادرها . فلا بد أن الفتاة تعلمت من حاضنتها التونسية بعض الأغانى العربية فى تلك الحقبة الماضية البعيدة » .

وفى اليوم التالى ذكرت الممرضة للسيدة بعد ذلك قصة غنائها بكلمات عربية ، فلم تصدق وقالت : «هذا مستحيل» ، ولم تذكر حرفاً واحداً من الأغنية التى ترنمت بها فى تخديرها . ولعل تفسير ذلك ما يذكرونه الآن من أن الذاكرة تتألف من «ألكترونات» تتكدس فى المادة السنجابية للمخ ، وتظل راكدة ، حتى ينزاح عنها العقل الواعى فتنطلق .

(د) قراءة الخواطر ، والصوت الباطنى :

فى شتاء سنة ١٩١٨ قدم « القاهرة » رجل اسمه « نيكولز » ، وهو سيامى ، ويطلق عليه لقب « حاوى إفرنجى » . وأخذ يعرض ألعابه فى « تياترو عباس » فى شارع عماد الدين ، وكان فيما قدمه «قراءة الخواطر» أو «قراءة الضمير» . وكنت وأسرتى بين المتفرجين ، فطلب من الحاضرين أن يتقدم منهم من يرغب فى أن يقرأ له ما يدور بفكره . فتقدمت أنا ، فقال لى : « فكر فى شىء تريده » ففكرت فى جملة كانت قد ظهرت فى جريدة « المقطم » المسائية ، والمدهش أنه قالها بحروفها بلغة عربية مهشمة ، وكان الرجل يستطيع إلى حد ما التكلم بالعربية . ثم طلب منى بعد ذلك أن أستذكر رقم الساعة التى فى جيبى ، فدخلت إحدى حجرات المسرح ، وأغلقت بابها ، وحفظت رقم الساعة ، ولما عدت إلى الرجل ، ذكر لى الرقم صحيحاً .

وأيقنت أن الرجل ممن أوتوا موهبة قراءة الخواطر .

وقد صعد هذا السيمانى بعد ذلك إلى منصة المسرح، ومعه سيدة شابة. وقال: إنه سينومها تنويماً مغنطيسياً، ويريدها على أن تقرأ ما نكتبه فى ورقة نعطيها له. ثم عصب عينى السيدة وأجلسها على كرسى، ووضع بجانبها سبورة وأعطاها قطعة من «الطباشير» ثم ترك منصة المسرح، ووقف بالقرب منى. والتفت إلىّ قائلا: «اكتب على هذه الورقة أى رقم تريده وأعطنى الورقة، وستقوم الوسيطة بقراءته» فكتبت عدداً مؤلفاً من ستة أرقام، وأعطيته الورقة. فقال للسيدة: «اكتبى الرقم الذى فى الورقة بالطباشير على السبورة، وانطقى به بصوت عال» فكانت كلما نطقت برقم كتبته. فصفق لها الجمهور تصفيقاً حاداً، فأقبلت على الرجل أسأله: «هل يمكن للسيدة الوسيطة أن تكتب الرقم أولا، ثم تنطق به من بعد؟» فقال: «هذا غير ممكن». فأدركت أن هذا الرجل ممن لهم موهبة «العفط» أو الصوت الباطنى، Ventriloquism وهو التكلم من البطن، بدون أن تتحرك الشفتان، وأنه هو الذى ينطق بالرقم بحيث يأتى الصوت كأنه صادر من جهة المسرح حيث تجلس السيدة الوسيطة. وأن هذه السيدة لم تكن مهمتها إلا كتابة الرقم الذى تسمعه منه.

ولعل الذى نبهنى إلى اكتشاف حيلة الرجل هو أنى كنت يوماً فى قاعة الجراحة بالمستشفى القبطى، أجرى جراحة لإحدى سيدات الريف، وكان المخدر الذى استخدمناه هو «الستوفايين» الذى يخدر الجزء السفلى للجسم، فلا تشعر المريضة بأدنى ألم فى موضع الجراحة، ولكنها تكون فى تمام وعيها، وفى أثناء الهدوء الشامل فى قاعة الجراحة سمعت صوتاً من خارج القاعة لسيدة تبكى ابناً لها مات قبل دخولها المستشفى، وتندبه قائلة:

«حكمة إلهية، إنى أموت والوالدة حية».

فناديت «سيد» كبير الممرضين، وطلبت منه أن يخرج ليمنع هذه السيدة من الندب والعويل، فأطاع، وما لبث أن رجع يقول إنه لم يجد أحداً يبكى

أو يندب فى الخارج ، فقالت المريضة : « يا سيدي ، أنا اللى بابكى ابنى اللى مات » ، فطلبت إليها أن تسكت حتى ننتهى من إجراء الجراحة . وقد أخبرتنى هذه السيدة فيما بعد بمقدرتها الفريدة على أن تتحدث من البطن ، وأجرت أمامى تجارب لإطلاق صوتها ، بحيث يسمع من الجهة التى تبغى أن يسمع منها ، تارة من جهة السقف ، وطوراً من الركن الأيمن أو الأيسر . وحيناً كأنه صوت من خارج .

(هـ) الحياة بعد الموت :

كان اليوم يوم « الجمعة » ، والعمل فى « قصر العينى » متعطل فيما عدا استقبال الحوادث . وفى ذلك اليوم دخلت قسم الولادة سيدة مضى عليها ثلاثة أيام تعانى فيها المخاض . فاتصل بى نائب القسم ، قائلا : « إن الحالة تستوجب إجراء جراحة قيصرية » فأسرعت إلى المستشفى ، ونقلنا المريضة إلى قاعة الجراحة ، وبدئ فى تخديرها « بالستوفايين » كما كان متبعاً فى ذلك الحين . وبينما أنا أرتدي الثوب المعقم تأهباً للجراحة ، جاءنى طبيب التخدير مذعوراً ينبئنى بأن السيدة فارقت الحياة . فعجلت إليها ، وتبينت لى عليها سمات الموت واضحة . فبادرت بشق البطن لإخراج الجنين ، على حين تولى طبيب التخدير إجراء الإسعافات اللازمة . ولما أخرجت الجنين أخذت فى علاجه إذ كان فى حالة اختناق ، ثم رجعت إلى المريضة أدلك القلب من البطن ، دون جدوى . ولم أجد بداً من أن أخيط البطن . وقد مضى على الوفاة نحو أربعين دقيقة . ثم خطر لى أن أحقن القلب بالكحول . ولم نكن يومئذ قد أدركنا قيمة «الأدرنالين» فى مثل هذه الحال ، فلما دخلت الإبرة القلب ، وقبل الحقن بالكحول ، أخذ القلب فى الانقباض . فأسرعت بإجراء التنفس الصناعى ساعتين . وتوليت ذلك بنفسى ، فعاد إلى المريضة تنفسها الطبيعى . ولما أفاقت سألتها : هل تذكر شيئاً مما حدث لها ؟ فأجابت بأنها لم تعِ شيئاً منذ ابتدأ

التخدير . وظلت حالتها لا بأس بها ، خلال يومين ، لا يلاحظ عليها إلا نوبات من التشنجات ، جعلت تتقارب شيئاً فشيئاً .

وفى اليوم السابع ، أثناء مرورى مع الطلبة فى قسم الولادة ، توفيت المريضة ، فأسرعت بنقلها إلى قاعة التشريح ، واستدعيت أستاذ « الباثولوجيا » . وأجرينا معا الصفة التشريحية للجثة ، فوجدنا الطبقة السطحية للمادة السنجابية فى المخ فى حالة تنكرز (موات) . ففصل أستاذ « الباثولوجيا » المخ ، ووضعه فى « الفورمالين » إلا قطعة صغيرة منه أجرى تجميدها بالكحول ، ولما فحصها مكروسكوبيا وجد أن الجزء السطحى للمادة السنجابية فى حالة تنكرز (موات).

ولما انقضت الأيام الكافية لتثبيت المخ أجرى عمل قطاعات منه للفحص المكروسكوبى ، وبعد بحثها بحثاً دقيقاً وجد أنها تتفق مع القطاع الذى ثبته بالكحول ، مما يحقق أن المادة السنجابية حدثت فيها «نكرزة» على أثر وفاة المريضة فى المرة الأولى بعد أن حقنت «بالستوفايين» ، وأن نكرزة المادة السنجابية كانت هى السبب فى حدوث التشنجات .

وكان من رأى أستاذ « الباثولوجيا » أن المريضة ماتت فعلا على أثر تخديرها . وقال لى: «إن هذه أول مشاهدة عملية دقيقة تفيد إمكان عودة الحياة إلى الجسد بعد الوفاة الفعلية . وأن التنفس الصناعى مدة ساعتين أتاح للقلب بعد أن بدأ فى الانقباض أن يبقى حياً حتى استطاعت مراكز التنفس الطبيعى أن تعمل عملها ، وقد تم تنبيهها » .

وقد مضت ثلاثون سنة على هذا الحادث ، وما زلت أذكره كأنه جرى أمس .وهو الحادث الأول والأخير فيما شهدت من إمكان عودة الحياة إلى الجسد بعد الوفاة ، وكان ذلك فى حينه فذا ، ولكن الصحف السيارة أخذت تنشر فيما بعد حوادث من هذا القبيل ، ولست أستيقن مبلغها من الصحة .

ولا أنسى أنى عند ما غادرت قاعة التشريح فى ذلك اليوم الذى بعد عهدى به ، بارحت القاعة وقد أخذت أفكار محيرة تستبد بى، لقد رحت أسأل نفسى : ما تلك الروح التى فارقت الجسد ، فوقف القلب عن العمل ، وانقطعت عن جزيئاته مقومات الحياة، فأخذ الاضمحلال يدب إلى خلاياه ، وكان أسبقها إلى الانحلال الطبقات السطحية للمادة السنجابية للمخ ؟ وكيف أنه عند ما بدأ القلب عمله مرة أخرى ، ونالت أعضاء الجسم مقوماتها ، راجعتها الحياة ، إلا تلك الطبقات التى اضمحلت؟ وأين كانت هذه الحياة التى عادت ؟ أكانت كامنة فى الجسد تتحين فرصة العودة ؟ إن فى ذلك لغزاً ما زال حله مستوراً عن العقول والأفهام .

(و) مناجاة الروح :

لما نكبت بوفاة نجلى الوحيد سنة ١٩٣٣ حزنت عليه حزناً عنيفاً ، أفضى بى إلى اليأس من الحياة . فانتويت الانقطاع عن العمل الخارجى بقية أيامى . ولزمت المنزل فترة . وكان من بين المرضى الذين سبق لى علاجهم سيدة من الأسرة المالكة، توليت أمرها فى ولاداتها الأربع. فحضر زوجها يقول لى: إن السيدة أصيبت بحمى تيفوئيدية شديدة ، وهى حامل فى شهرها الأخير . وقد أتاها المخاض ، وطلب منى على استحياء أن أتولى ولادتها ، إذ أن الأطباء الذين استدعاهم لها قالوا إن حياتها فى خطر، وهم يخشون أن تحدث لها بعد الولادة صدمة تقضى عليها . وقبل أن أبتّ فى هذا الطلب برأى ، قابلت زوجتى ، وأخبرتها بأنى مدعو إلى الأميرة فلانة لمعالجتها ، وهى فى حالة ميئوس منها . فأشارت على بأن أستجيب للدعوة ، فأبديت لها خشيتى من أن يصيب السيدة مكروه ، فأنسب ذلك إلى حالتى النفسية السيئة . فقوّت عزيمتى ، وقالت : « لا تستسلم للهواجس ، واستعن بالله » .

فذهبت إلى منزل السيدة، واستبان لى أن موعد الوضع يحل بعد وقت قصير. فانتقلت إلى حجرة مجاورة، وارتديت الثياب التى أرتديها فى حالات الولادة، وجلست على كرسى أنتظر إشارة الممرضة. ولا أدري هل غفت عيناي أو كنت على حالتى يقظاً؟ ولكنى أذكر أنى لمحت ابنى مقبلا نحوى، وهو يبتسم. وبعد أن صافحنى قال لى: إنه الآن فى منتهى السعادة، لا يسوءه إلا حزننا لفراقه ذلك الحزن الشديد الذي لا يوصى به الله، وأردف قائلا: «لقد تملكك اليأس يا بابا، وكان عليك أن تكون فى صبرك مثلا يحتذي لوالدتى وشقيقاتى. فلا تعتزل العمل، وأمامك من الجهاد فى الحياة ما يتطلب منك همة وعزماً. والله معك. وإن السيدة الآن على وشك الوضع، وستتم ولادتها بعد قليل بسلام». وما كاد ولدى يبلغ بحديثه هذا الحد، حتى قُرع الباب، ودخلت الممرضة تدعونى، فذهبت إلى حجرة السيدة، وأتممت ولادتها.

وحين رجعت إلى منزلى، علمت أن كريمتى «سميرة» كانت واقفة على مقربة من زوجتى، قبل أن أذهب لولادة تلك السيدة، واستمعت لما دار بيننا من حديث، ورأتنى وأنا فى حالة نفسية شديدة. ولم تملك إلا أن تدخل حجرة ولدى التى بقيت على حالها تنظف وترتب كل يوم، كما كان الأمر فى حياته. وركعت أمام سريره، وطفقت تصلى لله وتناجيه بحرارة، وتذكر له ابتلاءه إيانا بهذه الكارثة التى جرحت قلوبنا جرحاً وجيعاً. ثم نادت أخاها فى صلاتها تسأله أن يشاركنا فى التوجه إلى ربه، لكى يثبت العزاء فى قلب الوالد الثاكل، ويعينه فيما بين يديه من عمل. ثم بكت بكاء مريراً، وأغفت على حافة السرير إغفاءة طويلة، حتى أيقظتها والدتها، وكانت تبحث عنها فى سائر الحجر.

أما أنا فقد شعرت — بعد أن انتهت الولادة — بسلام فى نفسى، وعدت إلى منزلى وأنا فى حالة هدوء تختلف كثيراً عن حالتى عند ما غادرته.

وقد سألتنى زوجتى عند رجوعى عما انتهت إليه حالة السيدة ، فأخبرتها بسلامتها ، وقصصت عليها ما كان من رؤيتى طَيْف ولدى فى الحجرة المجاورة لحجرة الوالدة ، وما ألقاه على سمعى من حديث . فأخبرتنى بما كان من شأن كريمتى « سميرة » . وهى متعجبة من هذا التوافق .

ولست أرى فى تأويل ذلك شيئاً من فكرة تحضير الأرواح . وإنما أعدّ رؤيتى لولدى ، وحديثه لى ، فى تلك الساعة ، برهاناً على أن الله استجاب لدعاء كريمتى فى صلاتها الحارة ، فأتاح لى أن أشهد طيف ولدى ، وأن آنس بحديثه ، ليملأ قلبى طمأنينة وأمناً وسلوى .

سر الخليقة

بحثت عن النفس أين تكون فحارت ظنونى ولم ألق شيَّا
بحثت عن الخالق السرمديّ فغطّى الجلالُ على ناظريَّا
ولما شمِلْتُ الجميعَ بحبّى تَبَيَّنتُ ربى ونفسى جَليَّا

ما كدت أبدأ دراستى فى الطب ، حتى عرضت لى — كما تعرض لمن هم فى سنى من الشباب — فى أثناء مرحلة التعليم المتقدمة— شكوك وشبهات تتصل بالعقيدة ، وتتناول مدى التوافق بين العلم والدين . فكنت أحاول كثيراً أن أصل إلى معرفة شيء من سر الخليقة ،ومكان الخالق منها . وفى مضطرب تلك الشكوك والشبهات عانيت من القلق الروحى والحيرة النفسية ما عانيت . على أن مواصلة البحث والتأمل ، لم تلبث أن هدتنى إلى الحقيقة ، وعمرت وجدانى بالإيمان . وقد عبرت عن شعوري فى هذا الصدد ، بالأبيات الثلاثة التى صدرت بها هذا الفصل . ويطيب لى أن أقدم بعض ما عنّ لى من الخواطر والملاحظات إلى من تقع بين أيديهم ، مذكراتى هذه ، عسى أن يكون لهم فيها ما كان لى من الطمأنينية النفسية والإيمان الوطيد .

كان مبتدأ الشكوك والشبهات ، فى الدرس الأول الذي ألقاه علينا الدكتور «بيتر» Bitter أستاذ «قانون الصحة» ؛ وموضوعه أن المادة لا تفنى . فإن مات امرؤ تحلل جسمه إلى عناصره الأولى ، واختلطت ذراته المنحلة بالتراب ، وبها يغتذي نبات الأرض . وبالنبات يغتذى الإنسان ، ومنه يتكون جسمه . فالمادة الأرضية هى كما هى منذ انفصلت الأرض عن الشمس ، لم يضف إليها من

شيء إلا ما يتساقط عليها من نيازك السماء بين حين وحين . ذلك ما طرق سمعي فى الدرس الأول ، فقلت فى نفسى : كيف يقوم الناس إذن لرب العالمين يوم الحشر، ليلقوا جزاء ما عملوا فى نعيم أو جحيم ؟ كيف تتميز الأجساد التى تشابكت عناصرها واختلطت وتشكلت ، وتقلبت بها الأحوال والأطوار فى ملايين السنين ؟ وذكرت قول الشاعر الفيلسوف « أبى العلاء » :

صاح هذي قبورنا تملأ الر   حب فأين القبور من عهد عاد ؟
خفف الوطء ، ما أظن أديم الـ   أرض إلا من هذه الأجساد
ربّ لحد قد صار لحداً مراراً   ضاحكاً من تزحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين   فى طويل الأزمان والآباد

راودتنى هذه الأفكار ، واستبدت بى الحيرة ، وكنت قد ألزمت نفسى أن أقتدى بأبى فى قراءة ما تيسر من « الكتاب المقدس » قبيل النوم كل ليلة . فلم تمض بضع ليال حتى اتفق أنى قرأت رسالة « بولس » الأولى إلى أهل « كورينثوس » فى الإصحاح الخامس عشر ، وقرأت فيها ما يأتى : « كيف يقام الأموات ؟ وبأى جسد يقومون ؟ يزرع (الإنسان) جسما حيوانيا ، ويقام جسما روحانيا . . وكما لبسنا صورة الترابى ، سنلبس أيضاً صورة السماوى . . إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله . . . » فانقشع عن عينى شيء من غشاوة الحيرة ، وعاودنى بعض الاستقرار . وعلى مر الأيام ، انتهيت بالدراسة إلى نتائج رسخ بها إيمانى رسوخاً لا يتزعزع .

* * *

ففى أثناء دراستى لعلم الجراثيم، وعلم الطفيليات ، ثبتت لى حقائق ليس إلى إنكارها من سبيل. منها يستدل على أن العالم مسيَّر بقوانين سنّها قوة مدبرة سامية، وما برحت تتخذ فى إنفاذها وسائل خفية ليس فى طاقتنا العقلية إدراك سرها .

وأمّ هذه القوانين : قانون حفظ النوع ، وبقاء الأنسب ، والانتخاب ، الطبيعى . وإنه لقانون عجيب صارم يقف الإنسان أمامه ذاهلا .

إليك مثلا عالم « الميكروبات » ، وهى من أدنى الفصائل النباتية ، لم يستطع العلماء بعد تمييز أجهزة لها . فليس لها جهاز عصبى ، ولا مخ . وإنما هى خلية من « بروتوبلازم» له خصائص الأجهزة الحيوية جميعاً. وبعض هذه المكروبات ضرورى لبقاء حياة الإنسان ولبقاء النبات الذى يتغذى به، إذ أنه يحلل التربة التى يتغذى منها النبات ويجعلها سهلة الامتصاص، ولكن الكثير منها علو للدود للإنسان ، فالحرب بينهما سجال ، فلا يفتأ الإنسان أن يسعى للقضاء عليها بالمبيدات الكيميائية ، أو بالحرارة الشديدة . فانظر ماذا تصنع هذه المخلوقات لحفظ حياتها ، واستبقاء نوعها ، ومقاومة العدوان عليها ؟ إنها متى شعرت بما يهددها من خطر ، انبرت لدفعه ، فأفرز عدد منها مادة تقضى بها على مبيداتها ؛ فإن لم تفلح هذه المادة فى دفع الشر ، أفرزت طبقة من المواد حول غلافها تجعلها فى حرز حريز من تلك المبيدات . وتتحول إلى ما يسمى « الجرثومة » ، وتبقى على هذه الحال حتى تطمئن إلى أن الخطر قد انزاح عنها ، فتفرز مادة أخرى تذيب تلك الطبقة العازلة ، وتستأنف سعيها فى الفتك بالإنسان .

ولما اكتشف « أرلش » Ehrlich عقار ٦٠٦ المضاد للزهرى ، فحص دم الذين عالجهم به من المرضى ، فوجدهم قد شفوا من هذا الداء الوبيل فى يوم وليلة . ولكن لم تمض عشرة أيام حتى عادت « سبيروكيتات (حلزونات) الزهرى » إلى دم أولئك المرضى . ولما بحث عن السبب تبين له أن جملة من حلزونات « الزهرى » هربت عند حقن المرضى بعقار ٦٠٦ ، واستخفت فى نخاع العظام، حتى استطاعت أن تكوّن فى نفسها مناعة ضد العقار المبيد، فلما خرجت من مخبئها عاد المرض إلى سيرته الأولى ، فاستدعى ذلك أن يبحث « أرلش » Ehrlich

عن طريقة أخرى للقضاء على الداء بعقار جديد . ومثل هذا حدث فى مكافحة « الميكروبات » على اختلافها ، فما يكتشف مضاد للحيوية حتّى تصبح لبعض هذه « الميكروبات » مناعة ضده .

وإن العجب ليأخذ منا كل مأخذ ، حين نقف على ما تبذله دودة « البلهارسيا » فى سبيل احتفاظها بنوعها . فهى تختار لإخراج بيضاتها بيئة تعينها على تحقيق ذلك الغرض ، وإن الذكر منها ليبرز من الأوردة الكبدية محتضناً أنثاه ، فيسير بها على عكس مجرى الدم ، حتّى يوصلها إلى العضو الحشوى الوحيد الذى تستطيع البيضات فيه أن تخرج من الجسم ، وذلك العضو هو المثانة ، أو المستقيم ، بحسب نوع الدودة . فتسير فى الأوعية الشعرية ، وتتكدس تحت الغشاء المخاطى من المثانة أو المستقيم ، محدثة تغييرات باثولوجية تفتح لها الطريق حتّى تخرج مختلطة بالبول أو البراز . ومن البول أو البراز تخرج إلى قنوات المياه والمصارف ، وتسطو على الذين يستحمون فيها ويشربون منها .

وهناك دودة اسمها « دودة غانا » قرأت وصفها فى كتب « باترك مانسون » Patrick Manson وقد جاء فى هذا الوصف قوله إن هذه الدودة تصيب السقائين ، وهم حملة الماء فى القِرَب . وهذه الدودة متى أتمت دورتها فى جسم المريض تحاول أن تستبقى نوعها بأن تقذف بويضاتها إلى الماء الذى يغوص فيه السقاءون عندما يملأون قربهم بالماء . فتسير تحت جلد المريض ، ولا تزال تسير حتّى تبلغ قدمه . ومتى وصلت إلى القدم ، ثقبت الجلد وقذفت ببيضها فى الماء . ويقول «مانسون» : إنه حاول إفساد خطتها هذه ، فطلى أقدام السقائين بالقار حتّى الركب . فما كان من الديدان إلا أن غيرت خطة سيرها ، فاستقرت عند ظهور السقائين التى تبلها القرب ، وهنالك ثقبت الجلد ، وقذفت بالبيض .

وإليك مثلا آخر فى محاولة يبذلها السمك المسمى « سالمون » وهو حديث لا يخلو من عجب ، فإن أحسن الأمكنة لتناسله رقائق الماء فى نهر « فيرث أوف فورث» Firth of Forth الذى يصب فى شرق ساحل «أسكتلندة» . أما أطيب مقام لمعيشته فهو فى نهر « سنت لورنس » فى الساحل الشرقى « لكندا » ، فإذا رغب هذا السماك فى التناسل سار الذكر والأنثى معاً من نهر لورنس حيث يعيشان،عابرين المحيط الأطلنطى إلى البحر الشمالى فى شرق «أسكتلندة» . ومتى وصلا إليه سارا إلى مصب النهر المقصود ، ومن هناك يصعدان إلى إحدى الرقائق المائية فى فرع من فروعه الصغيرة وينتخبان جهة ضحلة قليلة الغور، لا تتصل بسائر النهر إلا بفتحة صغيرة . ومتى استقرا فيها عملا على إقامة سد بينها وبين سائر المياه ، ثم تضع الأنثى بيضها ، ومتى فعلت ذلك رجعت وحدها إلى نهر « سنت لورنس » وهو محل الإقامة . أما الذكر فيبقى مع البيض الذى يلقحه حتى تخرج منه الأجنة وتنمو ، فإذا بلغت من السن مبلغا معينا ، رجع بها إلى ذلك النهر ، حيث يطيب المقام ؛ ويكابد هذا السماك جهدا جهيدا فى الذهاب إلى الرقائق المائية والإياب منها ، حتى إن الأحجار المسنونة التى تعترض سيره تترك فى جسمه جراحا متسعة .

إن ما ذكرته أمثلة قليلة من كثير مثلها تبذلها المخلوقات لحفظ نوعها .

وهناك أمر آخر تلجأ إليه الطبيعة لحفظ النوع ، وهو مراعاة حفظ النسبة بين الذكور والإناث سواء فى ذلك الحيوان والإنسان . ففيما يتعلق بالإنسان ، إذا نظرنا إلى الأسر من حولنا وجدنا أن بعضها يرزق بمولود ذكر ومولودين أنثيين ، وبعضها بأربعة من البنين وواحدة من البنات . ومن الأسر من لم يرزق بذكور البتة . ومن الرجال والنساء عاقر وعقيم . وعلى الرغم من هذا التباين والاختلاف فإن النسبة واحدة أو تكاد بين الذكور والإناث فى كل بلد ، بل فى كل أمة ، بل فى كل قارة . ويدلنا الإحصاء العالمى على أن النسبة العامة هى ١٠٥ من

الذكور يقابلون ١٠٠ من الإناث .

وفى غضون بحثى العلمى لاحظت ما يثير الدهش ، وذلك أن هناك إجراء مدبراً للتخلص مما يعوق حفظ تلك النسبة . ففى أوائل الحمل تبلغ الذكور فى بطون أمهاتهم أكثر بكثير من الإناث ، ولكن حالات الإجهاض تقضى على تلك الزيادة ، فالذكور الذين تجهضهم أمهاتهم أكثر من الإناث . ولولا ذلك لكان عدد البنين الذين يولدون عند تمام المدة يربو بكثير على عدد البنات .

ومن الأمور المدهشة ما لوحظ فى الحربين العالميتين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٣٩ من أن حالات الحمل بالذكور كانت تزيد على حالات الحمل بالإناث فى الدول التى صليت بنار الحرب ، دون الدول التى لم يصبها شواظها . ولولا ذلك لاختلت نسبة الذكور إلى الإناث بين أهل الدول المتحاربة ، لفقدها الملايين من الجنود الذكور خلال الحرب . والواقع الملاحظ أنه لا تكاد تمضى سنون كثيرة حتى تعود النسبة فى تلك الدول بين الذكور والإناث إلى الاتزان . فأية قوة قادرة مدبرة تعمل بحكمتها السامية على بقاء النسبة بين الذكور والإناث حافظة للمستوى الكفيل بحفظ النوع ؟ إن لهذه القوة القادرة المدبرة سرا يقف إزاءه الفكر حائرا . والطبيعة فى تنفيذها لهذا السر تضع قوانين تظهر لنا صارمة ، ولكنها ضرورية لحفظ النوع ، وما الأوبئة والأمراض إلا وسيلة تمنع اكتظاظ الأرض بسكانها .

وهناك وسائل جمة للطبيعة تلجأ إليها لبقاء الجنس البشرى ، منها أنها توجب على الحى أن يكد ويسعى ، فلا يأكل خبزه إلا بالسعى وعرق الجبين ، ولولا ذلك لتحول إلى مخلوق رخو لا يستطيع أن يتحمل العوارض فيفنى مع الزمن .

وإنى لأذكر ما قرأته من أن طبيباً من أهل «إيتوسيا» فتن بحسناء من عامة قومه ، كان أبوها سماكاً يخرج كل يوم ليصطاد السمك ويكسب ببيعه ما يقوته . وهو مضطر إلى الخروج للصيد فى قاربه الصغير ، وإن كانت الريح عاصفة

تعرض حياته للخطر . وتزوّج الطبيب بابنة الصياد ، وكان بجوار المدينة منخفض من الأرض لو تسرب إليه الماء لكان بحيرة صغيرة ، فاشترى الطبيب تلك الرقعة من الأرض ، وشق بينها وبين البحر قناة . وقدمها هدية إلى نسيبه الصياد ، إشفاقاً عليه من الصيد فى البحر والتعرض لهبوب الزوابع . وزخرت البحيرة بأفخر السمك ، ونال الصياد منه كسب غانم ، ولكن بارت تجارته بعد عام أو نحوه ، إذ انفض الناس عنه ، وعزفوا عن شراء صيده . ففزع الصياد إلى الطبيب يسأله المشورة . ففحص الطبيب السمك ، فلم يجد به من آفة ، بيد أنه لاحظ أن لحم السمك قد طرأ عليه استرخاء وضمور . فعلل ذلك بأن السمك ينعم بحياة الرفاهة فى هذه البحيرة ، واحتال فى علاج ذلك بأن جلب إلى البحيرة صنفا من السمك مطبوعا على المشاكسة يسمى « ذئب البحر » . فلم يلبث النزاع أن نشب بين الفريقين ، واضطر سمك البحيرة إلى المقاومة ، فتقوت عضلاته ، وصار لحمه جزلا لا رخاوة فيه . فاستأنف الناس إقبالهم عليه ، واستطابتهم له .

لقد رسمت القوة القادرة لهذا الوجود تدبيرا محكما لا قيام له إلا بما حوى من سنن وقوانين وأوضاع . انظر إلى مختلف الخلائق من أدناها إلى أعلاها ، من الفيروس إلى الإنسان سيد المخلوقات ، تجد أنها تمارس وجودها بتقدير وإتقان .

وقد اهتدت المخلوقات إلى البيئات التى لابد منها لحياتها . وأتاحت لها الطبيعة من الغرائز ما تستبقى به نوعها . وهى تتخذ من الوسائل ما تدفع به العوائق فى طريقها . وتقاوم ما يطرأ عليها من الآفات والمبيدات . سواء فى ذلك الإنسان العاقل المفكر وغيره من ضروب الخلائق الراقية وغير الراقية . وكل شىء فى الوجود مرسوم له طريقه، ليبقى كما أريد له .

وقد أخذت الخلائق من مئات ملايين السنين — كما تبين للعلماء الآن — تتطور

التطور الملائم لخطة خفية تنشد الرقى المتواصل. وقد قطع التطور أشواطا بعيدة. وما زال فى طريقه لا ينى ولا يكل ، إلى أن وصل إلى الإنسان العاقل المفكر المبتكر، متطوراً من إنسان الغابة إلى «إينشتين» وغير «إينشتين». ومن جهله بوسائل الانتقال إلى الطيران فى الفضاء والوصول إلى الكواكب . وهناك خلائق رئى — لحكمة خفيت علينا — أن تبقى على حالها ، كما كانت منذ عرفها الإنسان . فالعصفور يتمم عشه على النحو المألوف منذ وجد ، والنمل يصنع قراه التى يعيش فيها كما صنع منذ كان . لا تغيير فى النظم ولا تحول إلى أمام أو إلى وراء . أما الإنسان فقد ميزته الطبيعة بقوة الابتكار والتجديد ، وحل ألغاز الطبيعة، والانتفاع بها وتسخيرها لرغباته .

ويتبين أن العقل الإنسانى ما برح عاجزاً قاصراً إزاء تلك القوة القادرة المدبرة التى تهيمن على الوجود فى ظاهره وخافيه ، أرضه وسمائه .

ومما حير فكرى ما قرأته أخيرا فى مجلة Illustrated London news لكبير من علماء الفلك، وخلاصته أن الرأى السائد بين الفلكيين كان إلى عهد قريب، أن الفضاء الكونى لا منتهى له ، ولكن ثبت من بعد أن لهذا الفضاء حدودا ، وأنه معمور بعشرات الألوف من المجموعات الكوكبية ، منها مجموعتنا الشمسية . وأن الأبعاد بين بعض المجموعات والبعض الآخر يجب أن تكون بحيث يبقى الجو المحيط بها محدود التشبع الكونى ، وهذه المجموعات تتجه فى سيرها أماماً حتى تصل إلى حدود الفضاء . ويتم ذلك فى ألف مليون من السنين . ثم ترجع من حيث أتت فى مثل هذا الزمن . وأن هذه المجموعات فى حركتها الاتساعية إلى الأمام يعترى الجو الذى تسير فيه نقص فى التشبع الكونى . ولكن قوة خفية لم يدرك العلماء كنهها إلى اليوم، تخلق كواكب أخرى تحفظ نسبة التشبع الكونى على الدرجة المطلوبة . ونحن الآن فى طور الاتساع إلى الأمام .

ولما سئل العلماء عن المادة التى تُخلق منها الكواكب التى تحفظ نسبة التشبع فى الفضاء الجوى، أجابوا: « لا ندري » . فلما سئلوا : « من يخلقها؟» أجابوا : « قوة لا يدرك العلم كنهها » .

لهذا كله، مما هو وليد البحث، والتأمل، والملاحظة، والاطلاع ، اطمأنت نفسى تماما إلى سر الخليقة وحقيقة الكون ، وازددت دنوا من معرفة الله ، واصطبغ بالتأييد العلمي والنظري ما نعمتُ به منذ صباي من معتقدات دينية قوامها الإيمان بواجب الوجود .

يد القدر

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها

بهذين البيتين، وما يجرى مجراهما من الحكم والأمثال فى الشعر والنثر، تلهج ألسنتنا، لنهوّن على أنفسنا ما نتورّط فيه من مآزق، وما يلمّ بنا من أرزاء، وما يعترض طريقنا من عقبات، ومن جو ذلك المعنى نستروح التعزية والسلوى حين يحل المكروه بمن نحبّ أو نعزّ.

ومن منا لا يذكر القضاء المحتوم، والقدر المكتوب، فى معرض المواساة والعزاء؟ وكم شفت هذه الجملة وأشباهها قلوب الثاكلين، وأنزلت السكينة والطمأنينة على نفوس من يعانون الشدائد ويكابدون الآلام!

ولكنى — فى قرارة نفسى — لا أطمئن إلى أن الله الذي ليس لكماله حدّ، يعاقب امرأ على شرّ فرضه عليه فرضا، ولا حيلة له فيه. كما أنه لا يثيب امرأ على خير لم يكن له فضل فى اختياره. والتمادى فى الركون إلى أن الإنسان لم يكن يستطيع التخلص مما فعل، يسوّغ لبعض ذوى العقول السقيمة والقلوب المريضة أن يتردّوا فى مهاوى الرذيلة، وأن ينساقوا فى تيار الغواية والإثم. وفى الحمل على الأقدار، سبيل إلى التبرؤ والاعتذار.

على أن فى الحياة من الكوارث ما لا حيلة للناس فيه كثورة البراكين والزلازل والأعاصير والفيضانات التى هى من صنع الطبيعة. كما أن من المسلم به أن المرء ليس مسئولا عما ينتابه من الأحداث والأمراض والأوبئة التى هى خارجة

عن إرادته،والتى لا حيلة له فى توقيها ، وإنما هو مسئول عما كان منها من صنعه، أو ما يقع له بغفلته أو بإهماله فى الوقاية منها .

يضع الله أمام الناس طريقين ، ويترك لهم حرية الاختيار ، وقد أرسل إليهم كلمته ، وفيها يهديهم إلى سواء السبيل ، فإن سلكوه فلهم فى ذلك فضل ، وإن لم يسلكوه فوزرهم على أنفسهم . والعدل الإلهى الذى لا حد له ، وموازينه التى لا تختل ، هى التى تحدد الجزاء لكل على قدر ما وهبه من فهم ، أو ما أتاحه له من بيئة أو ثقافة، أو ما ورثه عن أسلافه من خلق ذميم أو قويم، فمن أعطاه كثيراً طلب منه كثيرا ، ومن أعطاه قليلا طلب منه قليلا .

ولم يثقل على سمعى حديث أشد مما ثقل حديث مريضة سألتها ، وأنا طالب بعد : ما أسباب مرضها ؟ فأجابت : أصبت به وأنا أشتغل فى الوعد . فخفى عنى أمر هذا «الوعد» الذى تذكره،أصناعة خطرة هو ، أم عمل شاذ؟ فاستجليت منها الحقيقة،فقالت لى «الوعد» هو ما قدره الله لى . فلقد كتب على أن أسقط فى الرذيلة ، وبقيت كذلك سبع سنوات ، ثم تاب الله على» .

فهذه المرأة تبرر لنفسها عملها الشائن بأنه قدر مكتوب ، وحاشا لله أن يرضى الفاحشة لأحد من خلقه .

هذا من حيث اختيار الإنسان بين الطريق السوي والطريق المنحرف . أما من حيث ماجريات الحياة فإن العناية الإلهية تسدد طرق من ينادى ربه بحرارة وإيمان، ويترك له زمام أموره .

وإن قلبي ليفعم بالشكر عندما أجد أن جملة من الأحداث العابرة ، بل إن جملة من العقبات المعترضة ، هى التى كانت تهيئ لى أن أصل إلى المستقبل الذى ابتغيته لنفسى منذ نشأتى . وإنى لذاكر هنا شيئا من هذه الأحداث والملابسات التى كان لها أثر فى مجرى حياتى .

عنيت، إبان حداثتى، بقراءة مجلة «المقتطف» وكانت تستهوينى بحوثها العلمية فى مذهب النشوء والارتقاء، وفى اكتشاف ميكروب الدرن والمصل الشافى منه، وإن لم أدرك من حقائقها إلا القشور، فأذكت فى نفسى روح البحث عن المجهول، فكان منتهى ما أصبو إليه أن ألتحق يوما بمدرسة الطب، لأروى ذلك الظمأ الذى شعرت به. ولكن كيف السبيل إلى تلك المدرسة، وفى كل مرحلة من المراحل التى أمامى عوائق ليس التغلب عليها سهلا ميسوراً؟ على أن الله جلت قدرته استجاب لى، وأمكننى مما أريد، وكان ذلك بسلسلة من الأمور تبدو هينة، وإن كانت نتائجها بالغة الأثر.

كنت طالبا فى المدرسة الأمريكية بالمنصورة. وأقصى ما يتمناه خرّيجوها أن يكونوا مدرسين أو كتابا فى مصالح الحكومة. وما هى إلا أن نشأ خلاف بينى وبين أحد المعلمين فى المدرسة، فهرعت إلى أبى أفضى إليه بمخاوفى من أن ينتهى بى التعلم فى هذه المدرسة إلى غير ما أرجوه، فاقتنع أبى بما قلته له، وألحقنى بالمدرسة الأميرية التى نلت منها الشهادة الابتدائية. فكانت هذه هى الخطوة الأولى لسيرى فى الطريق القويم إلى مستقبلى المنشود، وهكذا تخطيت أول عقبة بسلام.

وانتقلت إلى القاهرة، فالتحقت بالقسم الثانوى فى المدرسة التوفيقية. ومدة الدراسة بها خمس سنوات، وفى أوائل عهدى بالمدرسة تدهورت حالة أسرتنا المالية إثر وفاة أبى، وبات متعذراً أن يستمر الإنفاق على تعليمى زمنا طويلا، فاستطعت أن أكمل دراستى الثانوية فى ثلاث سنوات بدلا من خمس، وساعدتنى فى ذلك ظروف لا تخلو من عنصر المصادفة، وبذلك اجتزت عقبة أخرى.

ثم دخلت مدرسة الطب، وأتممت دراستى فيها بجهد شاق، وقبل الامتحان النهائى تفشت «الكوليرا» فى مصر. فكان ذلك الحادث حجر الزاوية فى بناء

مستقبلى ، إذ اشتركت فى مكافحة الوباء ، ووفقت فى اكتشاف البئر الملوثة التى أطالت أمد الكفاح فى قرية « موشا » بعد أن عجز غيرى عن اكتشافها .

وعدت بعد انتهاء الوباء لأداء الامتحان النهائى ، وأعلن نجاحى . ولما دعى الخريجون إلى مصلحة الصحة لتعيينهم حدث ما عاقنى عن الذهاب معهم ، فشغلوا الأماكن المرموقة ، ولم يبق لى إلا مكان غير مرغوب فيه ، إذ لم يسلم من شغله قبلى من إنذار أو عقاب ، وهو فى مستشفى السويس ، فكان فى شغلى له الخير كل الخير ، إذ فتح لى آفاقاً لم تكن تفتح لى فى سواه ، وأتاح لى جملة من التجارب التى أفادتنى أيما إفادة

وقبل حصولى على إجازة الطب نقلت إلى الإسكندرية أثناء مقاومة وباء الكوليرا . وجرى فيها الحادث الذى أغرانى بالتخصص فى أمراض النساء والولادة . فقد دعانى الدكتور «شكرى (بك)» وكيل المستشفى الأميرى لمعاونته بتخدير سيدة متعسرة فى الوضع ، وشهدت كيف انتهى الأمر بوفاة الأم وتقطيع الجنين . فتألمت أشد الألم ، وعاهدت نفسى لأقضين عمرى فى إنقاذ المتعسرات فى الولادة .

ثم توالت مراحل حياتى بعد ذلك تحقيقاً لما صبوت إليه ، وأنا فى سن الحداثة ، ووفاء بما نذرت نفسى له وأنا فى مطلع الشباب .

وإنى لأستخلص من ذلك كله فيما يخصنى ، أن لكل امرئ أن يرسم لنفسه الطريق الذى يرضاه ، والغاية التى يبتغيها . وقد منح الله الإنسان العقل والفهم ، وألهمه إدراك الخير والشر . ومنحه التمييز والمعرفة ، وأعطاه حرية الاختيار ، وهو سبحانه قادر أن يذلل له عقبات الطريق ، ويعينه على بلوغ الغاية ، إذا اتجه إليه بعزم صادق ، وقلب عامر بالإيمان : « اسألوا تُعْطَوا ــ اطلبوا تجدوا ــ اقرعوا يفتح لكم » .

ولا أريد أن أختم القول عن القضاء والقدر دون أن أشير إلى أن ما انتاب الشرق من التخلف فى العصور المتأخرة ، كان بسبب اعتقاد خاطئ يعبر عنه مثل عامى يقول : « تجري جرى الوحوش ، وغير رزقاك ما تحوش » . والحقيقة أن الله أوجب على الإنسان السعى والعمل . وجاء مصداقاً لذلك المثل المشهور : « يا عبد قوم اسع وأنا أسعى معاك » .

وفيما قرأت من كتاب « كليلة ودمنة » ذلك الحوار بين الجرذ والظبي فى باب «الحمامة المطوقة» : « كان الظبي قد سقط فى شَرَك وأتى إلى الجرذ لكى يقرض حباله فقال الجرذ للظبي : كيف سقطت فى هذا الشرك وأنت من الأكياس ؟ فكانت إجابة الظبي : وهل ينفع الكَيْس مع المقادير شيئا؟» . وفى مكان آخر تقول الحمامة المطوقة للجرذ وقد وقعت هى أيضا فى شرك وطلبت منه قرض الشرك : « ألا تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا وهو مقدر على من تصيبه المقادير ، وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة ؛ فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى منى وأعظم أمراً » .

ومن أكثر الأشعار دورانا على الألسنة ، قول القائل :

لا تقل فيما جرى : كيف جرى؟ كل شىء بقضاء وقدر

ومثل هذه الأقوال إذا فهمت على ظاهر ما تعطيه من المعنى ، أساءت إلى النفوس ، وبثت فيها بذور الاستسلام والخمول ، وفى ذلك ما يقتل الهمة ، ويبطل السعى ، ويؤدي إلى التخلف ؛ على حين أن الحياة كد وجهاد ، والنجاح ثمرة العرق . فما تقدمت الدنيا ولا ازدهرت الحضارة إلا بالجهود البشرية التى بذلت جيلا بعد جيل ، وما دانت الأمانى لقاعد متواكل ، ولا كانت سنة الكون إلا أن من يزرع يحصد ، ومن سار على الدرب وصل .

الحياة وهل هي جديرة بأن نحياها؟

حينما أستعرض قصة حياتى وما حظيت فيها من متعة وسرور ، وما لاقيت فيها من متاعب ومكاره ، أجدنى أسائل نفسى فى شأن هذه الحياة : ما قيمتها ؟ وهل تستحق أن نبذل فيها ما نبذل ؟ . وقد كان هذا السؤال شغل فكرى منذ صباىِ . فقد طلب معلم اللغة الإنجليزية منا ، ونحن لا نزال طلابا ، فى السنة الأخيرة من التعليم الثانوى أن نكتب فصلا إنشائيا موضوعه :

« الحياة . وهل تستحق أن نحياها » ؟

ولم يستطع أحدنا القول فى هذا السؤال بنفى أو إيجاب ، فعهدنا بالحياة غض ، ومعرفتنا بها فجة ، ولم نكن قد اختبرناها بعد . أما الآن وقد بلغتُ هذه السن ، وذقت من شهد الحياة أحلاه ، ومن علقمها أمرّه ، فرأيى فيها هو التفاؤل لا التشاؤم . ولست أرى رأىِ سليمان الحكيم الذىِ قال فى « سفر الجامعة » : « ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس . . . فغبطت الأموات أكثر مما غبطت الأحياء ، وخير من كليهما من لم يولد » .

ولا أنا أرى رأى فيلسوف المعرة حين يقول :

تعبٌ كلها الحياةُ فما أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد

والذى أشعر به من صميم قلبى هو أن الحياة جديرة بأن نحياها لما تواتينا به من لذة الكفاح ، وما تمدنا به من كنوز المعرفة ، وما توقظ به عقولنا وترهف

عزائمنا فى كفاح المجهول . ولا سيما حين نستعلى بأنفسنا على الدنىّ من الغرائز ، ونتتصر على قوى الشر ، ونؤمن بأننا يجب أن نكون أعضاء عاملين فى مجتمع إنسانى يدين بالمحبة والخير والسلام .

وبالعزم والسعى والجهاد نظفر بالقوة التى تعيننا على أن نصيب أهدافنا . وليست القوة وليدة الحياة المدللة المترهلة البليدة الرافلة فى الثراء العريض ، وإنما هى وليدة الكفاح والمغامرة والألم. وكثيراً ما كانت الحياة المشوبة بالضنك حافزاً على العمل، ومجلبة لحميد الأخلاق، دون الحياة المفروش طريقها بالورود والرياحين . وقد علمتنى صروف الدهر أن الدنيا أرحب من أن نضيق بمتاعبها ، وأن اليأس عجز ، والصبر سلاح نصرع به كل شدة ، ونبلغ به أعز ما نتمنى . فخليق بنا ألا نشكو وألا نتضجر إذا اعترضتنا المضايقات . وعلينا أن ننظر إلى العالم الوسيع نظرة مستنيرة ، لكى نراه فى جماله وبهائه . وهنالك وراء ذلك كله ما أعده الله فى الدار الآخرة لمن يحبونه من نعيم مقيم ، فيه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ولو كان لى أن أوجز خلاصة ما قرأت وما سمعت ، وما رأيت من طبيعة الخير والشر فيمن صادفتهم من الناس فى حياتى ، لقلت إنى عرفت عمق الهوة التى قد ينحدر إليها من يبتعدون عن الله، ولا يفكرون إلا فى أنفسهم . كما عرفت سمو الأوج الذى يبلغه من يتجهون إلى الله ويفكرون فى الآخرين .

محاضرات فى الخارج

قرر مجلس إدارة الكلية الملكية للولادة وأمراض النساء فى إنجلترا ، دعوتى لإلقاء محاضرة « فلتشر شو » Fletcher Shaw التذكارية لسنة ١٩٥٦ . والشروط التى يجب توافرها لمن يختار لإلقاء هذه المحاضرة هى أن يكون المحاضر أحد من يحرزون درجة الزمالة فى الكلية ، وأن تكون بحوثه التى قام بها أدت إلى تقدم ملحوظ فى علمى الولادة وأمراض النساء . فيختار له المجلس موضوع بحث ويكلفه إلقاء محاضرة فيه . والمتبع أن يعلن نبأ المحاضرة فى مختلف البلاد التى تتكلم الإنجليزية ، قبل موعد إلقائها بستة شهور ، حتى يتسنى لمن يرغب من الأطباء والباحثين الحضور للاستماع إليها من كل مكان .

وفى صيف سنة ١٩٥٦ كنت قد تأهبت لإلقاء محاضرتى . فأعددت الأفلام الملونة الخاصة بالجراحات التى تتصل بالموضوع .

وبينما أنا أتخذ إجراءات السفر ، وردتنى دعوتان : إحداهما من الأستاذ كيللر Keller لإلقاء محاضرات بجامعة أدنبرج ، والأخرى من الأستاذ نكسون Nixon لإلقاء محاضرات بجامعة لندرة .

وكذلك تلقيت من سويسرا دعوتين أخريين :

إحداهما من الأستاذ «دى فاتفيل» De Watteville أستاذ الولادة بجامعة جنيف .

والأخرى من الأستاذ «روشاه» Rochat أستاذ الولادة بجامعة لوزان . وكل منهما يرغب إلى فى إلقائى محاضرات فى الجامعة التى ينتمى إليها .

فاستجبت للدعوات كلها ، وأعددت لذلك العدة . وقد أعانتنى حفيدتى

« نادية » كريمة المهندس « يوسف سميكة » فى هذا الصدد بأن تولت ترجمة المحاضرات التى أزمعت إلقاءها فى سويسرا إلى اللغة الفرنسية .

سافرت أولا إلى « سويسرا » ، وألقيت فيها هذه المحاضرات. وكان الإقبال عليها كبيراً . وقد أفضى إلىّ الأستاذ « دى فاتفيل » بوصفه رئيساً للمؤتمر العالمى للولادة وأمراض النساء ، برغبته فى الحصول على نسخة من أفلام الجراحات ، لقاء ثمن يؤديه . فأخبرته بأنى سأقدم نسخة هذه الأفلام هديةً باسم جمعية الولادة وأمراض النساء المصرية ، إلى جامعة « جنيف » . ولم ألبث أن فعلت .

ولما ذهبت إلى « لندرة » ألفيت فى الفندق رسالة تنتظرنى ، وجهها إلىّ السير «تشارلس ريد» Sir Charles Reade رئيس الكلية الملكية للولادة ، وفيها يبلغنى أن مكان إلقاء المحاضرة ليس دار الكلية ، بل دار الجمعية الملكية الطبية . وفى الموعد المحدد قصدت هذه الدار ، وقدّمنى السير « تشارلس» إليهم مجملا تاريخ حياتى ، مشيراً إلى ما قمت به من بحث وتأليف . ثم قال : « إنه كان من المفروض أن تلقى المحاضرة بدار الكلية ، ولكننا بعد إعلان النبأ بثلاثة أشهر ، تلقينا من مختلف بلاد العالم سيلا من الرغبات فى الحضور ، إذ بلغت الطلبات سبعمائة وخمسين . ولا تتسع قاعة المحاضرات بدار الكلية لهذا العدد ، فاخترنا أكبر قاعة للمحاضرات فى « لندرة » ، وهى قاعة الجمعية الملكية الطبية . ومع ذلك لم تتسع للحاضرين ، وبينهم الآن ثمانية وعشرون لا يجدون لهم مكان جلوس ، وستدبر لهم كراسى الآن» .

وبعد انتهاء المحاضرة أقيمت لنا حفلة كبيرة . وكانت كريمتى « سميرة » والمهندس « يوسف سميكة » و « لادى جيليات» Lady Gilliatt زوجة رئيس الجمعية الطبية البريطانية يستقبلون المدعوين . وهم من علية القوم . وبينهم عدد من الشخصيات البارزة التى كنت أود التعرف بها . ومما زادنى سروراً أن كان بين الحاضرين حفيداى : « سمير » (الدكتور سمير الآن) و « نادية » .

وفى المساء دعيت إلى حفل عشاء بدار الجمعية ، شهده أساطين الطب والجراحة فى إنجلترا ، وبعد يومين أقام السير «تشارلس ريد» عشاء آخر لمائتين وخمسين مدعواً ، كنت فيه أنا وكريمتى وزوجها وحفيداى ضيوف الشرف . وفى هذا الحفل تفضل كثير من الحاضرين من البلاد المختلفة بإلقاء كلمات تقدير تنمّ عن شعور كريم .

ولما فرغت من إلقاء محاضراتى بجامعة « لندرة » سافرت أنا ومن معى من الأسرة إلى « أدنبرج » لأحاضر فى كليتها . وقد بالغ الأستاذ « كيلار » Keller والسيدة قرينته فى الحفاوة بنا . وبقينا فى «أدنبرج» أسبوعاً زرنا فيه معالمها ، ورأينا « المورز » Moors التى كنا نقرأ عنها فى روايات « والتر سكوت » ، وهى مستنقعات تكسو سطوحها طبقة غزيرة من النباتات والزهور الجميلة والأبصال البديعة . ومن حسن حظنا أن السماء لم تمطر خلال الأسبوع الذى قضيناه فى المدينة ، على الرغم من أنها مشهورة بأمطارها التى لا تنقطع يوماً .

وغادرنا «أدنبرج» Edinburgh عائدين إلى «لندرة» ونزلنا فى فندق جميل فى الريف . وبينما نحن فيه جاءتنى دعوة من الأستاذ «تشاسر موير» Chassar Moir لإلقاء محاضرة فى جامعة «أكسفورد» فقبلت . ولكنى اضطررت إلى الاعتذار من بعد ، إذ وقعت مقدمات أحداث قناة السويس ، وانقطعت العلاقات بين مصر وإنجلترا . وترتب على ذلك أن جمّدت النقود التى كنا أودعناها المصرف للإنفاق . وما كاد الأصدقاء فى إنجلترا يعلمون بذلك حتى انهالت علىّ رغباتهم فى أن يمدّونى بما فيه كفايتى ، فشكرت لهم . ولم أحتج إلى قبول شىء منهم ، إذ كنت محتفظاً معى بقدر من النقود يسد الحاجة أو يكاد . ولم يخلُ الأمر من متاعب ومصاعب . ولما راجعت « بنك إنجلترا » فى أمر تجميد النقود التى لى ، أذن بصرف ما طالبنى الفندق به من قائمة الحساب ليس غير .

وفى السنة التالية دعانا الأستاذ « تشاسر موير » لإلقاء محاضرة فى جامعة « أكسفورد » وقد قمت بإلقائها ، ويسرنى أن أسجل ما لقيناه فى « أكسفورد » من كرم الضيافة .

وإن من دواعى سرورى أن الدعوات لإلقاء محاضرات فى « لندرة » وسواها من البلاد لا تزال تصلنى تباعاً ، وأنا أقوم بإلقائها فى عطلة الصيف ، وإنى أسرّ بهذه الدعوات لأنها تتيح لى الاتصال بأساطين العلم وتبادل المعلومات معهم . كما أنها تحقق لى سعادة حقيقية باتصالى بالطلبة من مصريين وأجانب وقد أخذت على نفسى أن أستجيب لهذه الدعوات ما بقيت فىّ المقدرة على تحمل أعبائها .

وفى صيف عام (١٩٦٢) دعتنى كلية الدراسات العليا بـ « همرسمث » Hammersmith لإلقاء محاضرة بها أعلنت نبأها فى المجلات الطبية غير مرة . وقد خصصت لها القاعة الكبرى التى ابتنتها حديثاً . وسرنى أن وجدت بالقاعة عدداً وافراً من أبنائنا المصريين وجمهوراً كبيراً حضروا خاصة من بلاد مختلفة لسماع المحاضرة . وفى اليوم التالى لإلقائى المحاضرة أقام أستاذ الولادة « مكلور براون » Mc Clure Browne حفلة كوكتيل دعا إليها مائة وخمسين من كبار الأطباء كما دعا الطلبة المصريين ورجال السفارة المصرية ، والقنصلية المصرية والمندوبين الثقافيين ، فوجدت فرصة حسنة لتقديم أبناء البعثات للأساتذة الذين يعملون معهم فى المعاهد المختلفة . وقد أقام السيد السفير « محمد عوض القونى » حفلة غداء بالسفارة المصرية ، دعا إليها جميع رؤساء الكلية الطبية وسكرتيريها . وكان هذا الحفل موفقاً جداً فى التعارف بين الطرفين .

لفتة إلى الوراء

أسلفت فى الصحائف الماضية، قصة حياتى ، وسردت فيها معالم مما مرّ بى من أحداث وشئون ، وتوجهت بها إلى الناس عامة ، وإلى أبنائى الطلبة على وجه خاص ، وترخيت فى تسجيلها ما وفقنى الله إليه من دقة وأمانة وإخلاص .

وكان فى طليعة ما عنيت بإبرازه أن أعرض من الشئون والأحداث التى انطوى عليها تاريخ حياتى بعض ما يحققه الكفاح المرير .

واستوحيت من دروس الماضى وعبره وعظاته ما أردت به أن يثير فى نفوس أبنائى الطلبة شوقاً إلى المعرفة، وجدًّا فى التحصيل ، وعكوفاً على التجربة ، واتجاهاً بالجهود وجهة خالصة لتقدم العلم ، وخدمة الوطن ، وخير الإنسانية .

ويطيب لى ، وقد بلغت الغاية من السرد والتسجيل ، قبل أن ألقى القلم ، أن أقف قليلا ، لألتفت إلى الوراء التفاتة عامة ، أتأمل فيها ماضى أيامى جملة ، وما صادفنى فى هذا الماضى ، وما أفاءه علىّ فى حاضرى المشهود .

لقد مر بى اليوم القاتم العاصف المكفهر . ومر بى كذلك اليوم الباسم المشرق المزدهر . فعرفت على وجه اليقين من تجربتى أن حياة المرء كالحياة نفسها على ظهر الأرض . فكما يتعاقب الليل والنهار بالظلمة والنور ، يتعاقب اليومان فى حياة المرء بالقتمة والإشراق .

وعلينا أن نتذرع بالإيمان والصبر فى مواجهة المحن والمصاعب والأثقال .

فإذا قبلنا فى غير زهو ولا غرور ما تواتينا به الظروف والملابسات من خير ، واحتملنا فى عزيمة وجلد ما تمتحننا به من شر ، ولم نلق سلاحنا لنوازع اليأس ، ولم نستسلم للعقبات والعراقيل ، نعمنا بالحياة المثلى ، وسعدنا بالرضا الرفيع عن النفس .

ولن تتاح لنا هذه النعمة والسعادة الحقة ، ما لم تصهرنا المحن ، وتعركنا الأحداث ، وما لم نبلُ من الحياة حلوها ومرّها على السواء .

وهأنذا اليوم ، وأنا أكتب هذه السطور ، أجد فى أعماق نفسى من الطمأنينة والرضا ما أحمد الله عليه أجزل الحمد .

وحسبي من ذلك أنى قد أتيح لى أن أحيا حتى أشهد بلادى وقد بارك الله كفاحها ، فى سبيل الحرية والاستقلال . فوهب قادتها الأحرار أكبر التوفيق فى هذه الثورة المجيدة التى ردت على الوطن كرامته ، ورفعته من بلد مغلوب على أمره ، مضطرب فى سيره ، إلى دولة قوية الشوكة ، عالية الصوت ، تتبوأ بسيادتها مكانة مرموقة فى المجال الدولىّ ، وتعبئ قواها وطاقاتها وكفاياتها لتوفير الديمقراطية الصحيحة والاشتراكية العادلة بين مواطنيها أجمعين .

ولا أحصى ثناء على الله الذى كان من لطفه بى أن أتاح لى كريماتى الثلاث : « سميرة » و « إيزيس » و « شهيرة » وأزواجهن وأولادهن ، يلتفون حولى ، ويتفانون فى ابتغاء كل وسيلة تجعل حياتى هادئة هانئة .

فأنا أستقبل الصباح بكريمتى الصغرى « شهيرة » ووجهها الصبيح المتفائل ، وزوجها وأبنائها الأعزاء الذى يملأون قلبي سروراً .

وحين أعود من عملى فى المساء أجد فى انتظارى كريمتى « سميرة » و « إيزيس » وزوجيهما وأبنائهما ، فيذهب عنى بأنسهم ما قد يصادفنى من متاعب اليوم .

وأخلد إلى فراشى ، فى جو تشيع فيه المحبة والطمأنينة . وذلك أقصى ما كنت أطلبه من الله ، وقد حبانى به . فله المنّــــة ، وله الحمد ، ومنه التوفيق .

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤كورنيش النيل – رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ ـ ٢٥٧٧٥٢٢٨
٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ش شريف ـ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى ـ التوفيقية ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر ـ الحسين ـ
القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان ـ السيدة زينب
أمام دار الهلال ـ القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو ـ حلوان خلف مبنى
الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد ـ ميدان الجيزة ـ الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام ـ بالحرم الجامعى
بالجامعة ـ الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم ـ محطة المساحة ـ الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة ـ الهرم
مبنى أكاديمية الفنون ـ الجيزة

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك ـ نهاية ش ٢٦ يوليوو
من أبوالفدا ـ القاهرة

مكتبة الإسكندرية

٩٤ ش سعد زغلول ـ الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك ـ المرحلة الخامسة ـ عمارة ٦

مدخل (أ) – الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى ـ بكلية الزراعة ـ

الجامعة الجديدة ـ الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ ـ بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى ـ أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ش الجمهورية ـ أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب ـ المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب ـ جامعة المنيا ـ

المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة ـ عمارة سينما أمير ـ

طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا ـ المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى ـ دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى ـ توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصـــورة

٥ ش السكة الجديدة ـ المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكـتـبـة مـنــوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

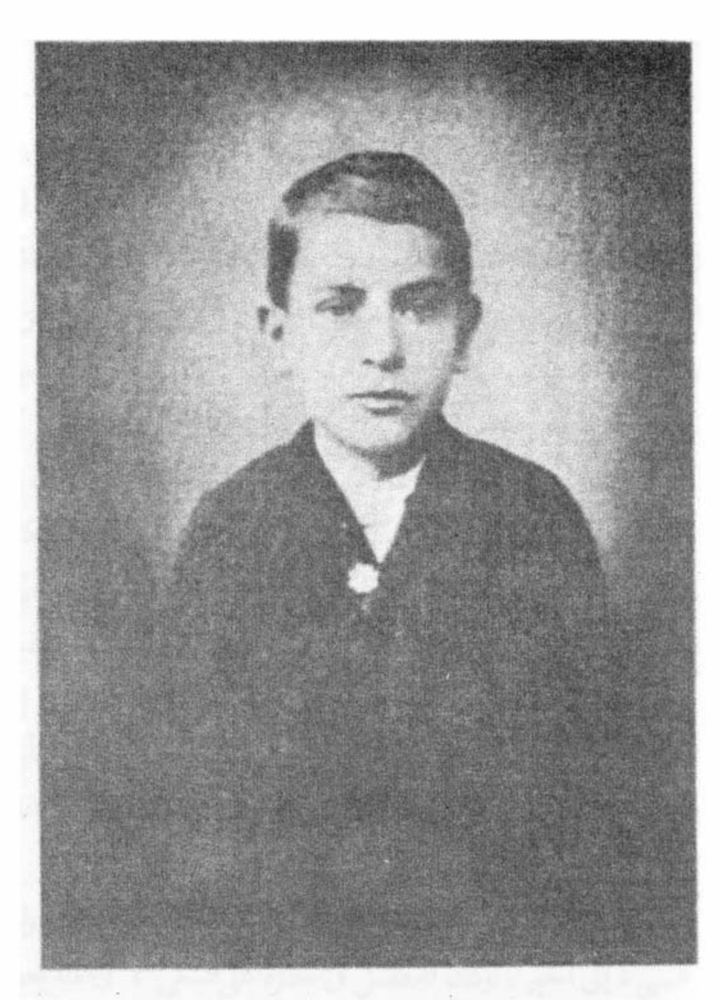
ميدان التحرير ـ الزقازيق

ت : ٠٥٥/٢٣٦٢٧١٠

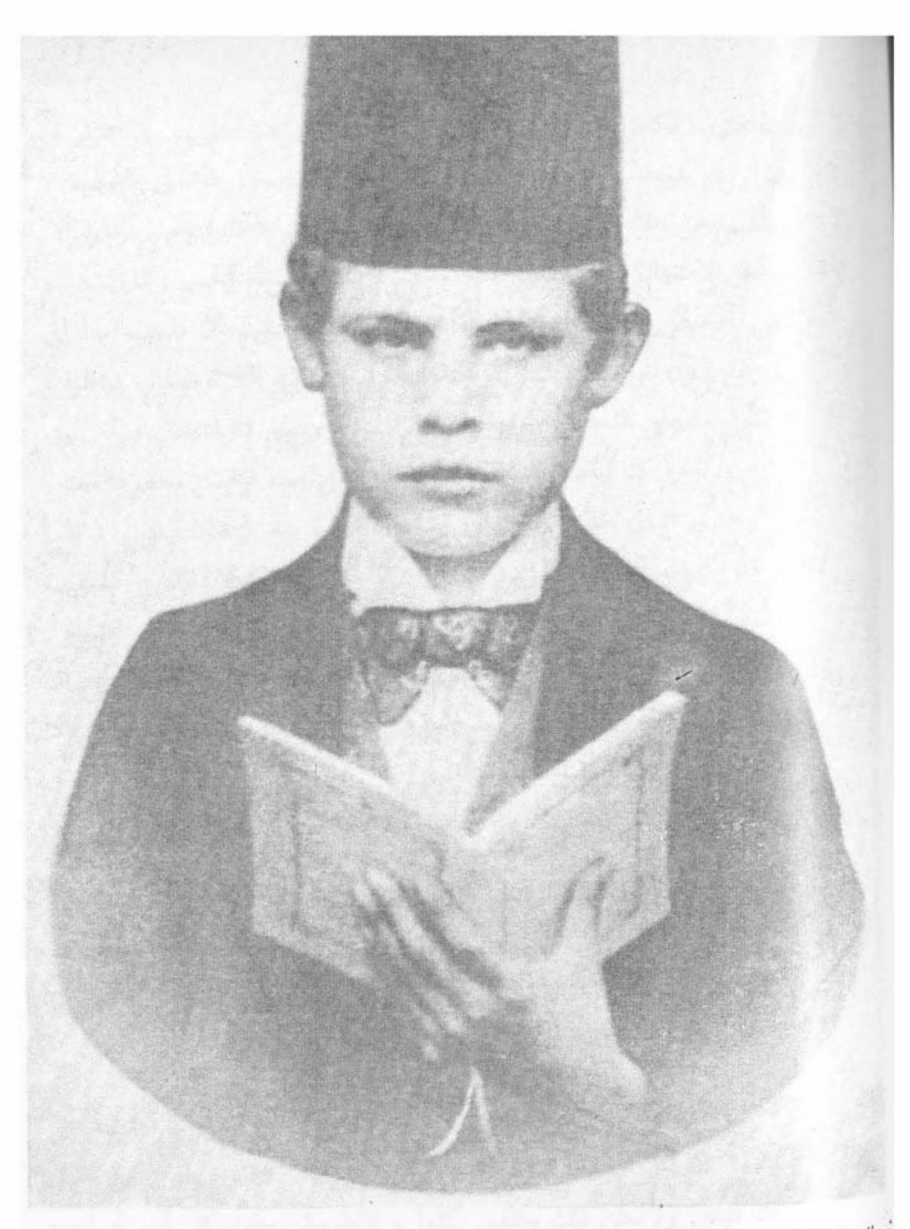
ت: ٠١٠٠٦٥٣٣٧٣٣٢

طبعة خاصة لمكتبة الأسرة تصدر عن
دار المعارف



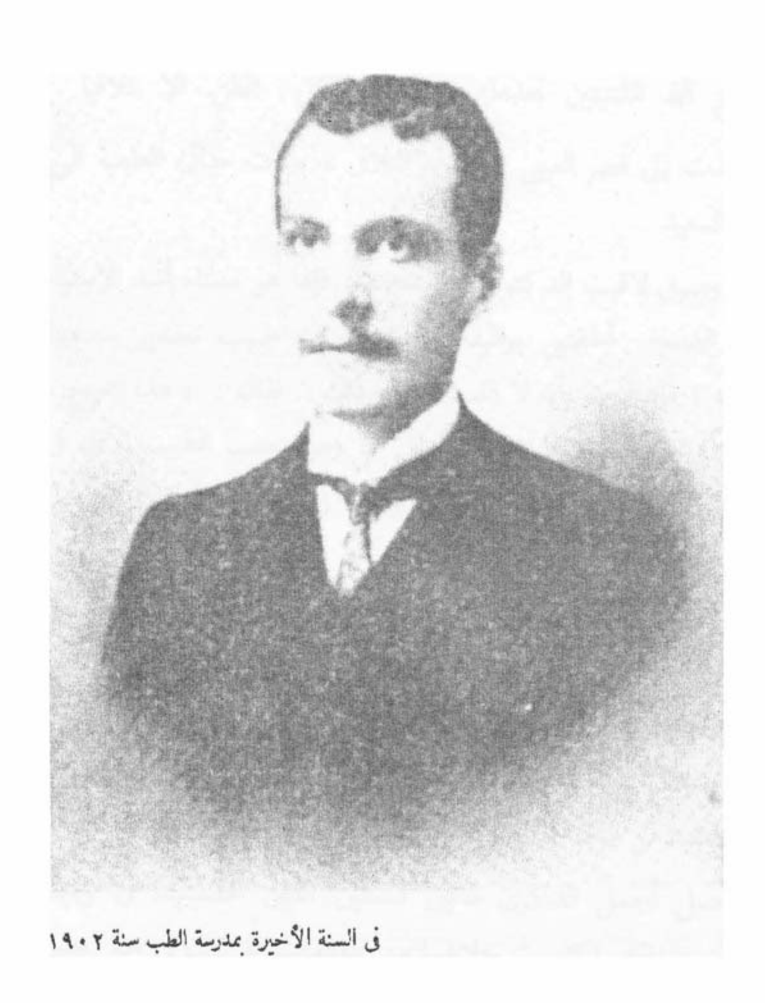


فى سن تسع سنوات بمدرسة الأمريكان بالمنصورة
تقابلت فى الطريق مع شقيقاتى وهن سائرات إلى ستوديو فوتوغرافى فطلبت
من شقيقتى الكبرى أن أذهب معهن حتى تؤخذ لى صورة فاعتذرت لأنى
تعاركت مع ابنها فهمى واقتلع الزر الأعلى من الجاكيته فقالت : لا بأس
سأشبك طرفيها بدبوسى . وهذا الدبوس يرى فى الصورة



فى السنة الثالثة الابتدائية بمدرسة المنصورة الأميرية

هذه الصورة عملت وأنا تلميذ بالسنة الثالثة الابتدائية بالمنصورة ويرى أنى تعمدت فيها أن تظهر السلسلة الذهبية (الكتينة) فى الصديرى أسفل الكتاب الذى بيدى . وقد استعرت هذه السلسلة من شقيقتى الكبرى فريدة وقد نبهتنى عند استعارتها إلى أن الأولاد الصغار لا يلبسون سلاسل ذهبية فلما رأت أن رفضها ساءنى سمحت لى باستعارتها ولبستها فى هذه المناسبة وحدها .



فى السنة الأخيرة بمدرسة الطب سنة ١٩٠٢



فى مكتبى بالمستشفى القبطى

يشرح الدكتور نجيب محفوظ أحد النماذج لحفيديه
الدكتور سمير محفوظ سميكة والدكتور أمين حلمى مكرم

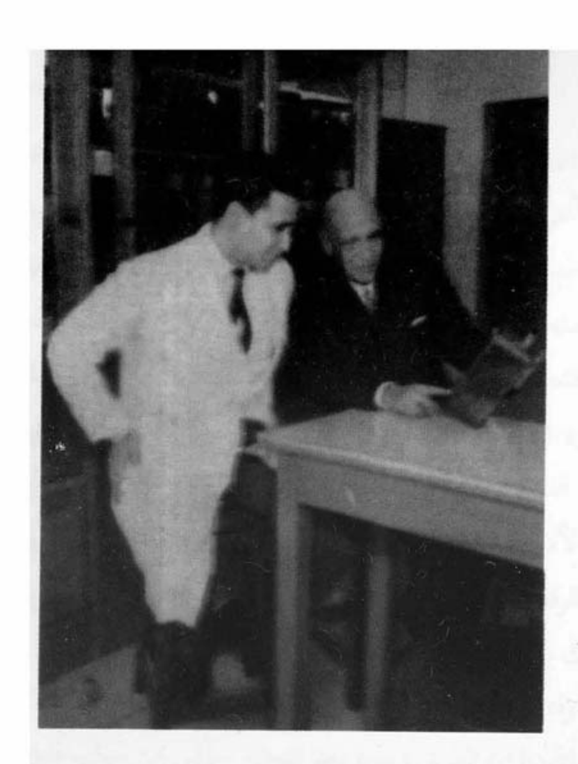
فى غرفة عمليات المستشفى القبطى



السيدة فايقة محفوظ



أخذت في سويسرا (لوسرن) سنة ١٩٠٨



الدكتور نجيب محفوظ فى متحف
أمراض النساء والولادة يشرح
لحفيده الدكتور سمير محفوظ
سميكة إحدى العينات

منظر النيل من نوافذ متحف أمراض النساء والولادة

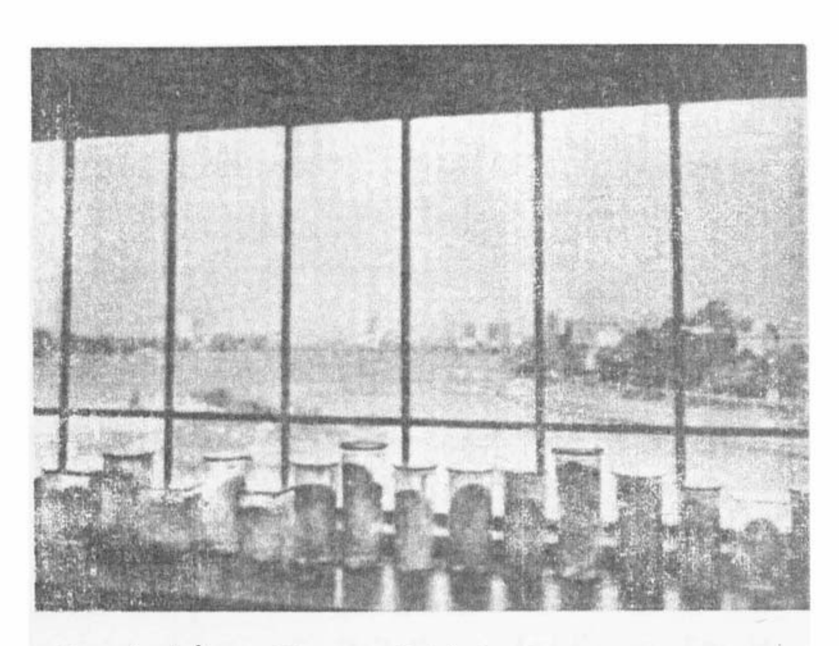




ركن من أركان متحف أمراض النساء والولادة ، وفيه تظهر صورة مستشفى الأزبكية المدنى ومدرسة المولدات اللذين أنشئا سنة ١٨٣٧ .



أحد أركان متحف أمراض النساء والولادة



منظر للنيل كما يرى من نوافذ متحف أمراض النساء والولادة



كريمتي شهيرة وأولادها ملك ونجيب وكريم

سير وتراجم

قصص حياة كتبها أصحابها أو كتبها آخرون سعيًا إلى فهم أعمق للذات الإنسانية فى ضعفها وقوتها، ورصدًا لتجاربها التى منحتها القدرة على الإبداع الإنسانى فى صوره المتنوعة.

حياة طبيب

في أسلوب ممتع وجذاب يخلو من المبالغة أو التكلف يكتب المؤلف قصة حياته، ويبث إلى الشباب خبراته وتجاربه. كأنما يكتب لنا حديثه الخاص إلى نفسه، أو يستعرض فى أوقات التأمل والتفكير حياته منذ الصبا إلى أن تقدمت به السن.

ويكشف الكتاب عن قصة نجاح ذلك الطبيب المصري البارع فى حياته المهنية رغم مشكلات ومصاعب الحياة التى واجهها جلدا صبورا كما يفعل العظماء فى مواجهة الحياة بمشكلاتها ومصاعبها.

د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ - ١٩٧٢)

ولد فى الخامس من يناير ١٨٨٢، التحق بمدرسة قصر العينى الطبية عام ١٨٩٨، حيث تلقى تعليمه وتدريبه على أيدى الأساتذة الأوروبيين.

تخرج فى مدرسة قصر العينى الطبية فى عام ١٩٠٢، ليتم تعيينه كطبيب تخدير، لكنه قام بتدشين عيادة خارجية لأمراض النساء والولادة، وسرعان ما حقق نجاحا مذهلا فى هذا التخصص. كما أسس متحف نجيب محفوظ لعينات النساء والولادة، كما أن له العديد من المؤلفات عن الطب النسوى باللغة العربية والإنجليزية. حصل على العديد من الأوسمة والجوائز الرفيعة منها: جائزة الملك فاروق للعلوم الطبية، ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، وجائزة الدولة التقديرية فى العلوم ١٩٦٠.

ISBN# 9789774481802



٤ جنيهات

